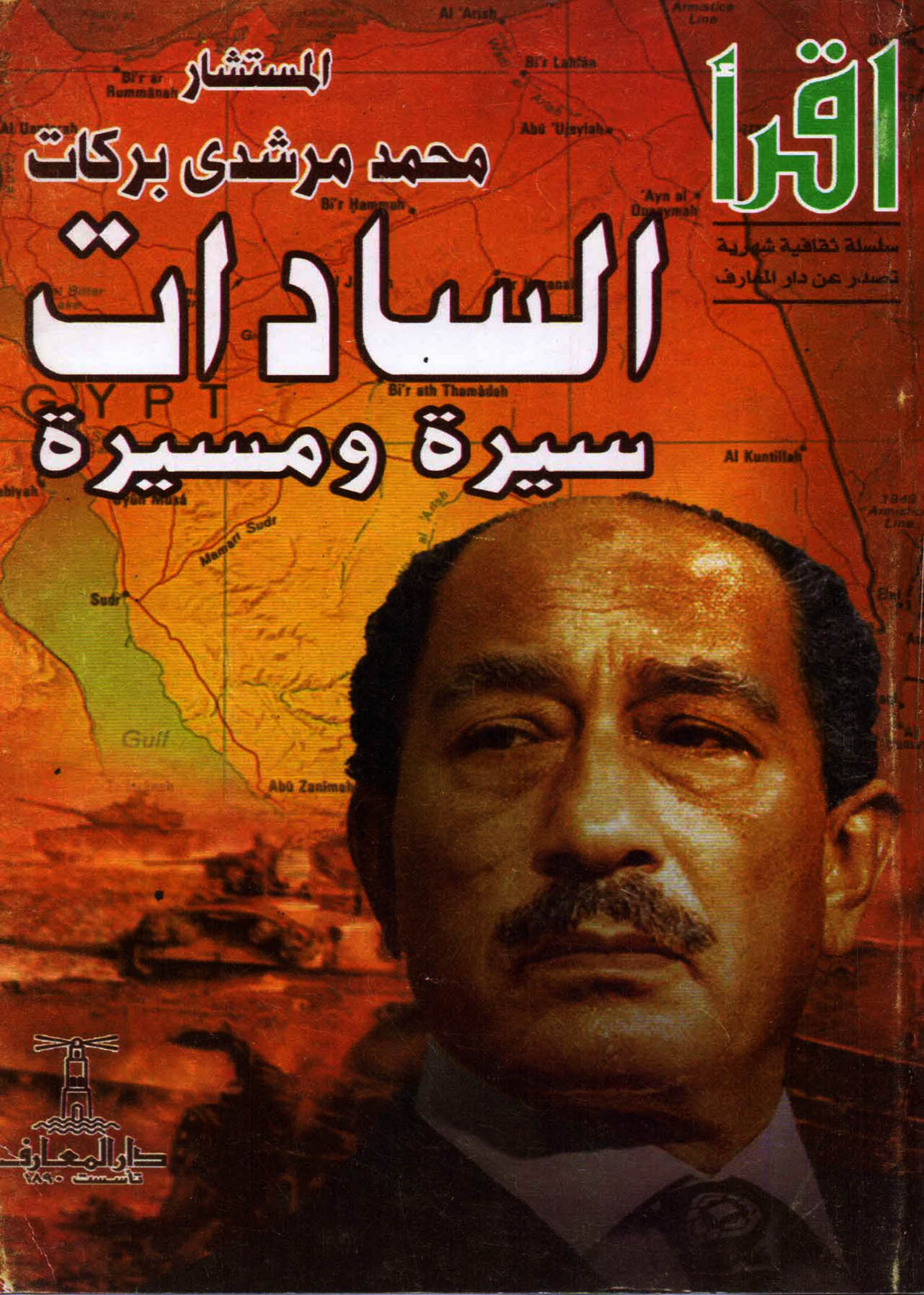

اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
المستشار
محمد مرشدى بركات
السادات
سيرة ومسيرة
دار المعارف
تأسست ١٨٩٠



سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٧٧٢]

دار المعارف
طباعة وتوزيع دار المعارف

تنفيذ المتن والغلاف
بإدارة الجمع وفصل الألوان
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg
http://gate.dar-elmarf.com

المستشار: محمد مرشدى بركات

السادات

«سيرة ومسيرة»



اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين



أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

إهـــــداء

.. إلى والِدىّ الكرام.. تغمدهما الله بواسـع رحمته وإلى ابنى خالد، وكريمتى سارة وفقهما الله.

وإلى السـيدة الفاضلة الدكتورة جيهان السادات رفيقة درب الزعيم الراحل.. وإلى شـباب مصر الذين لم يعاصروا السادات.. بل إلى الذين عاصروه أيضا.

المستشار

محمد مرشدى بركات

العباسية – القاهرة

١ / ١٢ / ٢٠١٣

السادات الذى سبق عصره

الويل لمن سبق عقله زمنه.. ولقد سبق السادات زمنه وزمانه!.

وقد سجل التاريخ بين دفتيه أنه فى تمام الساعة الثانية ظهر السادس من أكتوبر كانت الأنظار جميعها ترنو إلى الجزء الخاص بالقوات الجوية التى كان يرأسها اللواء طيار «محمد حسنى مبارك» وكانت الإشارات قد وصلت تنبئ بل تؤكد أن قوات الضربة الجوية الأولى وقوامها مائتا طائرة قد عبرت فوق ارتفاع منخفض قناة السويس وبدأت الأخبار تترى بأن طائرات هذه القوة بلغت هدفها ونفذت مهامها الموكولة إليها بنجاح فائق فاق ما كان منتظرا منها، فقد تم ضرب مراكز قيادة ومواقع ومناطق حشد القوات الإسرائيلية.

.. وعندما أزفت الساعة على الثانية وخمس وعشرين دقيقة بدأت القوارب «المطاطية» تنزل فى القناة تحت وابل من نيران العدو الذى أذهلته المفاجأة،وبدأ يفيق منها. كان على صفحة مياه القناة ما يقرب من ستمائة قارب مطاطى فى كل واحد منها ثمانية مقاتلين تشق طريقها إلى الضفة الأخرى وسط عاصفة من النيران،وكانت مجموعات الصاعقة التى اقتحمت أرض سيناء قبلها قد نجحت فى تعطيل عمل مواسير النابالم التى كانت ستحيل القناة إلى كتلة من اللهب.

.. وفى التوقيت ذاته السالف ذكره أيضا كان هناك لواء دبابات برمائى يعبر على القطاع الجنوبى من مياه القناة بالدبابات الضخمة من طراز «تى ٧٦» ووراءه المدرعات السابحة من طراز الـ «توباز» الشهير.

.. وفى اللحظة نفسـها عـبرت فوق القناة مجموعـة من الطائرات تحمـل مجموعات من قوات المظلات الذين قفـزوا بقرب منطقة المضايق تمهيدا وانتظارا وإعدادا لمرحلة ثانية من الخطة.

.. وفى السـاعة الثالثـة كان مجموع القـوات المصرية التى تمكنت من عبور الجسـور إلى الضفة الشـرقية قد وصل إلى ٨٠٠ ضابط و١٣٥٠٠ جندى.

.. وفى السـاعة الثالثة والنصف كانت قوات المهندسـين تعبر فى وحـدات بحرية خاصة جهزت بالخراطيم وكانت المهمة الموكولة إليها هى فتـح الثغرات فى السـاتر الترابى على الضفة الشـرقية من القناة هاتيك القوات التى كان لها دور مهم فى حرب أكتوبر؛ إذ عطلت القوة البحرية لإسـرائيل وبثت الألغام داخل مياه البحر الأحمر ومنعت أية سفينة من دخول ميناء إيلات أو الخروج منه.

.. وفـى السـاعة الرابعـة والنصـف كان حجـم القـوات المصرية علىالضفـة الشـرقية قـد وصـل إلى ١٥٠٠ ضابـط و٢٢٠٠٠ جنـدى. (وفـى هذه اللحظة قـام الرئيس «السـادات»، ومعه الفريق أول «أحمد إسماعيل» قاصدين إلى مكتب القائد العام، وطلب السفير السوفيتى).

.. وفى الساعة الخامسة والنصف كان هذا الحجم قد وصل إلى ٢٠٠٠ ضابط و٣٠٠٠٠ جندى.

(قام الرئيس «السـادات» مرة أخرى قاصـدا إلى مكتب القائد العام ليتلقى مكالمة تليفونية له من «بريجنيف» – لكن الاتصال لم يتم لسبب

غير واضح،وقد انتهز الرئيس فرصة وجوده فى مكتب القائد العام فاتصل ببيته بالجيزة وبـ «محمد حسنين هيكل» فى مكتبه بالأهرام).

.. وفىالساعة السادسة والنصف كانت عملية فتح الثغرات فى الساتر الترابى قد حققت جزءا كبيرا من مهامها،وبدأ تركيب كبارى العبور،وراحت الدبابات تتقدم على أول كوبرى تم تركيبه.

.. وفى الساعة العاشرة مساء كانت قوات المهندسين التى كان يترأسها الشهيد «أحمد حمدى» قد تمكنت من فتح ٦٠ ثغرة فى الساتر الترابى، وأزاحت بالتجريف ما حجمه ٩٠٠٠٠ متر مربع من الرمال بفكرة الرائد «اللواء (باقى زكى يوسف)» صاحب الفكر العبقرى فى تدمير الساتر الترابى على حافة القناة بطلمبات المياه،ووصل عدد الكبارى الثقيلة التى أمكن تركيبها إلى ثمانية، بالإضافة إلى أربعة كبارى خفيفة،و٣١ معدية كانت تتحرك بسرعة وقوة من ضفة إلى ضفة حاملة معها المزيد من القوات والمعدات.

.. وعندما حل منتصف الليل تماما كانت هناك خمس فرق كاملة من المشاة والمدرعات على الضفة الشرقية لقناة السويس، وكانت معظم مواقع خط بارليف الحصينة قد حوصرت،ونصفها تم اقتحامه.

(وكانت الجبهة السورية تعيش مشهدا مماثلا، ففى هذا الوقت كان الطيران السورى قد قام بضربة أولى،ثم جرى تمهيد بالمدفعية،وفى الساعة الرابعة كانت المدرعات السورية قد تخطت خنادق التحصينات الإسرائيلية فى الجولان – وقبل أن ينزل الظلام كانت تتقدم فى اتجاه مدينة القنيطرة عاصمة الجولان).

.. كان الرئيس «السادات» فى الساعة السابعة تماما،وكل القادة الذين تواجدوا متحلقين حوله - الجميع فى حالة من النشوة لا تكاد تصدق. وقد تأكدوا أن أخطر عملية فى الحرب كانوا يتحسبون ويتوجسون من خسائرها قد تمت بنجاح فاق خيالهم.

.. وكانت أروع لحظة فى حياتهم هى التى تلقوا فيها أول تقدير مبدئى عن حجم الخسائر المصرية فى العملية حتى الآن.

.. وكانت الخسائر فى عملية العبور هى استشهاد ٦٤ رجلا إلى جانب ٤٢٠ جريحا وقد أصيبت ١٧ دبابة،وتعطلت ٢٦ عربة مدرعة وكان ذلك لا يصدق؛ فقد كانت كل التقديرات العلمية عن الخسائر المحتملة فى عملية العبور تصل بها إلى عشرات الألوف من الشهداء والجرحى. وكان الرئيس «السادات» ومن حوله القادة يتبادلون النظرات وهم لا يكادون يتصورون واقع ما جرى أمام عيونهم. كان بكل المعايير ضربا من المعجزات. وأبدى الفريق أول «أحمد إسماعيل» ملاحظة واحدة قال فيها إن «الأولاد يتقدمون على الكبارى كما لو أنهم يقومون بعملية تدريب. وكأن كل هذه النيران من حولهم مجرد مناورة بالذخيرة الحية».

.. وفى الساعة السابعة مساء،كان الرئيس «السادات» قد اطمأن بأكثر مما راوده فى أوسع أحلامه جموحا - إلى أن هناك شيئا عظيما تم تحقيقه. وقد خطر بباله أنه يستطيع أن ينتقل الآن من مقر قيادته العسكرية،ويعود إلى قصر الطاهرة ليتابع من هناك آثار الساعات

التى عاشــها فى المركز رقم «١٠» – على مصر وعلى العالم العربى،وفى الدنيا الواسعة.

.. بعد أن فــرغ العقيد «عبد الرؤوف رضا» من عرض ما لديه،غادر الاجتمــاع. وعاد الرئيس «الســادات» إلى فكرة إعداد بيــان يلقيه على الشعب المصرى والعربى.

كتب الأستاذ «محمد حسنين هيكل» يقول:

– إن صيحة «الله أكبر» التى انطلقت بها حناجر الجنود على جسور العبور كانت تكفينا صلاة ودعاء يشــارك فيها كل المؤمنين،وهى فى كل الأحوال تغنينا عن كل الأحلام بما فيها «أحلام الصالحين».

.. وعنــد منتصف الليل كانــت الأنباء مازالــت تتعاقب على قصر الطاهرة،وكانت كلها أنباء سعيدة، وكان القصر مازال يعيش على ذرى أمواج نشوانة بالفرح الغامر والسعادة الفائقة.

.. مــن الصعب على أحد – مهما بلغت درجة قربه من الحوادث – أن ينفذ بتحليل دقيق أو قريب من الدقة للمشاعر والأفكار التى تحركت وتدافعت فى عقل وفكر الرئيس «الســادات» فى تلك الليلة الحاسمة من تاريخــه وتاريخ مصر،ومع أن التاريخ أيام متصلة يترتب اللاحق فيها على الســابق دون فجــوة أو فراغ – فإنه من المحقــق أن هناك تجارب خاصــة فى حيــاة الناس يمكن أن يكونــوا بعدها مختلفــين عما كانوا قبلها،والتاريــخ حافل بنماذج كثيرة لهــذه اللحظات الفاصلة والفارقة فى حياة البشر،سواء كانوا على القمة فى بلادهم،أو من السفح والقاع.

.. وفـــى ليلة ٦ – ٧ أكتوبر، كان «أنور الســادات» فى لحظة فاصلة وفارقة من حياته شكلت – على وجه القطع – مفترق طرق.

● قبلهـــا كان واحدا من زعمـــاء العالم العربى مثـــل غيره كثيرين وبعدها أصبح نجما يلمع فى آفق عالٍ وشاهق.

● وقبلهـــا فـــإن رجلا مثل «هنـــرى كيســنجر» – كان يتهرب منه ويصفه بأنه «بهلوان سياســى» – وبعدها لم يعد فى مقدور أحد – بمن فيهم «هنرى كيسنجر» – إلا أن يعترف له بأنه «داهية سياسى».

● وقبلها كان حاكما بشرعية مستعارة من سلفه «جمال عبد الناصر» – وبعدها فإنه أصبح يمتلك شــرعية مستقلة يبدأ بها عصرا جديدا من حكمه.

● وقبلها لم يكن فى تاريخ العرب الحديث انتصار عســكرى واضح – وبعدها فإنه ســجل فى تاريخ العرب نصرا عســكريا على مستوى لم يكن ينتظره أحد.

● وقبلها كان رجلا تكررت وعوده واعتبرت كلها جوفاء وفارغة – وبعدها فإنه استطاع أن يحقق ما وعد به، وزاد عليه.

● وقبلها كان يتصرف وفى إحساسه أن «جمال عبد الناصر» كان رجلا أكبر منه – والآن فقد داخله الإحســاس بأنـــه أصبح أكبر من «جمال عبد الناصر». فهذا الذى تحقق على يديه اليوم لم يحدث ولا لـ «جمال عبد الناصر».

.. وقبلهـــا وقبلهـــا كثير، وبعدهـــا وبعدها كثير أيضـــا، وما قبل مختلف دوما عما بعد!

.. وكان ذلك كله ماثلا فى ذهنه تلك الليلة، وقد عبر عنه بالنشوة، وربما استطاع تحليل بعضه، وأحس بأثر البعض الآخر دون تحليل - لكنه فى نهاية يوم طويل ومرهق، يدخل إلى فراشه ليلا وقد أصبح على قمة العالم - وقد أصبح مغربه ومشرقه مأخوذين بما حدث.

.. كان هو الآخر مأخوذا بما حدث، وكان ما رآه وعاشه طول اليوم بالفعل أشبه ما يكون بانفجار قنبلة ذرية، وقد كان قراره هو الذى فجرها، وهذه حقيقة لا يملك أحد أن يجادل فيها. ولقد كان يمكن رد هذا الانفجار الذرى إلى أسباب عقلانية - لكن ذلك لم يكن شاغله تلك الليلة.

.. وإنما كان شاغله ما يراه أمام عينيه: فلقد تم العبور العظيم - وهو الآخر عبر من مكان إلى مكان، ومن ضفة إلى ضفة، ومن حال إلى حال.

.. ولقد اختلط العبوران معا، فأصبح عبور القوات عبوره.. وعبوره عبور القوات. وفى واقع الطبيعة البشرية فإن ذلك كان محتملا.. وربما كان مفهوما.

.. ثمة جانب مهم فى شخصية السادات أغفله جُل من كتبوا عنه عدا الدكتور «نبيل راغبٍ» الذى ألف كتاب «أنور السادات رائدا للتأصيل الفكرى» فأورد فى متن كتابه ما دبجته يراعة السادات فى مؤلفاته ودون من بين ما دون القصة القصيرة التى كتبها السادات بعنوان «ليلة خسرها الشيطان» إذ قال:

.. «أخذ قرص الشمس يهبط رويدا رويدا،فتناثرت من تحته ظلال رماديــة راحت تغمر سماء القرية «العابدية» معلنة غروبا جديدا وهذه سنة الله... فلا بد أن يسير الكون ما بين شروق وغروب ونور وظلام نحو النهاية التى أرادها له خالقه القادر القوى الرحمن..

.. وموكب الغروب فى القرية مهرجان رائع يتكرر كل يوم، فبينما تزدحم الطرق الزراعية بجمع العائدين من كفاح اليوم الطويل فى الأرض الطيبة رجالا وعددا وماشــية وأنعاما.. نرى القرية وقد اكتست بدخان داكن يتعالى فى هدوء الســماء، فوجبة الطعام الرئيســية لا بد أن تكون فى اســتقبال الرواد العائدين،شــهية بقدر ما عانوا وبقدر ما يسمح به دخل البيت ومهارة سيدته شــريكة الكفاح»... إلى ما جاء بهذه القصة والتى تفصح عن موهبة أدبية فذة كامنة فيه، بان فيها اهتمام السادات الفائق باستخدام الرمز والوصف والتجسيد مما يدل على «الحس النقدى الرفيــع» الذى يتمتع به الســادات الذى كان يدأب علــى قراءة الكتب الثقافية المتنوعة،والقصص التى ألفهــا كبار الروائيين فىالعالم ومنها (حد الموسى) لـ «سمرست موم».

.. وفى ١١ أكتوبر ١٩٥٥م كتب الســادات مقالا على صفحات مجلة «التحرير» بعنوان «السبت العظيم» قال فى مقدمته:

«مصـر إذا ما راجعت أيامها لم تلق للسبت العظيم مثيلا»

هل كان السادات يتنبأ بيوم السبت ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣م يوم ميلاد مصر من جديد.؟!

.. ويوم النصر المبين.. بل بيوم وفاته فى ٦ أكتوبر ١٩٨١م؟!.

.. كمـا كتب قصيدة سياسـية بعنوان «أخى فى الشـرق» كما أن له ثمانية مجلدات فى الفكر السياسى منها مؤلف فى السيرة الذاتية وهو كتاب (البحث عن الذات).

.. قليلون هم الرؤسـاء والزعماء الذيـن أفاء الله عليهم بنعمة الفكر الأدبى ومنهم «بنيامين فرانكلين» و «وينستون تشرشل» و «نهرو» وكان السادات لاشك من بين هؤلاء.

.. كان أديبا.. مفكرا.. حصيفا.. وفيا.. كما كان قائدا للعبور عظيما.

.. أثبتـت تدويناته المتعلقة بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر أنها كانت كثيرا ما تفيض بالمشاعر الطيبة تجاهه.

.. يقول السـادات فى لقائه بوفد المؤتمر الإسـلامى فى القاهرة فى ١٤ سـبتمبر ١٩٧٢م: «لماذا الحقد والفرقة والتشـتت؟ لن نسـتطيع أن نبنـى بالحقـد أبدا.. دعونا نضـرب كل هذا ونعود لجوهـر عقيدتنا: الحب والصفاء والأخوة والقوة التى تتولد بالإيمان وبالثبات وباليقين.. دعونـا نعـود إلى جوهر رسـالتنا: الإيمان ما وقر فـى القلب، الإيمان أخوة، محبة، يقين، غيرة على قيمنا وعلى حياتنا وأرضنا أيضا».

.. كان السـادات وفيا لوطنه الذى سـجن وطرد من وظيفته بسـبب حبـه له ولزملائه الذيـن طالما ذكروا وفاءه النـادر إليهم حتى إن أحد كبـار رجال القوات المسـلحة قال: «لولا وفاء السـادات لى فى محنتى لانتهت حياتى».

.. وقالت شـقيقته الصغرى السـيدة «نفيسة السـادات» فى برنامج تليفزيونى:

«إنه كان دائم الوفاء لأمه وشـقيقاته ولإخوته لا ينقطع عن زيارتنا أو السؤال عنا أو البحث عما يصادفنا من متاعب الحياة يعمل دوما على إزاحتها من طريقنا.

.. كما تبارى أهالى ميت الكوم «أهل بلدته» بالإشادة بوفائه لهم والعمل الدؤوب على سرعة الاستجابة إلى مطالبهم. ومما ذكره فى هذا الصدد أنه كان يدأب إلى الذهاب إلى المساجد لتأدية فريضة الصلاة ولا يغادر مسجدا منها إلا وكان هو آخر من يخرج من بيت الله بعد أن يصافح المصلين فردا فردا.

.. كان جـم الأدب.. جـم التواضع.. يراعى الله فـى كل خلجة من خلجاته أو سكنة من سكناته.

وإذا كان المأثـور عن الفيلسـوف الألمانى «كانت **Kant**» أنه عرف التنوير بأنه: هجرة الإنسان من اللارشد إلى الرشد.

إذا كان ذلك كذلك. وهو كذلك. فهكذا كان أنور السـادات فقاد سفينة بلاده بعقل نيِّر وقلب سليم وثاب من اللارشد إلى الرشد فى بحر لُجى بين الصخور الصلبة الصلدة تحوطها الأخطار من جوانبها تتهددها بالسـقوط فى أعماق اليم ودثر إسـرائيل بدثـار الأحزان التى ما فتئت تحوطها من جميع الأركان، وحقق لشعبه مجدا ونصرا مؤزرا تحدث به الزمان.

المستشار

محمد مرشدى بركات

الأسكندرية فى ١٨ / ٩ / ٢٠١٣

محمد أنور السادات

كان له فى مضامير الكفاح.. جهاد ! .
.. انتصف الليل أو كاد، وأوشكت زبالة المصباح أن تنطفئ، وهو لما يزل مكبا على محاولة استيعاب دروسه محاولا بدأبٍ أن يطرد طائر الكرى الذى كان يحلق بجناحه عليه ملتفا حوله يمعن نظره فيما تلقاه فى مدرسته ـ من دروس ـ محاولا أن يستوعب ما جاء فيها ويمعن فكره فيما حواها، وحل ما قد استغلق عليه من فحواها.

.. ولد محمد أنور السادات فى قرية صغيرة تدعى "ميت أبو الكوم" مثلها مثل قريتى التى ولدت فيها منية المرشد،يسبر أهلها أصول الأخلاق وتعاليم الآداب والحفاظ على التقاليد الموروثة يعض كل منهم عليها بنواجذه، فتنتقل من فرد إلى فرد، ومن جماعة إلى جماعة، فهى مقدسة لديهم عزيزة عليهم لا يفرطون فيها قيد أنملة.

.. فقد كانت القرية فى ذلك العهد ـ وربما لا تزال ـ بمثابة المعلم الأول للإنسان الذى ولد على أرضها أو ترعرع بين جنباتها أو شب بين ظهرانيها.

.. شب عن الطوق فأبصر الجنود الإنجليز، وهم يجوسون خلال ثرى القرية يمتشقون سلاحهم ويسيرون على أرضها فى استعلاء وكبرياء !.

.. سأل جدته: من هؤلاء الغرباء ؟.

.. أجابته: ياولدى، هم الإنجليز الذين وطئوا بلادنا واستولوا على خيراتنا، واقتحموا ديارنا عنوة واقتدارا.. وكان من قبلهم فيالق كثيرة من المحتلين من مماليك وعثمانيين وفرنسيين استباحوا حرمة البلاد وتحكموا فى العباد حتى ناءوا على مصر بكلكلها.

.. وكان السادات يرهف أذنيه إلى أحاديث وحواديت جدته حول زهران بطل دنشواى الذى تجسدت فيه روح المقاومة التى تمثل الشعب المصرى ضد كل ضغوط القهر والطغيان. فنال "زهران" اهتمامه واعجابه.

.. يقول السادات فى كتابه (البحث عن الذات):

.. كان والدى أول من حصل على الشهادة الابتدائية فى قريتنا، وعلى الرغم أن بقريتنا الآن مهندسين وأطباء وأساتذة جامعات فإنه عندما يأتى ذكر " الأفندى"، وأولاد الأفندى يعرف كل إنسان أنه والدى وأبناؤه، ويبدو أن جدتى أرادت لى أن أسير فى نفس الطريق الذى سار فيه والدى فأدخلتنى كتاب القرية حيث تعلمت الكتابة والقراءة وحفظت القرآن، ثم نقلتنى إلى مدرسة الأقباط بطوخ حيث يوجد دير قديم مشهور، مطرانه هو نفس مطران دير وادى النطرون.

.. وقد عبر السادات بنفسه عن هذا لصحيفة الأهرام فى ١٩٧٥/١٢/٢٦م.

.. نشأ أنور السادات ونال القسط الأول من التعليم فى قريته، صابرًا مثابرًا على تفهم دروسه بعقل واعٍ.. وفهم لما يكتبه اليراع.

.. وعن طفولته فى القرية والتى كان السادات يعشق كل شىء فيها يقول:

القصص التى كانت تحكيها لى أمى أحيانا وجدتى أحيانا أخرى كل ليلة،كنت فى كل مرة أستمتع بها وكأنها جديدة وكأننى لم أسمعها من قبل مع أنها هى هى نفس القصص لم تتغير، وكانت إحدى هذه القصص تروى كيف دس الإنجليز السم لمصطفى كامل حتى لا يكمل كفاحه ضدهم،لم أكن أعرف فى ذلك الوقت من هو مصطفى كامل، وأنه مات فعلا فى ريعان شبابه، ولكنى عرفت لأول مرة أن ثمة قومًا اسمهم الإنجليز، وأنهم ليسوا منا،وأنهم أشرار لأنهم يضعون السم للناس بإيعاز من الوسواس الخناس، وكانت جدتى تحكى لنا أيضا موال "أدهم الشرقاوى" وبطولاته وكفاحه ودهائه فى محاربة الإنجليز والسلطة التى تمالئهم فى جبروتهم.

.. ثم يتذكر انتقاله إلى القاهرة، حيث بدأت مرحلة جديدة فى حياته فيقول: جئت إلى القاهرة فى سنة ١٩٢٥م فى أعقاب مقتل السردار الإنجليزى سيرلى ستاك فى سنة ١٩٢٤م، فقد كان من أهم العقوبات التى وقعتها إنجلترا على مصر أن يعود الجيش المصرى من السودان، فعاد وعاد معه والدى، كنا نسكن فى بيت صغير بكوبرى القبة وكان علىِّ أن أكمل تعليمى العام الذى بدأته بمدرسة طوخ، فاختار لى والدى مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية، لأنها كانت مدرسة أهلية ومصاريفها تناسب دخله، وبالفعل أخذت أوراقى وذهبت إلى المدرسة

لألتحق بها،عندئذ فقط ومن واقع الأوراق التى تقدمت بها عرفت أنى ولدت فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٨م.

ولد الرئيس السادات فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٨م بقرية ميت أبو الكوم بمحافظة المنوفية.

تلقى تعليمه الأول فى كتاب القرية على يد الشيخ عبد الحميد عيسى، ثم انتقل إلى مدرسة الأقباط الابتدائية بطوخ دلكا وحصل منها على الشهادة الابتدائية.

.. وفى عام ١٩٣٥م التحق بالمدرسة الحربية لاستكمال دراساته العليا.

.. وفى عام ١٩٣٨م تخرج فى الكلية الحربية ضابطا برتبة ملازم ثان. وتم تعيينه فى مدينة منقباد جنوب مصر.

.. كانت دور الخيالة العشق الأول للرئيس السادات أكثر من السياسة فى هذه السن الباكرة من حياته، لدرجة أنه حاول أكثر من مرة التقدم للعمل كممثل،ولكنه فشل،ويقول عن علاقته بالسينما: أول مرة دخلت فيها السينما فى حياتى، كان ذلك يومًا عصيبًا، فقد شاهدت قطار سكة حديد قادما من أقصى الشاشة ومندفعا بسرعة مذهلة نحوى، ماذا أفعل؟ أغمضت عينى ورجعت بجسدى إلى الوراء، ولكن صوت القطار مازال يدوى فى أذنى، ففيم الانتظار ؟ قمت لتوى من مقعدى،وبسرعة رحت أخترق الصفوف مهرولا فى طلب النجاة، ولفت نظرى أن الناس كلها قابعة فى مقاعدها وكأن شيئا لم يحدث، هذا

شأنهم قلت فى نفسى، ولكن بمجرد أن بلغت نهاية الصف ـ وعيناى قد تسمرتا على الشاشة ـ لم أجد القطار،ووجدت بدلًا منه رجلًا وامرأة يتناولان الطعام فى مقهى صغير فاخترقت الصف مرة أخرى وعدت إلى مقعدى،أراقب أحداث الفيلم فى هدوء كما يفعل الآخرون.

.. أثرت حكايات جدته فى تكوينه النفسى والسياسى أكثر من أمه التى لا يذكر عنها إلا القليل، فيقول: ربطتنى حكايات جدتى بزهران بطل دنشواى وأصبح وجدانى مرتبطا بمصطفى كامل وأدهم الشرقاوى، فكلهم من وجهة نظرى رجل واحد، أو هكذا بدوا لى فى تحديهم للإنجليزى البرابرة المعتدين الذين شنقوا وجلدوا أهلنا فى قرية دنشواى المتاخمة لقريتنا، ولكن عندما جئت إلى القاهرة رأيت فى بيتنا صورة كمال أتاتورك، وسألت عنه أبى فقال إنه رجل عظيم، وكان أتاتورك فى ذلك الوقت مثلا أعلى يتردد اسمه على كل لسان، وكان والدى شديد الإعجاب به،كما كان معجبا بنابليون الذى حدثنى عنه طويلا، وكان مصطفى كمال أتاتورك، "الذئب الأغبر" كما أطلق عليه "أرمسترونج" آنذاك قد بلغ شأوا عظيما فى شد قبضته على الدولة التركية بعد أن حررها من الدخلاء،مما أثار إعجاب الأدباء مثل أستاذنا العقاد الذى اعتبر أتاتورك أعظم من نابليون، وقال فيه شوقى قصيدة عصماء بدأها بقوله :

الله أكبر كم فى الفتح مـن عجـب   يا خالد الترك جدد خالد العرب

.. وقد تأثر السادات بعدة شخصيات منها الزعيم الهندى المهاتما غاندى، وعنه يذكر هذه الحادثة: أذكر أنه فى سنة ١٩٣٢م مر غاندى بمصر فى طريقه إلى إنجلترا، وامتلأت الصحف والمجلات المصرية بأخباره وتاريخه وكفاحه فأخذت به واستولت صورته على وجدانى فما كان منى إلا أن قلدته، فخلعت ملابسى وغطيت نصفى الأسفل بإزار وصنعت منه مغزلاً، واعتكفت فوق سطح بيتنا بالقاهرة عدة أيام إلى أن تمكن والدى من إقناعى بالعدول عما أنا فيه، فلن يفيدنى ما أفعله أو يفيد مصر فى شىء بل على العكس كان من المؤكد أن يصيبنى بمرض صدرى، إذ كان الجو ـ آنذاك، قارص البرودة، وعندما زحف هتلر من ميونخ إلى برلين ليخلص بلاده من آثار هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ويعيد بناءها، كنت فى ذلك الوقت أقضى الصيف فى القرية، فجمعت أقرانى وقلت لهم إننا يجب أن نفعل كما فعل هتلر، وإننى أنوى الزحف على القاهرة من ميت أبو الكوم، وكان عمرى فى ذلك الوقت ١٢ سنة فضحكوا منى وانصرفوا عنى، ويفسر هذه السلوكيات بأنها كانت فى أغلبها "إرهاصات تلقائية بخط كفاح لم أكن بعد قد تبينته، ولكن من بين هذه الإرهاصات التى كانت فى الحقيقة مجموعة انفعالاته وتفاعلات مع الأحداث".

.. ويرى السادات أن أحداث حياته تسير جنبًا إلى جنب مع أحداث التاريخ، فيكمل : انتهيت من إتمام دراستى الثانوية سنة ١٩٣٦م وفى السنة نفسها كان النحاس باشا قد أبرم مع بريطانيا معاهدة ١٩٣٦م،

وبمقتضى هذه المعاهدة سمح للجيش المصرى بأن يتسع، وهكذا أصبح فى الإمكان أن ألتحق بالكلية الحربية، قبل ذلك كان الجيش المصرى ضيق الرقعة ضئيل الفاعلية، وكان دخول الكلية الحربية قاصرًا على أبناء الطبقة العليا.

.. وكانت رغبتى جامحة فى دخول الكلية الحربية ولم يكن التحاقى بها سهلًا أو ميسورًا، مع أنهم سمحوا لأبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة بدخول الكلية، بيد أنه كان يجب أن يتوافر شرطان لالتحاقى بهذه الكلية: الأول دخل الأب وثروته، ثم الواسطة، وفى كشف الهيئة كان ينادى رسميًا علينا "فلان ابن فلان وواسطة فلان".

.. وبالنسبة للشرط الأول كان والدى موظفًا بالحكومة، فهو على الأقل عنده دخل ثابت، أما الواسطة فمن أين لى بها ووالدى مجرد باشكاتب بالقسم الطبى لا يعرف أحدًا من البهوات أو البشوات؟

.. صعوبات جمة تقف أمامى كعقبة كؤود ، ولكن لعل أبرزها أن الإنجليز الذين كان هدفى تخليص البلاد منهم، هم الذين ساعدونى على الالتحاق بالكلية، ولم يجد والدى أحدًا يلجأ إليه إلا حكيمباشى الجيش المصرى الذى كان والدى يعمل معه، وهو إنجليزى اسمه الدكتور فيتس باتريك، واستجاب الرجل وكتب التزكية وأوصى بى كبير المعلمين بالكلية، وهو عضو لجنة القبول وكان إنجليزيًا مثله، وهكذا قُبلت بالكلية الحربية وكان ترتيبى آخر المقبولين، وعددهم اثنان وخمسون، وذلك لأن واسطتى كانت أقل الوسطات شأنا، فقد كانت

الوسطات تتدرج من الأمير محمد على ولى العهد إلى البشوات والبكوات من ذوى النفوذ، ولكن بعد أن قبلت وذهبت لأدفع المصاريف حدثت مفاجأة لم تكن فى الحسبان، فقد كان حمدى باشا سيف النصر وزير الحربية مع النحاس باشا فى مونتريه لعقد معاهدة إلغاء الامتيازات الأجنبية التى كانت تعفى الأجانب من الخضوع للقانون المصرى، أرسل برقية لحجز ستة أماكن لبعض أقربائه، فاضطرت إدارة الكلية إلى حذف أسماء الست الأواخر وكنت أنا طبعًا أول المستبعدين، فالتحقت بكلية الحقوق ثم كلية التجارة، ثم عاد سيف النصر وألحق أقاربه بالكلية، وبعدها تدخل حكيمباشى الجيش، وكبير المعلمين الإنجليز، وأخيرا وبعد أن فقدت الأمل تماما، فوجئت ذات صباح بوالدى يطلب منى أن أتوجه فورا إلى مقر عمله، لأخذ منه مصاريف الكلية الحربية حيث إننى قبلت بها. وكان قد مضى على دخول أقرانى فى الدفعة ستة وعشرون يوما كاملة.

.. ثم ينتقل إلى رصد دوره فى إنشاء تنظيم الضباط الأحرار داخل الجيش، فيقول :

قام أول تنظيم سرى من الضباط وكان ذلك فى سنة ١٩٣٩م، كان ضمن أعضائه عبد المنعم عبد الرءوف؛ وكان يعتبر الرجل الثانى بعدى، وعبد اللطيف بغدادى، وحسن إبراهيم، وخالد محيى الدين وأحمد سعودى حسين؛ الله يرحمه، وحسن عزت، والمشير أحمد إسماعيل الذى كان يحضر اجتماعاتنا دون مشاركة سياسية، فقد

كان، يرحمه الله، رجلاً عسكريا كرس حياته لعلمه وتخصصه، لم ألجأ إلى الخلايا السرية للدفع بهذه الثورة المسلحة لبلوغ أهدافها كما فعل عبد الناصر بعد عودته من السودان فى ديسمبر ١٩٤٢م، وتسلمه التنظيم فى أوائل سنة ١٩٤٣م بعد اعتقالى فى صيف ١٩٤٢م، ففى تلك السنة كان خط هتلر قد بدأ فى الانكسار بعد أن كانت جحافل الألمان بقيادة قائدهم العبقرى "رومل" تدق أبواب الإسكندرية بعد أن وصل بجيوشه إلى العلمين، ومن ثم استعاد الإنجليز قوتهم فى مصر، فكان على عبد الناصر أن يخطط للمستقبل.

.. وحول علاقته بالإخوان المسلمين التى امتدت بعد ذلك بعدما أصبح رئيسا لمصر يقول: تصادف وجود بعض الإخوان المسلمين بين جنودى ففوجئت (يوم مولد النبى) سنة ١٩٤٠م بأحدهم يهمس فى أذنى بأن بالباب رجلًا ممتازًا فى الدين يريد أن يقول كلمتين للجنود بمناسبة المولد، وكنت ضابط النوبة فى تلك الليلة سألت من يكون، ولما عرفت أنه الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين رحبت به من خلال فهمه للدين وعمق شرحه له،إذ كان الرجل مؤهلًا للزعامة الدينية، وهذا إلى جانب أنه كان مصريا صميما بكل ما تحمله هذه الكلمة من دماثة خلق وسماحة وبساطة فى معاملة الناس.

.. ويواصل السادات رؤيته لأحوال مصر فى ذلك الوقت فيقول:

كان الشعور العام ضد الإنجليز يزداد سخطا يوما بعد يوم إلى أن أتى الصيف وحطم "روميل" الجيش الثامن البريطانى، ووصل إلى العلمين

وهى تبتعد ٧٠ كم عن الإسكندرية، وهنا كشف المصريون عن شماتتهم فى الإنجليز فخرجت المظاهرات تنادى "إلى الأمام يا روميل"، فقد كانت الجماهير ترى أن هزيمة الإنجليز الطريق الوحيد لخلاص البلاد منهم.

.. كانت مصر وبعد أن أصابتها المحن وألمت بها الإحن وهبطت عليها كارثة غير مسبوقة فى تاريخ الحروب بعد أن التهمتها إسرائيل خلال ٦ ساعات فقط من بدء حرب ١٩٦٧م، وبعد أن صدرت الأوامر من القيادة العليا للضباط والجنود بالانسحاب وتعرضوا لذلة ومهانة غير مسبوقتين فى تاريخ مصر.

.. هذا ناهيك عن هؤلاء الشهداء الأبرار الذين ضحوا بحياتهم فى سبيل وطنهم، وأخذوا على حين غرة أخذا وبيلا.

.. فضلا عن هؤلاء المغاوير الذين دفنوا وهم أحياء واغتيلوا وهم على قيد الحياة وذبحوا وهم يرون بأعينهم طريقة ذبحهم .

.. نقلت مجلة "الشرق الاوسط" عن باحث "إسرائيلى" قوله إن هناك مذابح بشعة جرت خلال حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧م وأوضح "إرييه يتسحاقى" الأستاذ فى جامعة بار إيلان فى تل أبيب أن القوات "الإسرائيلية" أجهزت على ما يقرب من ٩٠٠ جندى مصرى بعد استسلامهم خلال هذه الحرب. وأكد فى حديث للإذاعة أن "أكبر مذبحة جرت فى منطقة العريش بشبه جزيرة سيناء حيث أجهزت وحدة خاصة على حوالى ٣٠٠ جندى مصرى وفلسطينى من قوات جيش

تحرير فلسطين". وكان (يتسحاقى) قد أدلى بهذه الأقوال بعد أيام من طلب مصر من "إسرائيل" التحقق من تقارير ذكرت أن قواتها قتلت عشرات الأسرى فى حرب عام ١٩٥٦م. وقال "يتسحاقى" لراديو "إسرائيل" "مثل هذه الأشياء تحدث فى كل حرب". وقال يتسحاقى إنه أجرى بحثًا بعد الحرب فى موضوع قتل الأسرى لكن قادته الأعلى لم يعيروا نتائج البحث أى اهتمام فيما وصفه بأنه "مؤامرة صمت". وقال "يتسحاقى " إنه قرر الكشف عن هذه المعلومات لأن الاهتمام تركز على قتل ٤٩ أسيرًا مصريًا فى حرب عام ١٩٥٦م. وقال: "الأمر الذى يغضبنى هو أن الجميع صنعوا قضية من هذه الحالة بينما هم يعلمون أن هناك حالات عديدة مماثلة لها". وذكر من بين ما ذكر أن "إسرائيل" لم توقع الاتفاقات الدولية ضد جرائم الحرب القابلة للتقادم؟

.. وفى ٢٠ / ٩ / ٩٥ نقلت صحيفة "الأهرام" مشاهدات لبعثة استكشافية أرسلتها إلى صحراء سيناء أكدت العثور على مقبرتين جماعيتين يروى شهود عيان أنهما تضمان رفات أسرى حرب مصريين عزل قتلوا برصاص جنود "إسرائيليين" فى حرب عام ١٩٦٧م. وجاء فى تقرير البعثة أن أفرادها عثروا على بقايا عظام بشرية فى مقبرتين حفرتا فى قاعدة جوية وواد صحراوى قرب مدينة العريش الساحلية على مسافة نحو ٣٠٠ كيلومتر شمال شرق القاهرة. وأفاد عبد السلام موسى وهو رقيب أول سابق فى إحدى قواعد الدفاع الجوى على مسافة خمسة كيلومترات من العريش والذى قام بدور الدليل للبعثة؛ أنه كان

بين مجموعة من الأسرى المصريين شاهدوا "الإسرائيليين" وهم يقتلون أسرى مصريين آخرين بالرصاص فى ٧/حزيران ١٩٦٧م. وقال: "رأيت طابورًا من الأسرى بينهم مدنيون وعسكريون. أطلقوا عليهم الرصاص دفعة واحدة. وبعد موتهم أمرونا بدفنهم فى رمال الصحراء". وفى وادى الميدان على بعد ٢٧ كيلومترًا من العريش كشف البدو للبعثة موقعًا أكدوا أن "الإسرائيليين" قتلوا فيه ٣٠ أسير حرب مصريًا عزل من السلاح. وقال أحد البدو ويدعى الشيخ سليمان مغنم سلامة: "جاءت حافلات محملة بجنود ووقفت إحداها ونزل منها نحو ٣٠ جنديًّا مصريًا وفتح اليهود عليهم الرشاشات على أمتار من طريق الأسفلت فى وادى الميدان". وأضاف إنه بعد رحيل "الإسرائيليين" تولى البدو دفن الأسرى المصريين". وأوضحت الصحيفة أن عمليات الحفر فى الموقع أسفرت عن اكتشاف بقايا عظام بشرية وجماجم تحلل معظمها بفعل العوامل الطبيعية. وروى سكان محليون للبعثة واقعتين قتل فيهما جنود "إسرائيليون" جنودا مصريين بعد استسلامهم.

.. على نفس الصعيد أجرت صحيفة الجمهورية القاهرية فى ١٩٩٥/١٠/١٢م تحقيقا من سيناء حول جرائم قتل "إسرائيل" للأسرى المصريين سواء كانوا عسكريين أم مدنيين فى حربى ١٩٥٦م و ١٩٦٧م تضمن شهادات شهود عيان وجاء فى التحقيق: وقد تجاوزت هذه الجرائم وفقا لشهادة شهود العيان ما فعله النازيون مع اليهود ويتحدى الشهود الموجودون أى محاولات للإنكار من جانب "إسرائيل" إذ إن

الوقائع نشرت بالأسماء والأماكن والتواريخ. ونقلت عمن يدعى " الحاج حسن حسين المالح " (٦٥ سنة).. بحكم مسكنه المجاور لمنطقة النخيل بالقرب من منصب الوادى حيث شاطئ البحر بمنطقة أبو صقل قوله إن الجنود "الإسرائيليين" كانوا يجمعون الأسرى المصريين بهذه المنطقة بعربات النقل ويوهمونهم بأنهم سينقلونهم فى حافلات للتوجه إلى منطقة القناة.. ويأمرونهم بالوقوف صفوفا ووجوههم متجهة إلى البحر ثم يطلقون عليهم الرصاص ويتركونهم قتلى ويغادرون المكان.. وتتوالى نفس العملية فى عدة أفواج من الأسرى الذين بلغ عددهم التقريبى ٣٠٠٠ أسير.. وأكد أن ذلك قد حدث فى منتصف شهر أغسطس ١٩٦٧م. وأضاف إن هذه الجثث ظلت على سطح الأرض أكثر من عشرة أيام تغذت عليها الطيور الجارحة والتهمتها الضباع والذئاب وقد تمكن بعدها أهالى المنطقة من دفن بقاياها فى هذه المنطقة. وقد عمدت "إسرائيل" إلى إخفاء تلك الوقائع والجرائم وضللت الصحافة العالمية.. ويقول قائل : إنه كان يوجد شيخ كبير من العريش يبلغ من العمر زهاء الثمانين عاما وحينما كان فى طريقه إلى المسجد ليؤدى الصلاة أطلقوا عليه الرصاص أمام باب المسجد دون أن يقترف أى ذنب وكان يسير خلف هذا الشيخ بائع متجول يبيع الحلوى للأطفال لم يتركوه أيضا وأطلقوا عليه الرصاص. وقال إنهم كانوا يطرقون أبواب المنازل ويطلقون الأعيرة النارية على المواطنين المدنيين وأسرهم ولا يتركونهم إلا بعد تأكدهم أنهم فارقوا الحياة.

.. وشاهد أمام منطقة الوادى أن جنود الاحتلال كانوا يأمرون الأسرى بحفر قبورهم بأيديهم والانبطاح على الأرض ثم تسير الدبابات فوقهم حتى تسوى جثثهم بالأرض. وأكد أنه كان يوجد ضابط مصرى اسمه "أحمد" جاء إلى مسجد السلام " بأبى صقل " ورفع إشارة بيضاء للاستسلام ليكون فى عداد الأسرى، وبرغم ذلك أطلقوا عليه ست طلقات رصاص فأردوه قتيلا.. وأبصر ذلك شيخ المسجد "الشيخ عبد القادر عثمان" إذ وقعت هذه الجريمة أمام المسجد الذى يعمل فيه إماما.. ويشهد معظم أبناء أبى صقل على هذه الواقعة.. كما كان يوجد شيخ اسمه "سليم إبراهيم" إمام مسجد الحدود أطلقوا عليه النار أيضا. كذلك شاهد الحاج حسين المالح كلا من عبيد الأزعر وإبراهيم القصلى اللذين كانا يحملان الطعام على الجمل للجنود المصريين المختفين عن أعين جنود الاحتلال.. فما كان من الجنود "الإسرائيليين" إلا أن قتلوهما بالرصاص. ويضيف إن جنود الاحتلال تربصوا لبعض الجنود المصريين فى أثناء عودتهم من ساحل البحر الأحمر على بعد مائة كيلومتر من العريش وقاموا بعمل كمين لهم وتمكنوا من جمعهم ثم قتلوهم جميعا وهم يجلسون على الأرض القرفصاء رافعين أيديهم إلى أعلى. وقال إن الذى قام بهذا العمل الإجرامى مجندة "إسرائيلية" طويلة القامة وإنه برغم مرور هذه المدة الطويلة فإنه لا يزال يتذكر ملامحها جيدا ومستعدا استعدادا كاملا للتعرف إليها فى أى وقت. يعلن "الحاج المالح " السابق ذكره إصراره وتحديه لأى مسؤول "إسرائيلى" يشكك فيما يقول وقد شاهد

"الإسرائيليين" فى مطار العريش حينما جمعوا المدنيين من المنازل إلى المطار وأطلقوا عليهم النيران داخل المخابئ والخنادق الموجودة تحت الأرض. كما شاهد عقب سنوات من الاحتلال عربات الصليب الأحمر التى جمعت ما يمكن جمعه من أشلاء وجثث الأسرى. ويقول كاتب التحقيق الصحفى إن الحاج حسن حسين المالح قد قادنى إلى مواقع الدفن حيث تم الحفر واستخراج بعض الجثث والجماجم والعظام لأسرى مقتولين بأيدى الجنود "الإسرائيليين". وأضاف الشيخ المالح قائلا: "إنه رأى أعدادا كبيرة من الأسرى المدنيين والعسكريين وهم منبطحون أمام المنازل وعلى المرتفعات وكانوا يطلبون منهم رفع الأيدى والاتجاه إلى الشمس بحجة تصويرهم ثم يطلقون عليهم النيران من الخلف. وأشار إلى وجود أكثر من مقبرة جماعية فى هذه المنطقة وسط أشجار النخيل وإحدى هذه المقابر فى أحد المنازل الجديدة والمهجورة. ويؤكد أن كل منطقة بها بقع من الزيت هى مقبرة جماعية بها أكثر من قتيل بسبب تحلل الجثث وإختلاط الدهون الآدمية بالرمال. وأضاف إنه فى عام ١٩٧٣م كنا نقدم العون والغذاء والعلاج "للإسرائيليين" العائدين بعد فشلهم فى حرب أكتوبر وعاملناهم معاملة إنسانية. وفى رفح.. قال الحاج محمد جمعة الجرابعة إنه يوجد عدد من المدافن الجماعية للأسرى بمنطقة معسكر البرازيل التى تقع على الحدود الدولية لمصر. وفى جرادة بمنطقة أبو عجيرم "بعد السكاسكة" كانت قوات الاحتلال تطلق النيران على الجنود العزل من السلاح برغم فانلاتهم البيضاء لاعتبارهم أسرى.

ويؤكد الشيخ سلامة عرادة أن منطقة الخروبة قد امتلأت بالأسرى الذين قتلوا أمام أعينهم. ويؤكد الحاج إسماعيل خطابى صاحب أراضى منطقة الصخرة التى توجد على تل الشيخ زويد أن هناك أعدادا كبيرة من جثث الأسرى تقترب من ألفى أسير.. وأنه شاهد طائرة "إسرائيلية" هليوكبتر وهى تهبط حيث جمعت الأسرى وقتلتهم بالنيران ثم أقلعت على الفور. ويقول الحاج صالح أبو هولى بمدينة الشيخ زويد.. إن "الإسرائيليين" هجموا على معسكر الجنود المصريين بالمنطقة المجاورة لأرضه وأمروهم بالانبطاح على الأرض وقامت الدبابات بالمرور فوقهم !!. ويؤكد "مصطفى حسن محيصن أبو منيع" أنه لا يخلو متر واحد فى سيناء من دم أسير مصرى. ويقول "محمد سعيد على صالح" ٤٨ سنة إنه رآهم وهم يجمعون الجنود المصريين العزل من داخل العريش عند مصنع البلح بالوادى وسط أشجار الزيتون حيث قتلوهم وكان عددهم التقريبى من ٧٠٠ إلى ٨٠٠. وفى "الشيخ زويد" جمعوا جنود قسم الشرطة "سلاح الحدود" العزل وعددهم يربو على المائة وتوجهوا بهم إلى خلف فندق السلام وأطلقوا عليهم النار. وفى إطار الجرائم العسكرية يكشف " د.إسرائيل شاحاك" النقاب عن أن آلاف الجنود المصريين الذين وجدوا أنفسهم خلف خطوط الحركة العسكرية "الإسرائيلية" فى حرب ١٩٦٧م تقدموا بكل حسن نية إلى الجنود "الإسرائيليين" متوقعين أن يعاملوا كأسرى فكان هؤلاء يكتفون بأن يشيروا لهم إلى الطريق المؤدية نحو قناة السويس أو مدينة العريش! كأنهم يقومون بعمل إنسانى!

بينما هم فى الواقع يتركونهم نهبا للحر والعطش والجوع. والجنود المصريون الذين أسروا تمت إبادتهم بالقتل المباشر على يد اليهود غير المتدينين. وبالقتل غير المباشر على يد اليهود المتدينين الذين تحايلوا على نصوص الشريعة اليهودية بعدم جواز قتل غير اليهودى إن لم يكن محاربا. فى حرب ١٩٦٧م كان القادة العسكريون الصهاينة يستقلون طائرات الهليكوبتر لاصطياد الجنود المصريين فى الصحراء وهم بدون سلاح أو مؤن. ويقول صحفى "إسرائيلى" إن عسكريا "إسرائيليا" أخبره أنه أطلق سراح أسيرين مصريين ثم أخرج مسدسه وقتلهما من الخلف. ويقول الصحفى بأن ضغوطا مورست عليه كى لا يكتب هذه الواقعة وغيرها. وهو كتبها ليس بهدف الإثارة ليتم تشكيل لجنة تحقيق! إنما لكى يكف الزعماء والقادة "عن ادعاء الورع والحديث عن طهارة السلاح". المدنيون والأسرى الذين قتلوا عمدا فى حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧م يتوزعون على مناطق: عريف الجمال على طريق العريش ٥٠ أسيرا، قرية الميدان التى تبعد ٢٣ كيلو مترا غرب العريش ٧٠ أسيرا، وزقبة ومشرة وبئر الجشديرات ١٠٠،وسما ٤٠٠، والمشبه ٣٠، الختمية ١٠٠٠ عسكرى ومدنى، شرقى قناة السويس ٤٠٠، ممر اجدى ٩٠٠،المراشدة و"همسة" فى جنوب العريش ١٢٠،ومطار تمادة ومنطقة الرنا ٤٠. وعندما قررت الحكومة المصرية رفع شكوى قضائية بحق العسكريين "الإسرائيليين" الذين ارتبكوا هذه المجازر فى صحراء سيناء إبان حربى ١٩٥٦م و١٩٦٧م مستندة إلى اعترافاتهم وإلى وقائع

وشهود آخرين كان رد اسحق رابين: "إن تهمة القتل سقطت بالتقادم حسب القانون "الإسرائيلى"!".

.. ويردف السادات قائلا :

.. لم يكن هناك أى شك فى أن روميل سوف يواصل سيره فى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة، المسألة فقط مسألة وقت، ووقت قصير جدا وكان مقررا أن تكون من نصيب إيطاليا، وأن موسولينى قد جلب بالفعل حصانا أبيض ليدخل القاهرة على ظهره كما كانت العادة أيام الإمبراطورية الرومانية، اجتمعت مع إخوانى فى تنظيم الضباط الأحرار وقلت لابد من عمل شىء فكيف نترك " رومل" يغزو مصر بدون أية مقاومة ؟ اتفقنا على أن نرسل أحدنا إلى "رومل "فى العلمين ليقول : إننا مصريون شرفاء وإن لنا تنظيمنا داخل الجيش، ونحن مثلكم ضد الإنجليز وعلى استعداد لكى نجند من بيتنا فرقا كاملة تحارب إلى جانبكم، وأن نزودكم بصور جميع خطوط ومواقع القوات البريطانية بمصر، وفوق هذا كله فنحن نتكفل بأن لا يخرج عسكرى إنجليزى واحد من القاهرة، كل هذا مقابل أن تنال مصر استقلالها التام فلا تكون من نصيب إيطاليا أو تحكمها ألمانيا، وأن لا يتدخل أحد فى شئونها الداخلية أو الخارجية بأى حال من الأحوال، كانت هذه شروط المعاهدة التى أمليتها، وحملها المرحوم الطيار أحمد سعودى على طائرة هرب بها من القاهرة إلى العلمين، وأنا عندى ٢٢ سنة بعد أن عرضتها على إخوانى وحازت قبولهم، ولم يكن عبد الناصر معنا، فقد كان فى السودان كما سبق أن أوردت.

.. وتعزيزا لحركة المقاومة وضمانا لتنفيذ بنود مشروع المعاهدة اهتديت إلى سوق الزجاج حيث اشتريت عشرة آلاف زجاجة أعددناها على هيئة "كوكتيل مولوتوف"، ثم قام بغدادى وحسن إبراهيم مع سعودى وحسن عزت بتصوير المواقع البريطانية بالطائرة ووضعنا الأفلام ومشروع المعاهدة فى حقيبة وعهدنا إلى سعودى بتوصيلها إلى روميل فى العملين، كان"حسن إبراهيم" يقود طائرة فأعطاها لسعودى الذى طلع بها كأنه فى دورية عادية ثم اتجه بها إلى العلمين، كانت طائرة من طراز بريطانى طبعا تسمى " جلادياتور "، ولذلك فرغم إشارة الصداقة أطلق الألمان نيرانهم عليها فوق العلمين فانفجرت "بسعودى" وما فيها، وعندما اكتشف فقدان الطائرة قدم حسن إبراهيم للمحاكمة وتأخرت أقدميته، ولكنهم لم يتمكنوا من الكشف عما وراء الحادث من تنظيم. فى ذلك الوقت كنت أعمل بسلاح الإشارة فى الجبل الأصفر بالقرب من القاهرة، وكنت أنتظر إشارة من سعودى أو من الألمان ولكن طال الانتظار فبدأت أقلق، فى هذه الأثناء حدثت مفاجأة لم أكن أتوقعها فقد أتى إلى زميلى حسن عزت ليقول إن ضابطين من الجيش الألمانى يريدان الاتصال بى للتعاون ففرحت وقلت : هذه نجدة من السماء.

.. وفى رمضان ١٩٤٢م عندما ألقوا القبض علىَّ مقابل جهودى للتخلص من الاستعمار الإنجليزى سرت إلى سجن الأجانب وطوال الطريق، كان يرتفع أمام عينى " لطيف زهران " وهو يسير رافع الرأس سعيدا بما فعل لا يخشى الموت الذى سيلقاه، بعد قليل.

.. وعن سنوات سجنه فى كل سجون مصر التى دار بها السادات والتى شكلت فترة هامة من كفاحه يقول : إلى متى سنظل فى المعتقل ونحن فى نهاية سنة ١٩٤٤م والحرب قد اتضحت نتائجها ؟ لابد من عمل شيء، حرَّضت زملائى فأضربنا عن الطعام، ولكن بعد فترة لم يتحملوا الجوع فعادوا إلى تناول الطعام أما أنا فلم أتنازل مطلقا فاضطروا ـ وحسب القانون ـ إلى نقلى إلى مستشفى القصر العينى الجديد لكى أكون تحت العناية الطبية حسبما تقتضى القوانين، هناك أوقفت إضرابى عن الطعام، وبعد فترة قصيرة زارنى فى المستشفى زميلى "حسن عزت" الذى كان قد هرب من معتقل المنيا، وقال : ماذا تفعل هنا ؟ لابد من تدبير خطة لهروبك ،وفعلا دبرنا الخطة، فى ساعة الظهيرة عندما يزدحم المستشفى بالداخلين والخارجين من آلاف الناس جاء "حسن عزت" بعربة (أوستن) صغيرة ووضعها تحت مظلة الأطباء، ولم يوقف المحرك، خرجت أنا إلى فناء المستشفى وخلفى حارسى، وفى زحمة الناس استطعت بسهولة أن أتوارى عنه وبسرعة بلغت العربة التى اختفت بى وبحسن عزت فى لمح البصر، وبعد دقيقتين وصلنا منطقة فُم الخليج حيث الشقة التى كان قد جهزها حسن كمخبأ لى على بعد دقائق قليلة. كان هذا فى أكتوبر سنة ١٩٤٤م كما قلت، وبقيت مختبئا هاربا من وجه العدالة إلى سبتمبر سنة ١٩٤٥م عندما سقطت الأحكام العرفية، فبسقوط الأحكام العرفية انتهى اعتقالى حسب القانون ـ هذه ميزة سيادة القانون التى أحترمها وأدين بها وأطبقها الآن وأنا رئيس لجمهورية مصر.

هذا الكتاب يوثق لحياة زعيم من زعماء مصر الأبطال والذى لقب برجل الحرب والسلام ولقبته أمريكا بداهية (العالم السياسية) نظرا لبعده السياسى القوى.

.. نشأ أنور السادات ونال القسط الأول من التعليم فى قريته صابرا مثابرا على تفهم دروسه بعقل واع وفهم لما يكتبه اليراع .

.. كان رأسه كما عبر حكيم الصين " كونفشيوس " (كالوعاء) يدأب دائما على أن يملأه بالعلم والفهم والإفهام، وواظب على قراءة القرآن الكريم وحفظه بفيض من الله وإلهام.

.. أجاد اللغة الإنجليزية التى سمع أعداء بلاده يتكلمون بها ويرطنون، وبها يتحدثون، أجادها حتى أضحى ضليعا فيها ثم عكف على تعلم غيرها من اللغات، ومنها اللغة الفارسية، اللغة الفرنسية والألمانية

.. كان رجلا على كثرة ما قرأ وما كتب لم يعرف كلمات الكبر، فلاح وابن فلاح، من قرية متواضعة فى أعماق الريف لا يزيد عدد سكانها على الألفى نسمة لم تشهد نور الكهرباء هى وغيرها من قرى مصر إلا بعد إنشاء السد العالى.

.. تذهب إليه فى قريته وهو كثير الحنين إليها فتجده قابعا على الأرض لابسا جلبابا وعباءة، وفى يده مسبحة ويحيط به على هذه الأرض أهله وأبناء بلدته من الفلاحين البسطاء.

.. فإذا تحدثت إليه، تفتحت أمامك موسوعة كاملة، احتشدت فى هذا الفلاح المصرى، الذى يبهرك إذا تكلم معك فى الثقافة العربية، ويزيدك

انبهارا إذا سمعته يتحدث بالفرنسية،أو بالإنجليزية، أو بالألمانية، أو بالفارسية، لا حديث العابر على هذه اللغات، بل حديث المتمكن من آدابها وفلسفاتها وتواريخها.

.. فعندما يتطرق الحديث إلى السياسة والوطنية والدين، راعك منه أنه يؤلف من هذه الموضوعات الثلاثة معنى واحدا، اتخذه دستورا لحياته منذ فجر شبابه.. دستورا علمه كيف يكون ثائرا من أجل هذا المعنى، يقاد إلى المعتقلات واحدا بعد الآخر، ويتعذب فى أعماق السجون، ويقاسى مرارات الطرد والجوع والحرمان، دون أن يهتز له إيمان.

.. هذا هو الثائر الأول، الذى علم رفاقه الثورة، وخاض طريق العذاب منذ سنة ١٩٤٢م.. ثم واصله ليكون صاحب أول صوت يبشر الناس بالثورة سنة ١٩٥٢م.. ثم ظل يواصل الدعوى إلى المصريين ليهيئهم إلى المعركة الكبرى سنة ١٩٧٣م.

.. الثائر لا يزال ثائرا، منذ أن كان ضابطا ناشئا، إلى أن أصبح رئيسا للجمهورية ذلك لأنه ليس رجل مناصب، بل رجل أخلاق.

.. فى عدد أول يوليه سنة ١٩٥٣م، فى مجلة الهلال المصرية كتب هذا الثائر ـ أنور السادات ـ يقول:

" وحينما أعود بذاكرتى إلى الخلف قليلا، أذكر أننى فى سبتمبر عام ١٩٤٧م كنت فى سجن مصر، فى الزنزانة رقم ٥٤، و قد أمضيت أكثر من عام ونصف فى تلك الزنزانة، فما راعنى وأنا جالس فى أمسية

من أمسيات ذلك الشهر، إلا أن أدخل لى كتاب كنت قد طلبته، وإننى لأذكر جيدا أننى من شدة فرحى بهذا الكتاب أخذت أتصفحه، وكانت القراءة هى السعادة الوحيدة لى فى ذلك المكان.

"وقبل أن أصل إلى نهاية الكتاب، وقعت فى يدى ورقة كانت موضوعة فيه بطريقة خاصة. فتناولتها لأقرأ فيها خطابا من جمال عبد الناصر عن الخطة التى أعدتها الجماعة لتهريبى من السجن، وكافة المعلومات الأخرى التى يقتضينى اتباعها.

"وتُركت ساعة التنفيذ إلى وقت آخر"

.. ثم يختتم حديثه بكلمة الله.. الكلمة العليا التى كللت صيحته يوم ١٥ مايو سنة ١٩٧١م بالغلبة على خصومه والتى ستتوج حياته بإذن الله فى المعركة القادمة بالنصر المبين:

((وبالجملة... لقد اشتركت عوامل كثيرة فى إخراج هذه الحركة بقوتها وزهوها، وشدتها وحنوها، وعنفها ورزانتها.

"لقد كانت عوامل ليست من صنع البشر، وإنما هى من تلك الإحساسات السامية التى ترتفع بنفوس البشر فوق ذلك المستوى المادى، تعرف التضحية والصداقة، وتعرف الأخوة، وتعرف فوق كل شىء وقبل كل شىء الإيمان بإله عظيم يريد الخير للعالم، ولا يرضى لنا إلا الحياة الشريفة القوية".

.. كان السادات يحضر مؤتمرا جمع بين البلاد العربية والإسلامية فى المغرب، وكان من بين الحاضرين آنذاك زعماء من هاتيك البلدان ومن

بينهم الإمبراطور "محمد رضا بهلوى"، وكان على صداقة بإسرائيل حتى إن كاتب هذه السطور ـ يذكر أن جريدة "أخبار اليوم المصرية" وقد دأبت حال ظهورها كل أسبوع أن تنشر إطارا معنونا باسم حكمة اليوم فى صدر صفحتها الأولى، وبعد هذا المؤتمر دونت الجريدة فى إطارها كلمة الدكتور "محمود فوزى" رئيس وزراء مصر آنذاك، وقد ساءه ما ذكره إمبراطور إيران من مدح كاله لإسرائيل ورد فيه:

"لقد شاه وجه الشاه، شوهته الخطيئة بعد الخطيئة، وشوهه الإمعان فى الجحود والنكران"

.. وعندما جاء الدور على "أنور السادات" وكان ـ حينذاك ـ سكرتيرا عاما للمؤتمر الإسلامى رد بدوره ـ وقبل كلمة أو حكمة رئيس وزراء مصر السالفة.

.. قال السادات " للشاه " وباللغة الفارسية: التى كان يجيدها.

"إن الذى يأكل من عرق جبينه لا يحتاج إلى منة من أحد"

.. وانتزع السادات تصفيق الحاضرين الذين التهبت أكفهم بإزجاء التحية إليه، والإعجاب بما قال.. بما فيهم شاه إيران نفسه !.

.. وهكذا كان السادات محبا لوطنه مخلصا له لا يقبل من أى أحد مهما كان أن يعتدى عليه قولا أو فعلا.

.. كان يحكم مصر – فى الحقبة التى ذكا فيها عود السادات، وأضحى على مشارف الشباب – ملك مستبد سلطوى "outhorian" يحكم مصر حكما ديكتاتوريا يدأب دائما على أن يظهر لشعب مصر أنه المالك للبلاد

والعباد، يُقبل الكبراء يده، ويُكيلون له النفاق آناء الليل، وأطراف النهار. عدا زعيم مصر الخالد «سعد زغلول» الذى كان يقف له بالمرصاد يحبط كل ما يعن لهذا الملك أن ينال به من استقلال مصر أوحرية المصريين والذى شذ عن جميع زعماء مصر كما ذكر الأستاذ العقاد فى أنه كان يمهر المراسلات بينه وبين الملك فؤاد بعبارة (خادم سيادتكم) بينما كان الجميع يزيلونها بعبارة (خادمكم المطيع).!

.. وفرق شاسع بين هذه العبارة وتلك.

.. فما كان من الإنجليز إلا أن قاموا بنفيه هو ورفاقه مرتين إرضاءً لأنفسهم، ولذلك الملك الذى أتوا به، وعينوه، وعلى دست عرش مصر أجلسوه، ونصبوه

.. مات فؤاد بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩٣٦م ونُصب ابنه الملك فاروق على العرش فى ٢٩ يوليو ١٩٣٧م، بعد أن عاد إلى مصر فى صبيحة يوم الأربعاء ٦مايو ١٩٣٦م وصل الأمير فاروق إلى أرض الوطن قادما من إنجلترا حيث كان يتم تعليمه ليخلف والده على عرش مصر

.. وفى حفل تنصيبه هتف رئيس وزراء مصر قائلا:

«مات الملك يحيا الملك !»

.. بعد عودة فاروق إلى مصر وتولى مجلس الوصاية القيام بوظائفه، طلب الأمير محمد على من أحمد حسنين (بك) إعداد برنامج دراسة للملك فاروق لكى يقوم باستكمال دراسته التى لم يستكملها بالخارج، على أن يوافيه بعدها بتقارير دورية عن انتظام سير هذه الدراسة،

وطلب أحمد حسنين (بك) من حسين باشا حسنى تولى هذه المسئولية، الذى شرع بدوره فى وضع برنامج الدراسة المطلوب بالاشتراك مع أحمد حسنين (بك).

.. وكان السيد (مايلز لامبسون) المندوب السامى البريطانى قد رشح شابًا إنجليزيًّا واسمه مستر (فورد) لتدريس آداب اللغه الإنجليزية، وكذلك لتدريب الأمير الشاب فى بعض الألعاب الرياضية، إلا أن الأمير الشاب لم يكن مرحبا بذلك الرجل الإنجليزى لكونه كان مرشحا من المندوب البريطانى.

.. مات فؤاد عن تركة نهبها من أرض مصر وخيراتها بلغت مساحتها ٤٩ ألف و٣٠٠ فدان خص ابنه فاروق منها بمساحة قدرها ٢٥ ألفا و ٤٠٠ فدان.

.. وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وطرد فاروق مدحورا مهزوما كانت تركته قد نمت واستفحلت حتى بلغت ٩٦ ألف فدان أملاكا خاصة له يشرف عليها ويديرها بنفسه، غير عابئ إلا بمصلحته الشخصية. حتى إن الجماهير الغاضبة كانت تهتف ضده وبملء عقيرتها أين الغذاء والكساء يا ملك النساء بعد أن بلغ السيل الزبى.

.. كان السادات ينتمى إلى الطبقة الوسطى .

.. ولكن ما هى الطبقة الوسطى Middle Class ؟

.. يرى البعض أن الطبقة الوسطى مصطلح هلامى وفضفاض حيث يفتقر إلى الدقة العلمية.

.. ويرى آخرون أنها تمثل مختلف الشرائح الاجتماعية **Strata** التى تعيش فى شكل أساسى على المرتبات المكتسبة من الحكومة والقطاع العام، والمهن الحرة الخاصة، ويميز هذه الطبقة أن دخل أفرادها الأساسى ناجم عن العمل الذى يغلب عليه الطابع الذهنى والتقنى (ولهذا يطلق على أفرادها فى بعض الأحايين ذو الياقات البيضاء).

.. ويميل الباحثون إلى تقسيم هذه الطبقة إلى ثلاث شرائح تضم كل شريحة فئات متجانسة بقدر الإمكان وهى الشريحة العليا، والشريحة المتوسطة، والشريحة الدنيا.

.. ويرى العلامة الدكتور «عبد الرزاق السنهورى» فى محاضرة ألقاها أمام الحضور فى جمعية التشريع والاقتصاد عام ١٩٦٨م وكنا نحن حضوراً فيها والدى رحمة الله عليه ـ وكاتب هذه السطور، وهو يؤبن المرحوم «عبد الحميد بدوى باشا» أن الطبقة الوسطى هى التى خرج منها زعماء مصر (أحمد عرابى ـ ومصطفى كامل ـ وسعد زغلول).

.. وقد أردف قائلا: وهى الطبقة التى يوجد فيها الأطباء والمهندسون والضباط والعلماء والموظفون وغيرهم.

.. ومن هنا نستطيع أن نقول – وفق ما ذهب إليه الدكتور السنهورى فى محاضرته تلك – إن السادات كان من الطبقة الوسطى التى تنتمى إلى الشريحة المتوسطة.

عاش أنور السادات عمره من أجل مصر، لم يبخل عليها يوما بلحظة من حياته، ولا قطرة من دمه، وهبها فكره؛ إذ كانت مصر تعيش دومًا فى وجدانه.

ورحلة كفاح الرئيس السادات صورة نابضة بالحب لشعبه و وطنه كما سطرها التاريخ منذ مولده بميت أبو الكوم و تدرجه فى التعليم حتى تخرج ضابطا فى الكلية الحربية و دخوله السجن ودوره البارز فى ثورة يوليو وتقلده العديد من المناصب إلى أن تولى رئاسة الجمهورية ليحقق لبلاده أروع إنجاز فى تاريخها.

.. لقد اشترك «فى دار المعارف» حتى يتسنى له الحصول على ما يجد من كتب تصدرها الدار مما يؤكد ميول السادات الثقافية ويشى بميوله الأدبية..

.. لم يقابل سلوكه هذا رضى من الإنجليز فنقلوه إلى منطقة «الجراولة» التى تقع فى الصحراء الغربية بين السلوم ومرسى مطروح، ومن خلال العزلة التى فرضت عليه تفرغ للقراءة فاتسع وعيه الثقافى مع وعيه السياسى مما أغضب رؤسائه وقادته.

.. وعندما دعا الشيخ حسن البنا ليلقى حديثا إلى جنوده بمناسبة المولد النبوى الشريف تسلل العريف حمدى سيف النصر القائد العام للجيش فى الهزيع الثانى من الليل ليجرى تحقيقات حول ذلك.

.. ويتعرف السادات بالفريق «عزيز المصري» الذى كانت له اليد الطولى والقدح المعلى فى تأجيج الثورة فى قلبه ضد الإنجليز لأن الإنسان بدون فكر أشبه بالسفينة دون دفة قيادة.

.. تأثر السادات فى مطلع حياته بعدد من الشخصيات السياسية والشعبية فى مصر والعالم، وقد ساهم هذا التأثير فى تكوين شخصيته النضالية ورسم معالم

.. وفى عام ١٩٤١م دخل السادات السجن لأول مرة فى أثناء خدمته العسكرية إثر لقاءاته المتكررة بعزيز باشا المصرى الذى طلب من السادات مساعدته للهروب إلى العراق، بعدها طلبت منه المخابرات العسكرية قطع صلته بعزيز المصرى لميوله المحورية، غير أن السادات لم يعبأ بهذا الإنذار مما أدى إلى طرده من الجيش عام ١٩٤٢م ثم إيداعه سجن الأجانب فى فبراير عام ١٩٤٢م.

.. خرج السادات من سجن الأجانب فى وقت كانت فيه عمليات الحرب العالمية الثانية على أشدها، وعلى أمل إخراج الإنجليز من مصر كثف السادات اتصالاته ببعض الضباط الألمان الذين نزلوا مصر خفية، فاكتشف الإنجليز هذه الصلة بين السادات والألمان فدخل المعتقل سجينا للمرة الثانية عام ١٩٤٣م.

استطاع السادات الهرب من المعتقل و رافقه فى رحلة الهروب صديقه حسن عزت وعمل السادات فى أثناء فترة هروبه من السجن عتالاُ على سيارة نقل تحت اسم مستعار هو الحاج 'محمد' وفى أواخر عام ١٩٤٤م انتقل إلى بلدة أبو كبير بالشرقية ليعمل فاعلا فى مشروع ترعة رى.

.. وكذا فى عام ١٩٤٥م مع انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م سقطت الأحكام العرفية وبسقوطها عاد السادات إلى بيته بعد ثلاث سنوات من المطاردة والحرمان وتذوق مرارة الهوان.

التقى السادات فى تلك الفترة بالجمعية السرية التى قررت اغتيال «أمين عثمان» وزير المالية فى حكومة الوفد «٤ فبراير ١٩٤٢م –

٨ أكتوبر ١٩٤٤م» ورئيس جمعية الصداقة المصرية البريطانية لتعاطفه الشديد مع الإنجليز، وعلى أثر اغتيال أمين عثمان عاد السادات مرة أخرى وأخيرة إلى السجن وفى الزنزانة '٥٤' فى سجن قرميدان واجه السادات أصعب محن السجن بحبسه انفراديا، بعد اغتيال «أمين عثمان» عقب قولته:

«إن ارتباط مصر بإنجلترا وصداقتهما هو كالزواج الكاثوليكى زواجا مؤبدا فى الشريعة المسيحية»

.. قبض على السادات مع من قبض عليه واتهم بقتل «أمين عثمان» وألقى به مرة أخرى فى غياهب الجب، وأجرى التحقيق معه مرة تلو الأخرى وهو يراوغ محققه، وإذ قدم هو وزملاؤه إلى محكمة الجنايات جعل من المحكمة منبرا لكى يجأر أمامها بنقد النيابة العامة التى قدمته للمحاكمة فى شخص نائبها العام .

وبعد ذلك عمل السادات مراجعا' صحفيا بمجلة المصور حتى ديسمبر ١٩٤٨م.

.. وخلال عام ١٩٤٩م انفصل عن زوجته الأولى و تقدم لخطبة زوجته الثانية جيهان صفوت رؤوف وما بين الخطبة وإتمام زواجه سنة ١٩٤٩م انخرط السادات فى الأعمال الحرة مع صديقه حسن عزت.

.. وفى عام ١٩٥٠م عاد السادات إلى عمله بالجيش بمساعدة زميله القديم الدكتور يوسف رشاد الطبيب الخاص بالملك فاروق.

.. وفى غضون عام ١٩٥١م تكونت الهيئة التأسيسية للتنظيم السرى فى الجيش والذى عرف فيما بعد بتنظيم الضباط الأحرار فانضم السادات

إليها، وتطورت الأحداث فى مصر بسرعة فائقة بين عامى ١٩٥١م – ١٩٥٢م، فألغت حكومة الوفد معاهدة ١٩٣٦م ومن بعدها اندلع حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢م و أقال الملك وزارة النحاس الأخيرة.

.. وفى ربيع عام ١٩٥٢م كانت ثورة ٢٣ يوليو قد اكتمل نموها وذكا عودها وأصبحت بشرا سويا، وفى ٢١ يوليو أرسل جمال عبد الناصر إلى أنور السادات فى مقر وحدته بالعريش يطلب إليه الحضور إلى القاهرة للمساهمة فى ثورة الجيش على الملك والإنجليز.

.. قامت الثورة و أذاع أنور السادات بصوته بيانها ولو فشلت الثورة لكانت رقبة السادات أول رقبة تطير فى الهواء .

.. وفى عام ١٩٥٣م أنشأ مجلس قيادة الثورة جريدة الجمهورية وأسند إلى السادات مهمة رئاسة تحرير هذه الجريدة.

.. وفى عام ١٩٥٤م ومع أول تشكيل وزارى لحكومة الثورة تولى السادات منصب وزير دولة فى سبتمر ١٩٥٤م ثم عين نائبا لرئيس الجمهورية لفترة لا تزيد عن الشهر.

.. وفى عام ١٩٥٧ انتخب عضوا بمجلس الأمة عن دائرة تلا ولمدة ثلاث دورات

.. وفى عام ١٩٦٠م انتخب رئيسا لمجلس الأمة من ٢١-٧-١٩٦٠م إلى ٢٧-٩-١٩٦١م،ورئيسا للأمة للفترة الثانية من ٢٩-٣-١٩٦٤ إلى ١٢-١١-١٩٦٨م.

.. وفى عام ١٩٦١م عين رئيسا لمجلس التضامن الأفرو أسيوى.

.. وقبيل سفر الرئيس جمال عبد الناصر لحضور مؤتمر فى مدينة الرباط بالمغرب عام ١٩٦٩م اختاره الزعيم جمال عبد الناصر نائبا له .

.. وانتقلت روح جمال عبد الناصر إلى بارئها فى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م واختار الشعب المصرى «أنور السادات» رئيسا لجمهورية مصر العربية.

.. استمرت فترة ولاية الرئيس السادات لمصر إحدى عشر عاما، اتخذ السادات خلالها عدة قرارات تاريخية خطيرة هزت العالم وأكدت على صلابة السادات فى مواجهة الأحداث ومرونته الفائقة على تفادى مصر المخاطر الجسيمة، حيث بنى استراتيجية فى اتخاذ القرار على قاعدة أصولية منسوبة إليه وهى «لا يصح إلا الصحيح».

.. وخلال عام ١٩٧١م اتخذ الرئيس السادات قرارا حاسما بالقضاء على مراكز القوى فى مصر وهو ما عرف بثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١م فخلص الإنسان المصرى من قبضة أساطير الاستبداد التى كانت تتحكم فى مصيره، وفى نفس العام أصدر السادات دستورا جديدا لمصر

..عام ١٩٧٢م قام السادات بالاستغناء عن ١٧٠٠٠ خبير روسى فى أسبوع واحد لإعادة الثقة بالنفس لجيش مصر حتى إذا ما كسب المصريون المعركة لا ينسب الفضل إلى غيرهم

.. وفى غضون عام ١٩٧٣م أقدم السادات على اتخاذ أخطر القرارات المصيرية له ولبلاده وهو قرار الحرب ضد إسرائيل، وهى الحرب التى أعد لها السادات منذ اليوم الأول لتوليه الحكم فى أكتوبر ١٩٧٠م فقاد مصر إلى أول انتصار عسكرى فى العصر الحديث.

.. عام ١٩٧٤م قرر السادات رسم معالم جديدة لنهضة مصر بعد الحرب بانفتاحها على العالم فكان قرار الانفتاح الاقتصادى .

.. عام ١٩٧٦م وبعد فترة طويلة من خضوع الإنسان المصرى لسلطة الفرد المطلقة أعاد السادات الحياة إلى الديمقراطية التى بشرت بها ثورة يوليو ولم تتمكن من تطبيقها، فكان قراره بعودة الحياة الحزبية، فظهرت المنابر السياسية ومن رحم هذه التجربة ظهر أول حزب سياسى وهو الحزب الوطنى الديمقراطى كأول مولود حزبى كامل النمو بعد ثورة يوليو ثم توالى من بعده ظهور أحزاب أخرى كحزب الوفد الجديد وحزب التجمع الوحدوى التقدمى وغيرها.

.. عام ١٩٧٧م اتخذ الرئيس قراره الحكيم والشجاع الذى اهتزت له أركان الدنيا بزيارة القدس ليمنح بذلك السلام لشعبه وعدوه فى آن واحد، ويدفع بيده عجلة السلام بين مصر وإسرائيل فى ٢٩ نوفمبر ١٩٧٧م.

.. عام ١٩٧٨م قام السادات برحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية من أجل التفاوض لاسترداد الأرض وتحقيق السلام كمطلب شرعى لكل إنسان وخلال هذه الرحلة وقع اتفاقية السلام فى كامب ديفيد برعاية الرئيس الأمريكى «جيمى كارتر».

.. وفى عام ١٩٧٩م وقع الرئيس السادات معاهدة السلام مع إسرائيل.

.. قال «فرجيلوس» ـ أمير الشعر اللاتينى فى الكتاب السابع: إن براعتك هى أن تنشر أسس السلام.

.. وهكذا كانت براعة السادات بعد انتصار جيش مصر العظيم فى حرب أكتوبر.

.. فقد عمل السادات جاهدا على نشر أجنحة السلام بين مصر وإسرائيل مضافا إليه فلسطين والأردن وسوريا بيد أنهم رفضوا الانضمام إلى مائدة السلام .

.. وقد تهكم الأستاذ «Jan Keviteh» أستاذ علم الأخلاق فى جامعة السربون قائلا: إن كل ما يتطلبه سقراط من الناس ليكونوا فضلاء أن يكون لهم أذنان ليسمعان بها ودروسا أو محاضرات فى الفضيلة.

.. فالفلسفة هى : العلم الذى يبحث فى الأسس النظرية التى تدعم مجموعة المعتقدات كل منها فى حياته الخاصة.

.. أما المثالية : كما يقول "Lalande" فى معجمه الفلسفى هى :

"الاتجاه الفلسفى المدنى يرجع كل وجود إلى الفكر بالمعنى الأتم لهذه الكلمة"

.. ويرى "هنرى برجسن «Henri Bergson» (١٨٥٩م - ١٩٤١م)

أن «الفلاسفة السابقون عليه قد اعتمدوا كل الاعتماد على العقل باعتباره الطريق الوحيد الموصل إلى المعرفة»

.. ويرى «أرسطو» أن الفضيلة هى بين رذيلتين هما الإفراط والتفريط، والإفراط هو طرف الزيادة الذى يجب أن يبعد عنه الرجل الفاضل، أما التفريط هو الطرف الآخر: طرف النقصان أو التقصير الذى

ينبغي كذلك أن يبعد عنه الرجل الفاضل، فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين الإسراف والتقتير»

.. ويقدم لنا أفلاطون فى الكتاب السابع من الجمهورية الصورة التالية عن الحياة :

« تصور طائفة من الناس تعيش فى كهف سفلى مستطيل يدخله النور من باب فى طوله، وقد سجن فيه أولئك الأقوام منذ نعومة أظفارهم، السلاسل فى أعناقهم وأرجلهم، فاضطرتهم إلى الجمود والنظر إلى الأمام فقط، لحيلولة الأغلال دون التفاتهم، ثم تصور أن وراءهم نارا ملتهبة، فى موضع أعلى من موقعهم، وأن بينهم وبينها جدارا منخفضا كسياخ المشعوذين الذى ينصبونه لمشاهديه، وتصور أناسا يمشون وراء ذلك الجدار حاملين تماثيل بشرية وحيوانية، مصنوعة من حجارة وأخشاب ضخمة، مع كل الأوانى، مرفوعة فوق الجدار، وفرض أن بعض أولئك المارة يتكلم، وبعضهم صامت، إن هؤلاء السجناء لا يرون شيئا سوى الظلال التى أحدثها اللهب وراءهم، لأنهم مقيدون لايلتفتون، ثم إنهم يحسبون هذه الظلال حقائق، ويظنون أنها تتكلم، ولنفرض أن أحدهم حلت أغلاله فتمكن من الالتفات إلى الوراء، إن عينيه تتألمان من النور ويتحير فى أمره، ويحسب الأشباح التى كان يراها فيما مضى حقائق أكثر من الحقائق التى يراها الآن. ثم إنه يألف العالم الأعلى، ويرى اليقينيات، ويتمكن أخيرا من رؤية الشمس ذاتها. (الجمهورية. الكتاب السابع. ترجمة حنا خباز (١٩٢٩م ـ ص ١٩٣).

.. واضح من هذه اللوحة الرمزية التى رسمها أفلاطون أنه قد رمز إلى الحياة بالكهف، وإلى الإنسان بالسجين أو السجناء، وإلى المعرفة الحسية الزائلة بالظلال التى يحدثها لهب النار المشتعلة فوقهم وهى محجوبة عنهم بالجدار، وإلى الفيلسوف بالسجين الذى استطاع التحرر من أغلاله، وإلى مثال الخير بالشمس التى يراها هذا السجين المتحرر آخر الأمر،وهكذا كان السادات فقد تحرر السجين من سجنه وكافح ونافح حتى اعتلى سدة الحكم وقاد جيش مصر إلى النصر فى معمعة حرب أكتوبر.

.. لم تكن حرب أكتوبر كغيرها من الحروب التى دارت بين مصر وإسرائيل أو بين العرب و إسرائيل.

.. فلم تكن كحرب ١٩٤٨م التى هزم فيها العرب جميعا على يد إسرائيل بمؤامرة عالمية مكشوفة وإمداد دائم بالسلاح لإسرائيل دون العرب.

.. ولم يكن الجيش المصرى كذلك هو الجيش الذى اغتيل غيلة وغدرا فى حرب ١٩٦٧م.

.. فقد خطط السادات لها تخطيطا عبقريا غير مسبوق فى تاريخ الحروب.

.. يقول السادات :

«لقد خططنا للمعركة تخطيطا علميا مدروسا بكل ما تقتضيه الخطة من تفصيلات وواجبات ومهام. كانت خريطة سيناء أمامى بكل معالمها. كل تفصيل على أرض سيناء كان موضوعا فى الاعتبار، وكل قائد وكل مقاتل كان يعرف واجباته، ودرب عليها، واستعد لها استعدادا هائلا.

.. أولادى فى القوات المسلحة كانوا على أعلى درجات التأهب والاستعداد، وكنت فى نفس الوقت أعرفهم من أبناء شعبنا الطيب، أصلاء ورجالا وأبطالا عند الشدة.

.. وكان فى اعتبارنا أيضا فى أثناء التخطيط، أن المعركة ستلهب مشاعر أبناء الأمة العربية جميعهم وستستأثر بكل ما يملكون من الحماسة والطاقات. ولذلك كان من ضمن تخطيطى للمعركة أن تستمر أطول وقت ممكن، وقد التقى معى فى هذا التخطيط المغفور له جلالة الملك فيصل على أساس أن طول المعركة يسمح بتكوين رأى عام يشد من أزرها.

.. وقد كانت كل هذه التفصيلات بالاتفاق أساسا مع الرئيس السورى «حافظ الأسد».

.. ومن هنا جاءت «شهادة» إسرائيل ، والفضل ما شهد به الأعداء.

.. يقول الجنرال الإسرائيلى «ناركيس»، بصدد هذا :

.. « ليس أمامنا مفر من أن نشهد لجهاز التخطيط المصرى بالبراعة !.

.. لقد كانت خططهم دقيقة، وكان تنفيذها أكثر دقة. لقد حاولنا بكل جهدنا إعاقة عملية العبور وردها بالقوة على أعقابها، غير أننا ما كدنا نتمثل ما حدث إلا وكانت نتائجه قد تحققت لهم.

.. كأنما أغمضنا أعيننا، وفتحناها، فإذا هم قد انتقلوا تحت النار من غرب القناة إلى شرقها، ليفاجئونا صباح ٧ أكتوبر بخمس فرق كاملة أمامنا على الضفة الشرقية من القناة».

.. وشهد الجنرال «فارار هوكلى» فى بحث معهد الدراسات الاستراتيجية بلندن حيث قال:

.. «كان التخطيط المصرى لعمليات أكتوبر تخطيطا بارعا ودقيقا، فلقد قامت القيادة المصرية بدراسة نقاط القوة والضعف فى عدوها، وكان السؤال الرئيسى المطلوب الإجابة عنه هو:

(ما نوع العمليات التى تحقق أهداف المعركة، وتسبب لإسرائيل الخسائر المؤلمة؟)».

.. ونجيب ـ نحن ـ على الجنرال سالف الذكر إن ذلك يرجع إلى أن الجيش المصرى قد مزج بين الخطط المحكمة والشجاعة الفائقة والبسالة النادرة الأمر الذى جعله يبهر العالم ويعجز إسرائيل، أو ليست جنوده هم خير أجناد الأرض؟!

.. يصور الروائى العالمى «نجيب محفوظ» موقفه من السادات فى رواية «الباقى من الزمن ساعة»، وفى روايته الأخرى (يوم مقتل الزعيم) رأيه فى عصر السادات بعد أن كان قد أظهر رأيه ذلك فى كتابه (أمام العرش) والذى اختار له عنوانا ثانيا هو (حوار مع رجال مصر من مينا حتى أنور السادات)، وحاكم فيه جمال عبد الناصر.

.. قال محفوظ :

(أما عن موقفى فى عصر السادات، فقد كنت أتعاطف معه حينئذ، لقد اتخذ موقفا – بالفعل – من القومية العربية، غير أن عذره كان داخليا، أى أن ظروفه الداخلية كانت تحول بينه وبين الثبات على الخط العربى.

.. كان يعتقد أن (كامب ديفيد) يمكن أن يعيد بها ما خربته سنوات الحرب فى مصر، وكان يؤمن أن الأمان الذى تحصل عليه مصر يمكن أن يسهم فى استجلاب عصر رخاء جديد.

.. والحقيقة أن السادات كان يعاين بلدا (يغرق) بكل ما فيه من مضاعفات سيئة على اقتصاده القومى، وكان لابد من الاستمرار، فآثر هذه (الهدنة) التى سميت باسم السلام.



السادات وحرب أكتوبر

تعرض السادات للنقد الشديد مع دأبه ونصبه وعنائه وتعبه وما ذاقه وما قاساه من خلال العكوف على البحث عن مخرج وطنى خلال قبوع إسرائيل داخل سيناء وخوضه لحرب أكتوبر بجيش مصر الباسل.

.. ورغم ذلك شنت عليه حملة شعواء، وكأن عبد الناصر قد انتقلت روحه إلى خالقها بعد أن ترك مصر واحة خضراء فحولها السادات إلى صحراء جرداء.

.. يقول الدكتور "جلال أمين" فى كتابه "مصر والمصريون فى عهد مبارك":

"منذ ذلك الوقت ١٩٦٧م تدهور مركز الدولة فى مصر، فانتشر العبث بالقانون وزاد الفساد حتى أصبح هو الوسيلة الأساسية للإثراء، والوصول إلى قمة الهرم الاجتماعى، كما أصبح الفساد وسيلة ضرورية للحصول على ما يتطلبه مجرد البقاء على قيد الحياة، فى أدنى درجات هذا الهرم.

ولم تنقذ حرب ١٩٧٣م الدولة المصرية من هذا التدهور؛ إذ لم يجلب الانتصار العسكرى انتصارا سياسيا، بل فرض على مصر، على إثر هذه الحرب، ليس مجرد الصلح مع إسرائيل، بل فتح أبواب الاقتصاد على

مصاريعها للسلع ورؤوس الأموال الأجنبية، وأصبحت الدولة المصرية تتلقى الأوامر من الخارج فيما يتعلق بموقفها من إسرائيل، ومواقفها من أشقائها العرب، ونوع سياساتها الاقتصادية، على السواء.

وعندما تصل الدولة المصرية إلى هذا الحد من الضعف، لابد أن يصيب هذا الضعف الاقتصاد والثقافة والإعلام، فضلا عن المواقف السياسية، فلا عجب أن تنظر الدول العربية الأخرى حولها باحثة عن مصر فلا تجدها ؟!".

.. ومن قبل ذلك قال :

"إن السادات قام بتنفيذ كل ما طلب منه فى السياسة الاقتصادية فدشن سياسة الانفتاح الاقتصادى فى ١٩٧٤م، وقام بتطبيقها على النحو الذى يحقق مصلحة المصدرين والمستوردين، دون مراعاة لمقتضيات حماية الصناعة المصرية من التدهور وتشجيع القطاع الزراعى على النمو، فسمح للواردات فى الحالين بمنافسة المنتجات المحلية، ولم يحافظ على مستوى الاستثمار العام اللازم لتنمية هذين القطاعين الأساسيين وفى ظل انتعاش مالى سببه تدفق تحويلات المهاجرين المصريين من دول النفط وإعادة فتح قناة السويس، واستعادة بترول سيناء وارتفاع سعره، وعودة المعونات الأجنبية، وبعض الانتعاش فى السباحة بدت مصر وكأنها فى حالة رخاء عام، إذ ارتفعت الدخول وزاد الاستهلاك بشدة، وغمر مصر فيضان من السلع الاستهلاكية المستوردة، اعتبره السادات وأنصاره "إصلاحا اقتصاديا وانتعاشا" بعد عقدين من الحرمان.

دعم من هذا الظن ارتفاع معدل نمو الناتج القومى ارتفاعا مبهرا، إذ بلغ فى الفترة (١٩٧٥م - ١٩٨٥م) أكثر من ٨٪ سنويا، ومن ثم زاد متوسط الدخل بأكثر من ٥٪ سنويا، وهو مالم تعرفه مصر طوال المائة عام السابقة على الأقل. ولكن الحقيقة أن هذا الرخاء كان بمثابة بناء قصر جميل على الرمال : فقد انخفض بشدة معدل النمو فى قطاعى الصناعة التحويلية والزراعة بسبب انخفاض الاستثمار العام فيهما وإهمال تجديد وصيانة القطاع العام، وحمايته من المنافسة، وكان النمو المرتفع فى مصادر غير مضمونة ولا يمكن الارتكان إلى استمرارها. فتحويلات المهاجرين تتوقف على أسعار البترول وعلى سياسات الدول العربية المستقبلة للعمالة المصرية، وأسعار البترول تتقلب مع تقلب ظروف الطلب الدولى، وكذلك إيرادات قناة السويس والسياحة، والمعونات محكومة بالطبع بالاعتبارات السياسية، وقد تأكدت هشاشة هذه المصادر كلها ابتداء من منتصف الثمانينيات .

.. أضف إلى ذلك استسلام السادات لإغراء القروض الخارجية، فى وقت كانت البنوك الغربية تبحث لنفسها عن مجالات لاستثمار فوائض إيرادات البترول التى تدفقت عليها، فراحت تغرى دول العالم الثالث باقتراضها، وبأسعار فائدة باهظة، سواء كانت هذه الدول فى حاجة إليها أم لم تكن. ولم تكن مصر قطعا فى حاجة إلى هذه القروض، فقد كان اقتراضها فى فترة رخاء غير معهودة، كما سبق أن أشرت، وكان جزء كبير من هذه القروض قروضا عسكرية، بأسعار فائدة بالغة

الارتفاع، فى وقت كان السادات يعلن فيه أن حرب أكتوبر ١٩٧٣م هى آخر الحروب .″

.. هل هذا الضعف الذى أصاب اقتصاد مصر وضرب الوطن فى مكمنه.. ″كان سببه أنور السادات؟″.. أم أن السبب فى ذلك يرجع إلى تدهور مركز الدولة فى مصر وانتشار العبث بالقانون وزيادة الفساد الذى عم وطن.. كان السبب فى ذلك كما ذكر الدكتور أنفا؟! .

.. وقمين بنا أن نرد على ما وجه إلى السادات من نقد عنيف إلى سياسة الإنفتاح التى اتبعها فى مصر محولا الدولة بها من الاشتراكية ″Socialism″ إلى الرأسمالية ″Capitalism″ وما تبعها من ظهور طبقة رأسمالية طفيلية اتسعت وتضخمت حتى بلغت الحلقوم منها. وأن هذا أدى إلى المزيد من النهب والسلب من ممارسة هذه الطبقة لسياستها الخاصة بها .

.. ونرد على هذا، فنقول:

.. هل كان السادات يقصد بهذه السياسة شرا لمصر ؟

.. وهل قال السادات للطبقة التى استغلت الانفتاح. ″هلموا اسرقوا وانهبوا″ ؟.

.. يقول ″شارل زوجيب″ أستاذ العلاقات الدولية:

إذ كان يجب على مصر بعد انتصار ١٩٧٣م أن تختار سياسة الانفتاح، لأن مصر الخالدة المنهكة بفعل أربعة حروب، والمجمدة بفعل البيروقراطية الناصرية Nasserism Bureaucracy

مشحونة بالأمل أمام الانفتاح، فمصر تحتاج إلى السلام والتنمية بشكل عاجل.

.. يذكر صاحب كتاب "الاغتيال الثانى للسادات" لم يكن اتجاه السادات نحو الانفتاح خاطئا إن لم يكن ضروريا كما أوضح "زوجيب"، ولكن جرى تنفيذه بشيء من العشوائية المفرطة، وعدم مراقبة ووضع ضوابط معينة فاختلط الحابل بالنابل، ونال الثراء الفاحش فئة معينة والذى جرى وصفه.. وكما يذكر كاتب هذه السطور، على لسان أستاذنا الدكتور " رفعت المحجوب " رئيس مجلس الشعب المصرى والذى درس لنا علم المالية العامة فى كلية الحقوق جامعة القاهرة. أصبحت مصر تعيش فى زمن القطط السمان

.. كما أن ما ارتآه الدكتور"أمين"، ذكره كاتب إسرائيلى هو "جوزيف فينكليستون "Joseph Finkeliston" فى كتابه "السادات وهم التحدى" ترجمة " عادل عبد الصبور " إذ قال:

" إن المجتمع المصرى قد انشطر إلى هاتيك القطط السمان ناهيك عن المتطفلين الذين يسيرون فى ركبهم فى ناحية، وبقية السكان فى ناحية أخرى.، فالسادات قد فشل فى تحويل اقتصاد الدولة بصورة كلية وترك أجزاء منها تضرب فى الفقر،إلا أن الحقيقة التى لايجانبها أدنى شك أن السادات حينما تولى القيادة كانت الحياة الاقتصادية مليئة على الأقل ببعض أسباب الفشل"

.. وأردف الكاتب الإسرائيلى يقول:

"إنه ليس من قبيل العدل أن نعزو الفشل كلية إلى سياسة الانفتاح الاقتصادى.. كذلك ليس من قبيل العدل أن نستبعد عناصر أخرى أدت إلى إساءة تفسير المشكلة كالانفجار السكانى.. فالسادات عندما أصبح رئيسا كان عليه أن يتعامل مع تركة محبطة، فقد ترك له "ناصر" اقتصادا مهموما يعانى اتساع دائرة الفقر، واستشراء الفساد البيروقراطى، وعدم كفاية الخدمات العامة، والنقص فى الغذاء، وفوق ذلك ـ كما ذكر ـ الزيادة الهائلة فى عدد السكان، والتى بلغ معدلها مليون نسمة سنويا، ومن ثم قد اعتقد أنه بمنح القطاع الخاص دورا أكبر فى عجلة الاقتصاد، فإن ذلك سيؤدى إلى إنقاذ الاقتصاد من مرضه.

.. يذكر الدكتور "حازم الببلاوى " فى كتابه " دور الدولة فى الاقتصاد :

إن البشرية قد عانت معظم تاريخها فى ظل أوضاع التخلف والبدائية، ولعل الطفرة الأولى الأساسية بالتطور الاقتصادى قد تحققت قبل عشرة آلاف عام عندما اكتشف الإنسان الزراعة مع الثروة الزراعية فى منطقة الشرق الأوسط فى وادى مابين النهرين أو وادى النيل على خلاف بين المؤرخين.

.. وأشار إلى كتابين أحدهما لمؤلف أمريكى والآخر فرنسى الأول هو " فرنسيس فوكوما F. Fukuyama " فى كتابه نهاية التاريخ، والآخر فى كتابه "الثقة أو مجتمع الثقة La socieeté ale confiance" وهى رسالة دكتوراه ناقشها المؤلف بعد ما يقرب من نصف قرن من

تسجيلها، وتدور الفكرة المحورية لهذا الكتاب وذاك حول تصور بسيط فى جوهره ولكنه قد يكون بالغ الخطورة فى آثاره وهذا التصور أو تلك الفكرة هى أن ينبغى البحث فى التقدم إلى الأمام من حيث إن تقدمها ليس فقط راجعا إلى اعتبارات اقتصادية من تراكم رؤوس الأموال أو توافر الموارد الطبيعية أو تحقيق الثورة العلمية التكنولوجية أو النظم والسياسات الاقتصادية المناسبة.. "وإنما يرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى توافر أو عدم توافر معوقات ثقافية فى علاقات المجتمع وهى معوقات الثقة والاطمئنان، وهكذا فإن ثقافة الثقة هى أساس تقدم الأمم".

.. فهل تقاعس السادات عن بث الثقة إلى المجتمع المصرى لينهض من كبوته الاقتصادية؟

.. والذى لا مشاحة فيه أن التخطيط من قبل الدولة يعد أداة قوية لاستمرار الثورة.. وفى هذا السياق أشار السادات إلى تجارب بعض الدول مثل (أستراليا، والسويد، وبريطانيا).

.. وفى تقدير السادات أن الصين برغم كونها فقيرة فإنها ترسم الطريق لأى دولة ذات عدد سكان كبير لإطعام سكانها.. وأنه لم ترد تقارير عن أناس ماتوا جوعا فى الصين أو يعيشون فى ظروف طاحنة يمكن أن تؤدى إلى اندلاع ثورة.

.. كان السادات شخصا طموحا اكتسب شرعية بطولية، كما اكتسب فخر واحترام الشعب المصرى، ومن ثم اعتقد أنه بإمكانه التصرف كأب يرى المعارضة ضرورية للنظام الديمقراطى لكن يجب أن تتم السيطرة عليها، كما يجب أن يتم تقويض الانتقادات الموجهة للنظام.

.. علق السادات على معرفته أن العجز فى الميزانية بلغ أربعة ملايين جنيه استرلينى، وحقيقتها إنها كانت (أربعة بلايين)، وكما صحح الرقم الدكتور " جلال أمين " فى كتابه سالف الذكر، وهو ما لم تكن مصر قادرة على تغطيته، فقال :

(إن الاقتصاد المصرى يشبه ذلك الرجل الذى يبدو ذا صحة، ولكن لا يوجد دم يجرى فى شرايينه، ولذا فهو يحتاج إلى نقل دم يمنع موته).

.. ومن الجدير بالذكر أن السادات ـ محتذيا بتجربة ألمانيا الغربية التى انطلقت من دمار الحرب العالمية الثانية لتصبح واحدة من أغنى الدول ـ وجه نداء إلى المصريين للقيام بمبادرات شخصية، وألا يعتمدوا على الدولة دائما، مثيرا حفيظتهم بأن مصر كانت واحدة من أعظم الإمبراطوريات الزراعية، والتى لم تكن تنتج غذاء لشعبها فحسب، وإنما لشعوب أخرى من العالم، وهاهى مضطرة إلى استيراد كميات كبيرة من الغذاء من الخارج وبالعملة الصعبة.. مشيرا إلى أن المصريين قادرون على "تحسين أحوالهم".

.. وكان السادات يرد بازدراء على تصريحات القذافى الذى قال:

"إن مصر جائعة فى ظل السادات"

.. جاء فى كتاب الدكتور " إبراهيم دسوقى أباظة " الخطايا العشر" :

"إن البيان الرسمى قد ذكر أن السادات قتل برصاص جماعة إسلامية متطرفة"

.. ولكن التحليل السياسى يقول :

" إن الرئيس السادات قتل نفسه.. وأن حادثة المنصة لا تعدو أن تكون نوعا من الانتحار السياسى المحتوم، وبين هذين البعدين : البعد الرسمى والبعد السياسى يدور الخلاف حول التفسير، ويظل الدرس غامضاً ينتظر التحليل والتعليل".

.. والتفسير الرسمى يقف بالحدث عند أسبابه المباشرة ويكتفى منه بالوصف الجنائى الوارد فى تقارير الأمن وملفات القضاء.

.. والتفسير السياسى يرفض الوقوف بالحدث عند حدود من حرَّض.. ومن دبرَّ.. ومن أطلق النار.. فالرصاص لا ينطلق هكذا بلا جذور ولا مقدمات.. والذين أطلقوا الرصاص لم يهبطوا من السماء.. بل جاءوا من جماعة خرجت من صلب المجتمع وتشكلت بتفاعلاته ومؤثراته.. وفى مركز هذا المجتمع توجد السلطة.. والنظام الذى يستخدم السلطة.

.. وعندما يصبح رئيس النظام محور السلطة.. ومحط المسئولية فى كل فعل أو تصرف يصدر عن السلطة فإن اختفاءه بهذا الأسلوب الدموى العنيف لا يجوز أن يقف بنا عند الأسباب والدوافع المباشرة.. والاكتفاء بحصر الاتهام فى أفراد أو جماعات.. بل يجب مد البصر إلى الأسباب الجذرية والدوافع البعيدة التى هيأت المناخ العام لظهور هؤلاء الأفراد أو هذه الجماعات.. ومهدت لتقبل فكرة العنف والرصاص كبديل للتعبير عن الرفض المطلق لسياسة الرئيس السادات والنظام الذى يمثله.

.. وهنا معقد الأمل فى إدراك الإجابة الصحيحة.

.. فنحن لا نطرح السؤال : من قتل الرئيس السادات إلا سعيا للبحث عن الأسباب الجذرية التى مهدت للحدث ورتبت نتائجه.. وهذا شأن الأحداث الكبرى التى تخرج عن المألوف فى تاريخ الأمم.

.. فليس مألوفا أن يغتال رئيس دولة وسط عسكره وحرسه وحكومته وعلى مشهد من العالم أجمع.. حتى نكتفى من الحدث بسطحه الظاهر ثم نسارع إلى إغلاق ملفاته لنمضى بالسفينة فى هدوء على النهج نفسه.. بالأساليب نفسها ! !.

.. ولكن المألوف أن يستوقف حدث بهذه الأهمية والخطر كل باحث عن الحقيقة.. وأن يستحثه على البحث السليم وفى الإطار الصحيح.

.. والإطار الصحيح.. ليس فقط شخص الرئيس السادات ولا نظام الرئيس السادات.. بل تجربة الثورة بأكملها.. فالرئيس السادات لم يأت من فراغ ونظامه لم يولد من عدم.. بل كان سليلا لتجربة طويلة امتدت إلى عهدين.. ووريثا لتركة عظيمة فرضت وجودها على عصر بأكمله.

.. والإجابة الصحيحة لابد وأن تنطلق من هذا الإطار لتتبع الجذور والكليات التى أسدت منطق التجربة وتحكمت فى قادتها سلوكا وأسلوبا.. وأفرزت على تعاقب المراحل والعهود سلبيات خطيرة تراكمت على كافة مستويات حياتنا.. حتى أصبحت من طول التراكم والإهمال مصدر تأثير ضاغط على أداة الحكم.. وموضع توجيه لسياستها الداخلية والدولية.

.. ورغم دقة الإجابة وارتباطها الوثيق بتجربة الثورة.. فقد تعرضت حادثة المنصة لأكبر عملية سطو على الحقيقة.. وكان أبطالها هذه المرة.. هم أبطال كل مرة زيفت فيها الحقائق.. أو أخفيت عن الناس ليظلوا عالقين بمواقعهم.. بعيدين عن كل مساءلة أو حساب.. هؤلاء الأبطال هم جماعات المرتبطين بتجربة الثورة المستفيدين منها على اختلاف العهود.

.. فالساداتيون لا يرون حادثة المنصة إلا بمنظار الصدف البحتة.. فهى فى روعهم حادثة فردية أو معزولة تماما كحادثة اغتيال الرئيس كنيدى أو محاولة اغتيال الرئيس ريجان !!.

.. وبهذا التبسط الصريح المريح فسر الساداتيون الحادثة وسارعوا إلى قيدها فى خانة القضاء والقدر.. ليشيعوها من بعد إلى مقابر التاريخ!!.

.. "والناصريون" يرفضون بشدة هذا التفسير ويردون على أشقائهم فى التجربة بتفسير مضاد.

.. فحادثة المنصة ليست فردية.. ولا معزولة.. ولكنها حصاد عهد الرئيس السادات.. وثمن الخروج عن الخط الثورى الذى انتهجه الرئيس جمال عبد الناصر.. وما انتفاضة يناير عام ١٩٧٧م سوى إعلان عن بداية خريف الغضب ضد الرئيس السادات واختياراته السياسية!!.

.. وبهذا التفسير المبتور عن جذروه يقفز الناصريون فوق المراحل متجاهلين النظام الأم الذى جاء بنظام الرئيس السادات والمدرسة الأم التى تخرج فيها الرئيس السادات ليطالبوا بضرورة العودة إلى النهج

الثورى الذى تخطاه الرئيس السادات.. وأساليب "السلف الصالح" التى رفضها الرئيس السادات !!.

.. هذا التفسير المبتور.. يكشف بعض الحقيقة.. ولكنه لا يقدم كل الحقيقة.. بل يخفى جوهرها عن عمد وإصرار.. فخريف الغضب على حد تعبيرهم سبقه ومهد له ربيع كاذب رعته وروته من منبر الأهرام أحلام "الزعامة الملهمة" و "القيادة الحكيمة" و "القوة الضاربة".. وكانت نهاية هذا الربيع المورق بالأوهام والأراجيف يوم صفعة الهزيمة.. ومن يومها.. يوم الخامس من يونيو.. بدأت الجماهير تجتر غضبها.. من يومها بدأ خريف الغضب !!.

.. لقد أسقط الناصريون من حسابهم الهزيمة ومضاعفاتها وهم يفسرون حادثة المنصة.. ولم يتذكروا قط البداية الحقيقة لخريفهم الغاضب.. ولا المظاهر الشعبية لهذا الغضب إلا فى انتفاضة يناير ١٩٧٧م.. وتناسوا أول مظاهر الغضب الشعبى الكاسح ضد كل ما يمثله جمال عبد الناصر فى انتفاضات فبراير ١٩٦٨م بالقاهرة.. ونوفمبر ١٩٦٨م بالإسكندرية .

.. وما ذكره الدكتور " أباظة " من قوله إن الرصاص لا ينطلق هكذا بلا جذور ولا مقدمات.. وإن الذين أطلقوا الرصاص لم يهبطوا من السماء بل جاءوا من جماعة خرجت من صلب المجتمع هو قول لا يجافى الحقيقة، وإن كان صحيحا فإنه مردود عليه بأن الذى قتل الزعيم " ابراهام لينكولن" (Abraham Lincoln) (م. ١٢ فبراير

١٨٠٩م – ١٥ أبريل ١٨٦٥م) الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة من ١٨٦١م إلى ١٨٦٥م. الذى يعد من أهم رؤسائها على الإطلاق، إذ قامت فى عهده الحرب الأهلية الأمريكية بعد انفصال إحدى عشرة ولاية وإعلانها تكوين دولة مستقلة سمّيت الولايات الكونفدرالية الأمريكية، فتمكن لينكولن من الانتصار وإعادة الولايات المنفصلة إلى الحكم المركزى بقوة السلاح، كما كان "لينكولن" صاحب قرار إلغاء الرق فى أمريكا عام ١٨٦٥م. حضر لينكولن مع زوجته مسرحية فى "ماريلاند" يمثّل فيها مجموعة من المتعاطفين مع قضية الانفصال، فقام أحدهم، جون ويلكس بوث، بإخراج مسدسه وإطلاق النار فى رأس لينكولن فأرداه قتيلا.

.. هذا الذى قتله لم يهبط من السماء. !

.. وكذلك الذى قتل الرئيس جون كينيدى (يسمى أيضًا جون فيتزجيرالد كينيدى أو جون إف. كينيدى) رئيس الولايات المتحدة الخامس والثلاثون. وتوفى مقتولا فى ٢٢ نوفمبر، ١٩٦٣م فى دلاس، تكساس وقد اُتّهم "لى هارفى أوسولد" باغتياله.

.. لم يهبط هو الآخر من السماء؟! !

.. وكان كينيدى كما كان السادات رئيسا ديمقراطيا يتميز بشخصية إنسانية جمعت بين التدين والديمقراطية، والعقل الذى لا يخرج به عن محجة الصواب، وذرف عليه العالم الدموع وبكى عليه الجموع كما كان من العالم إثر مقتل الرئيس السادات.

.. والذى نراه ويراه الكثيرون وبحق أن السادات قد ورث عن سلفه الرئيس الراحل "جمال عبد الناصر" تركة محملة بالأثقال والهموم وبالمحن والإحن

.. وكان ذلك بسبب إقدام جمال عبد الناصر على مناصرة ثورات الشعوب التى كانت تتحرق شوقا إلى الاستقلال فمد عبد الناصر يد العون إليها بالقول أو بالفعل وغالبا بالثانية فى سبيل الحصول على استقلالها. مما كبد خزانة الدولة مالا عددًا

.. وارتآه البعض أنه كان مغامرا فى خوضه حرب اليمن وكذلك حرب الكونغو، وبيافرا حتى إن ثمة مُزحة ترددت على أفواه الشعب المصرى حال عرض فيلم " ثورة على السفينة بونتى " قالت المزُحة على لسان شعب مصر :

إن الجمهورية العربية المتحدة تؤيد ثورة السفينة بونتى ؟!

.. لقد اقتحم السادات ساحة الوغى بجيش مصر الوطنى الذى كان خالى الوفاض من الأسلحة الحديثة والمتطورة والتى كانت بالقطع فى يد إسرائيل.

.. وعلى مدى شهور طويلة سجل الأستاذ "أنيس منصور" فى كتاب " أوراق السادات" أن: السادات كان يئن من تقاعس الاتحاد السوفيتى عن مساعدة مصر بإمدادها بالسلاح المطلوب حتى تكون على أهبة الاستعداد لتحرير أرضها، واسترداد كرامتها.

.. وقد عانى جمال عبد الناصر من ذلك المسلك من الاتحاد السوفيتى تجاه مصر وتلكؤها فى هذا الخصوص، ومن ثم قبل مبادرة روجرز

الأمريكية لحل الصراع العربى الإسرائيلى وتعرض للسخط جراء ذلك، وإيقاع الأذى عليه بل سبه وقذفه من بعض القادة الفلسطينيين.

.. إذن فإن قدح الزعماء الوطنيين عادة أصيلة درج عليها بعض المصريين ولا نقول جلهم بخصوص قادتهم وزعمائهم ورثوها عن أجدادهم المصريين القدماء.

.. فلا ينسى التاريخ ما حدث مع "إخناتون" الذى كان أول من دعا إلى التوحيد فى مصر القديمة وكانت دعوته سببا فى انقلاب الكهنة عليه مع أنه نزع قناع الخوف والرهبة عن شعبه، وأظهر أشعّة الحقيقة بتعبّده للإله الواحد خالق السموات والأرض، ودعا شعبه إلى عبادة الإله الواحد المسمّى "آتون"، وإلى تركهم لعبادة إلههم "آمون" والآلهة التابعة له، بانصرافه للتأمّل فى الكون والخلق والطبيعة، وتركه لكلّ ما يتعلّق بالعظمة الحسّية والعالم الحسّى المادى، وما إلى ذلك من بذخ وملذات عبر دعوته إلى التوحيد الإلهى، ودمر من أتى بعده إلى الحكم آثاره مشوها إياها كما رأيناها ورآها غيرنا بادية للعيان على معبد الكرنك بالأقصر.

.. قلنا فى كتابنا خواطر قاض تحت عنوان تاريخنا. هل يكتب من جديد؟ إن زعماء مصر بدءا من أحمد عرابى قائد الثورة العرابية، ومصطفى كامل زعيم الوطنية، وسعد زغلول قائد ثورة ١٩١٩م، ومصطفى النحاس، ومحمد نجيب المصرى الوطنى الأصيل وأول رئيس لجمهورية مصر، وجمال عبد الناصر مؤمم شركة القناة وبانى السد العالى وقائد

الثورة الصناعية فى مصر، وانتهاء بمحمد أنور السادات قائد حرب أكتوبر المجيدة وبطل الحرب وبطل السلام.

.. فقالوا عنهم ما قاله " مالك فى الخمر "، فالأول كان يشطح فى حفل زار وهو يرتدى ملابسه الداخلية عشية معركة التل الكبير التى انتصر فيها الإنجليز على الجيش العرابى بالخديعة والخيانة، أما الثانى فهو عميل لتركيا والداعى إلى ضم مصر إلى آل عثمان، والثالث : انشغل فى عراكه مع الزعماء المصريين وركب قمة الموجة الثورية أى أنه كان انتهازيا، أما الرابع : فهو الزعيم الذى قبل أن يأتى إلى الحكم على ظهور الدبابات الإنجليزية عام ١٩٤٢م وإنه رئيس الوزراء الذى ذهب إلى الملك فى قصر عابدين ليقول له:

لقد أتيت إليك يامولاى أصالة عن نفسى ونيابة عن مجلس الوزراء لكى أقبل يدك الكريمة، أما الخامس فهو الذى أراد أن يعيد عصر الملكية لمصر كما ذكر أحد اللواءات الكبار لصحيفة مصرية، أما السادس فقد صبغ مصر بالشيوعية أو حاول فلم يفلح وحكمها بالحديد والنار وكان أشبه بكاليجولا الإمبراطور الرومانى الديكتاتورى الشرس ورموه بجنون العظمة وأنه جعل من مصر دولة كبيرة وجعل المصريين صغارا حتى إن كاتبا وطنيا هو الدكتور "محمود جامع" قد ذكر فى كتابه "عرفت السادات" ففى الصفحة الرابعة والثلاثين يقول:

أذكر أن عبد المنعم عبد الرؤوف، روى لى أنه جمعته بعبد الناصر غرفة واحدة على انفراد يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٢م بعد قيام الثورة

مباشرة وذلك فى مجلس قيادة الثورة، وأنه وجد عبد الناصر، وهو نائم ببدلته على كنبة من شدة الإرهاق.. وجده يهذى ويقول "أنا الملك وسأحكم مصر من قصر عابدين.. وأتخلص من جميع الزملاء.. وأنفرد بالحكم ".. وفكر عبد المنعم أن يخنق عبد الناصر ويتخلص منه.. ولكنه خاف الله.. وقال لى مازحا.. ليتنى خنقته.. وخلصت البلد من شروره؟!.

.. وأن عبد الناصر كان يريد أشخاصا مطيعين مريحين لا يسببون له المتاعب ,

.. أما أنور السادات فقد باع مصر لليهود.. وبدون وعود اللهم إلا اتفاقية كامب دايفيد التى هى وصمة الوصمات فى تاريخ أنور السادات! وأنه قد خان وطنه وداس على القضية الفلسطينية بقدمه؟!

.. نسى هؤلاء وأولئك أو الكل أنهم لم يقرءوا خطاب الداهية بسمارك فى مجلس نواب بلاده والذى قال فيه:

إن فرنسا تخيرنا بين أمرين لا ثالث لهم إما الحرب وإما الذل

كانت ألمانيا تتكون من ٤٠٠ إمارة متفرقة تقريبا، لكن أتى نابليون واختصرهم إلى ٣٨ ولاية. قرر بسمارك استخدام الدبلوماسية والعسكرية البروسية لتحقيق الوحدة, واستثنى النمسا من الاتحاد لرغبته فى أن تكون بروسيا هى أقوى الأعضاء وأكثرهم نفوذا فى الأمة المتحدة الجديدة. واجه بسمارك أزمة دبلوماسية حين مات فردرك السابع ملك الدنمارك فى نوفمبر عام ١٨٦٣م.

والذى كان لا يخشى من خوض حرب ضد فرنسا, فقد كان يؤمن أن الحرب معها ستؤدى إلى توحيد الإمارات الألمانية خلف قيادة ملك بروسيا.

.. متجها إلى استخدام مبدأ "حارب عدوك بسلاحه هو لا بسلاحك أنت".

.. ومات بسمارك فى ٣٠ يوليو سنة ١٨٩٨م عن عمر ناهز الثالثة والثمانين عاما، حيث دفن فى ضريحه المسمى ضريح بسمارك. وقد نقش على شاهد قبره الرخامى "الخادم الألمانى المخلص".

.. وهذا ما فعلته ألمانيا مع بسمارك .

.. أما ما فعله العرب مع السادات فقد كانوا يودون أن ينقشوا على رمسه

((هذا قبر أنور السادات الخائن المصرى الوطنى ؟! !))

.. ولم يكن السادات بعد أن امتدت إليه يد المنون بالمصرى الخؤون بل كان زعيما مصريا وقائدا ألمعيا قاد بلاده إلى النصر المبين.

.. قال عنه جمال عبد الناصر:

" إن شخصية أنور السادات لجديرة بالإعجاب.. خليقة بالإطراء.. فعبقريته العسكرية الممتازة.. وشجاعته.. ورباطة جأشه.. وإخلاصه وتفانيه فى خدمة المثل العليا.. إلى جانب قوة إرادته.. وتنزهه عن الغرض.. ورقة عواطفه.. وميله الغريزى للعدالة والإنصاف.. كل هذه الصفات جعلته أهلا للقيام بدور هام فى التمهيد لثورة ٢٣ يوليو والسير بها قدما فى سبيل النجاح"

.. انظروا إلى هذا الأسوانى الأصيل "عبد الباسط سعد ربيع" المحامى بمحكمة النقض وهو يقول لنا عن السادات :

" إن أنور السادات أعظم من حكم مصر فى تاريخها الحديث على الإطلاق وإنه كان رجلا عبقريا، وإنه لم يسعفه القدر بأن يسعد مصر، وأن يكمل مسيرته الوطنية فى سبيل خير مصر وإن هذا الرجل سبق عصره"

.. كان السادات إشعاع نور تراه فيبُهرك فإذا حاولت إدراجه حيَّرك

.. وكانت حياته فيما نرى لمح من النور ولفح من النار!

.. كان يبتغى الوسائل ويتغيا الأسباب فطرق جميع الأبواب الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية وكان هدفه قريبا بعيدا قربه لا يغنى عن بعده.. إذ كان يسعى للسلام القائم على العدل.. بيد أنه فشل فى مسعاه ولم ينجح فى مبتغاه، ومن ثم قرع أجراس الحرب مع إسرائيل.. بغية تحرير أرضه وصيانة عرضه الذى هو عرض الوطن من ربقة الاحتلال الصهيونى البغيض الذى تسلل إليها بليل ولجأ إلى الخديعة وأصاب الوطن بالوجيعة .

.. وكان هدفه بعيدا لا تراه الأبصار وإن تعلقت به البصائر انفض من حوله شريحة كبيرة من أبناء وطنه فهاجموه وتظاهروا ضده ورموه بأبشع التهم وأطلقوا عليه النكات تلو النكات التى كان هو بنفسه يتندر بها ويعيدها على أسماع زائريه والبسمة لا تفارق وجهه انفضت هذه الشريحة من حوله وتمادت فى غيها وإذ طلب منهم الصبر فما صبروا التمس تصديقهم له فما صدقوا مع أنه كان صادقا أمينا فيما يقول:

"بيد أنها طبائع الشعوب هى على عجلة دائما من أمرها وعلى رغبة عجلى للوصول إلى قصدها ".

.. وما استطاع السادات أن يأخذهم بنواصيهم إلى سنة الصبر على البلاء حتى يزول عنهم الابتلاء.

.. فألهبوا ظهره بسياط النقد اللاذع وتحدثوا عنه بالأسلوب الفاجع، ولكنه سار على درب الفكر هو الذى يمتطى دائما محجة الصواب، وآثر التريث حتى تطيب الثمرة وتسقط من فوق غصنها .

.. فكفى ما حدث فى حرب يونيه ١٩٦٧م من انهيار الدولة ودثورها.

.. كانت المعركة الشجاعة الهائلة التى خاضها جيش مصر أشبه بمعركة دير الجماجم التى يتحدث عنها التاريخ من خلال كثرة الجماجم التى خلفتها هذه المعركة وهى منطقة تقع بين البصرة والكوفة فى العراق، إذ كان الحجاج بن يوسف الثقفى واليا فى العراق ورغم تبعيته لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى فى ذلك الوقت،لكنه يتصرف فى العراق كحاكم مستقل تمام الاستقلال.

.. كان أحد القادة والشخصيات الفذة فى العراق على زمن الحجاج هو عبد الرحمن بن الأشعث الكندى،وقد وجهه الحجاج وكلفه بعدة مهام منه محاربة شبيب الشيبانى البكرى الخارجى، وولاه كذلك إمارة بلاد مايعرف بـ (سجستان) وهى شمال شرق العراق اليوم، وكان ابن الأشعث من القادة البارزين والزاهدين المتدينين.

.. وبسبب خلاف بينه وبين الحجاج خرج عليه وأعلن عصيانه سنة ٨٢هـ،والتف إليه أهل العراق الراغبين فىالتخلص من استبداد

الحجاج،إلا أن الحجاج وبعد سلسلة من المعارك الضارية هزم ابن الأشعث وقتله سنة ٨٣هـ وقتل مع من قتل من أهل العراق البارزين الشاعر عمران بن عصام العنزى والذى كان من أشد المخلصين لبنى أمية إلا أنه كان يكره الحجاج.

.. كان العدو الإسرائيلى كما يقول الشاعر:

قد أطـال هجـودا فى مضاجـع لهـوه
علـى تـرف والدهـر يقظـان ذو ألب
لقـد غـره أن الخطـــوب روابـــض
ولــم يــدر أن الليـث يربض للوثب

.. هذا الجيش الذى كانت إسرائيل تردد عنه أنه لا يقهر.. فقهره جيش مصر وأذله ومرغ جباه جنوده فى رمال سيناء، وتنفس المصريون الصعداء بعد عبور جيشهم الأبى لبر سيناء الشرقى الذى أسقط أحلامهم وضيع آمالهم وخيب رجاءهم.

.. فها هو السادات يعبر بجيشه أقوى وأمنع خط مائى دفاعى عرفه العالم وقبل خط ماجينو الذى كانوا يرونه كذلك.

.. كانت الأيام قبيل حرب أكتوبر تمضى ثقالا على حكمه، والناس قلقين وجلين يتساءلون :

هل يحقق السادات وعده ؟
وينجز حلمهم وحلمه ؟

.. كانت مصر آنذاك تعج بالشيوعيين والكارهين لشخص السادات والمستهزئين بقدرته على القيادة فقد خولطوا فى عقولهم وانتقلوا من الصياح والهتاف ضده لمحاولة الخروج عليه والثورة ضده، انغمسوا فى جهالاتهم واستمرءوا غيهم، وساروا فى ضلالاتهم حتى أفاقوا على صوت البشير وهو يزف إليه من النبأ العظيم.. فقد عبر جيش مصر المانع المائى المنيع، ورفع علم مصر على أرض سيناء.

.. ذات مساء بعد أن هل الليل طاردا من السماء شمس النهار فى شهر إبريل عام ١٩٤٤م، ولم تكن الحرب العالمية الثانية بعد قد وضعت أوزارها، وكانت معركة تونس، وجيوش الحلفاء متأهبة لإتمام المرحلة الأخيرة فى هجومهم التونسى، وردت إشارة إلى القيادة البحرية البريطانية فى «سوسة» من السير «أندروا كننجهام» القائد العام للقوات البحرية للبحر الأبيض المتوسط .

.. كانت فحوى هذه الإشارة أمرا "بأن تخرج ثلاثة زوارق طربيد " للقيام، بدورية فى النهار، حذاء ساحل شبه جزيرة رأس بون، وأن تفتح مسالك البحار فى تلك المنطقة.

.. وكان هذا هو الانتحار نفسه؟

.. إذ إن من المتفق عليه فى العلوم العسكرية أن هجوم الجيوش يجب أن يبدأ عندما يتنفس الفجر. وقبيل طلوع الشمس من خدرها

.. وهكذا بدأت حرب أكتوبر فى الساعة الثانية وأربع دقائق ظهرا، والغزالة تتوسط كبد السماء بما يغاير ما استقر عليه الأمر فى فقه هاتيك العلوم العسكرية، وكان هذا الميعاد بمثابة المغامرة ولا نقول المقامرة.

.. كان هذا بعد إعداد دقيق وحقيق بأن يمثل المباغتة التامة لإسرائيل.. "ولكن مع البغتة توفيق الإله"

.. كانت هذه أول حرب بين مصر وإسرائيل تبدأ فيها مصر بالهجوم الذى شل حركة إسرائيل، وأصاب فكر قادتها بالشلل فلم يكن فى الحسبان أن مصر تبدأ بهجوم على بلادهم ومن ثم لعبت هذه المباغتة دورا هاما فى إحراز مصر للنصر عليها ناهيك عن التعتيم الشديد الذى كان لدهاء السادات دورا أساسيا فيه.

.. كانت الصورة التقليدية التى ارتسمت فى أذهان العالم الخارجى عن العرب هو ما عبر أحد أساتذة علم الاجتماع فى جامعة كاليفورنيا إذ قال:

.. "يتميز العرب بالتخلف وعدم الأمانة والإحساس بالنقص والتصرف بأساليب بدائية تكاد تصل إلى حد البربرية وهم بطبيعتهم قدريون، كسالى، عديمو الطموح، متقلبو المزاج، مغرمون بالمؤامرات، ولا يعرفون من الحضارة سوى الصحراء والجمال والقادة الفاسدين والغوغاء الذين يصعب التنبؤ بالخطوة التالية لهم، وهم ضحايا التعصب. ويتصورون أن كل حروبهم حروب مقدسة".

.. وفجأة ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾

.. وعبر جنود مصر قناة السويس، واقتحمت خط بارليف، والخطوط التالية له ومحتها من على الأرض محوا، وأضحى يوم كيبور "عيد الغفران" يوما شؤما فى حياة إسرائيل وعارا ووبالا عليها.

.. ونجم عن ذلك انقلاب كامل شمل العالم من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه، واختلت جميع الموازين، وانطمست جميع المفاهيم، ووقف العالم برمته مبهورا من هذا النصر الساحق الماحق الذى من الله به على جيش مصر.

.. يقول الدكتور "محمود نجيب أبو الليل" فى دراسة له:

.. "فى الأيام الخمسة الأولى من شهر أكتوبر كان كل شىء هادئا فى العالم.. فعلى الصعيد الدولى أعلن مستشار النمسا "كرايسكى" قراره المثير بإلغاء مركز تجميع اليهود السوفييت المهاجرين إلى إسرائيل وتثور إسرائيل وتضغط أمريكا لإرغام كرايسكى على سحب قراره والرئيس السادات يرسل إسماعيل فهمى وزير الخارجية إلى فيينا لشكر كرايسكى ومناشدته الاحتفاظ بموقفه..

.. و "فيلى برانت" مستشار ألمانيا الغربية يعلن فى شيكاغو أن أسلوب حل أزمة الشرق الأوسط هو التفاوض المباشر بين مصر وإسرائيل، ووزارة خارجيته تعود فتنفى ما نسب إليه وتعلن أن ألمانيا مازالت تعتبر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ مناسبا لحل الأزمة..

.. والرئيس الأمريكى نيكسون يقرر بدء برنامج إجبارى لتوزيع وقود تدفئة المنازل بنظام الحصص، وذلك فى محاولة لتخفيف حدة آثار نقص الوقود خلال الشتاء..

.. والدولتان الكبيرتان تتقاربان وتتفقان.. ولا تباليان بما يعانيه العرب من ضيق ومرارة وتمزق، وتعلنان فى نوع من اللامبالاة بنا وبأمانينا عن ارتياحهما إلى الاسترخاء.. وهكذا بردت المواجهة بين الشرق والغرب.. وإسرائيل على الرغم من أنها ثارت لقرار كرايسكى،

وأخذت تبذل المحاولات المستميتة لإرغامه على سحب قراره، فإنها راحت تقيم الاحتفالات بالعام العبرى الجديد، وتستعد ليوم التكفير " يوم كيبور ".

.. والعلماء والمهندسون السوفييت يتدفقون على إسرائيل حتى بلغ عددهم ثمانمائة عالم خلال ثلاثة أشهر.. وساستها يعتقدون أن فرص السلام مازالت بعيدة.

.. وفى الوقت نفسه كانوا يؤمنون بأن فرص الحرب قد أضحت مستحيلة.

.. وهاك صورة ننقلها للقراء كما سجلها المراسل الحربى والمذيع المصرى الأستاذ "حمدى كنيسى" الذى قدم فى أثناء الحرب برنامج "يوميات مراسل حربى" مسجلا ذلك فى كتابه القيم "الساعة ٢,٠٥ بدأ.. الطوفان" لما أصاب قادة إسرائيل بعد أن خيم عليهم الهم، واعتورهم الغم، وكانوا حيارى لا يدرون ماذا يفعلون فقد تلقى أحد الجنود الإسرائيليين رسالة تقول بصوت متلعثم مرتبك :

.. " إن قوات الكوماندوز المصريين توغلت فى العمق، وتقوم بمهاجمة أهداف منطقتنا هذه! !"

.. وكان الجنرال " شموئيل جونين " قائد القوات الإسرائيلية فى جبهة سيناء، مجتمعا مع ضباط القيادة فى غرفة العمليات، لمناقشة عملية الصد والهجوم على القوات المصرية التى تواصل عبورها إلى سيناء، وتحاصر وتحتل عددا من النقاط الحصينة من خط بارليف.

.. أغمى على الدندى الإسرائيلى بعد أن سمع هذه الإشارة سقط مغشيا عليه .

.. وساد القلق وعم الارتباك غرفة عمليات القيادة. وسارع جونين وضباطه إلى الإمساك بأسلحتهم الشخصية فى أيديهم.. ولم يتخلوا عنها طوال الاجتماعات.

.. وفى منطقة أخرى كان أحد القادة الإسرائيليين (الجنرال كالمان ماجن) يصرخ فى جهاز اللاسلكى : " إن الكوماندوز المصريين يدخلون إلى سيناء من كل مكان.. وبكل وسيلة، إنهم يأتون من الجو.. ومن البحر.. وعلى الأقدام.. إن هذه القوات تقاتل بشراسة وهى مسلحة بأحدث الأسلحة.

.. وفى الساعة ١١,٣٠ من صباح الأحد ٧ أكتوبر ١٩٧٣م.. كان الجنرال موشيه ديان وزير الدفاع الإسرائيلى فى الهليوكبتر متجها إلى مقر قيادة جبهة سيناء عندما تلقت غرفة عمليات القيادة إشارة أخرى عن ظهور وحدات من قوات الكوماندوز (الصاعقة) المصريين فاتصل به الجنرال جونين فى الجو وقال له :

.. "لاتهبط بالطائرة.. على الأقل لا تهبط بها فى هذه المنطقة.. فالكوماندوز المصريون منتشرون هنا الآن !!"

.. وأصدر ديان أوامره السريعة لقائد الطائرة بتغيير الاتجاه والبحث عن مكان آخر يكون الهبوط فيه مأمونا!! وعندما آب من رحلته هذه كشف فيلم "وثائق إسرائيل" عن شدة الصدمة التى أصابت قادة الجيش الإسرائيلى فى اليوم التالى من اندلاع حرب ١٩٧٣م إذ سجل هذا الفيلم

وأزاح الستار عن تسجيل صوتى لجانب من المناقشات التى دارت داخل غرفة قيادة الجيش الإسرائيلى فى يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٧٣م ويظهر وزير الدفاع الإسرائيلى وقتها "موشيه ديان" فى هذا التسجيل الصوتى وهو يتحدث بحزن وأسى بعد أن عاد لتوه من جولة بمروحيته العسكرية ليشهد حال جنوده على الجبهتين المصرية والسورية، وكشف الفيلم الذى نشرته صحيفة "يديعوت أحرونوت" مقتطفات منه اقترح فيها ديان انسحاب الجنود الإسرائيلين من مواقعهم للنجاة بأنفسهم ووقف الخسائر الإسرائيلية عند هذا الحد، واقترح إقامة خط دفاعى فى العمق الإسرائيلى معربا عن خوفه من أن يقوم الجيش المصرى بتدمير إسرائيل تماما وهدم ما يعرف بالهيكل الثالث وقال "دايان" لرئيس أركان الجيش ديفيد إليعازر: أعتقد أنه عندما يحل الظلام ينبغى أن أصدر أمرا للجنود بأن يستخدموا أسلحتهم الشخصية فقط، واللى يموت يموت، والجرحى اللى هيفضلوا يروحوا الأسر (أى يسلمون أنفسهم للجيش المصرى) {المصرى اليوم ٢٠١٣/٩/١٠}

.. أما "مورد خاى" يجلس على برج المراقبة فى التحصين المطل على جسر الفردان، عندما سمع فجأة، هديرا يصم الآذان ويزداد قوة وعنفا. لقد مر عن يساره سرب كبير من الطائرات المصرية النفاثة منطلقا داخل سيناء على ارتفاع يكاد يصل إلى ارتفاع الكثبان الرملية.

.. لم ير "موردخاى شيئا على سطح القناة.. ولكن فجأة.. وفى لحظات خاطفة، امتلأت المياه أمامه بعشرات القوارب التى تحمل الجنود المصريين المسلحين، وهى تجدف عابرة القناة من الغرب إلى الشرق.

.. قال مردخاى لنفسه "ماهذا؟" إنه منظر لا يصدق.. المصريون يعبرون القناة.

.. ولم يكد "مردخاى" ينهى تساؤله (لنفسه) حتى تلقى برج المراقبة الذى يجلس عليه، قذيفة من غرب القناة. ولحسن حظه لم يسقط به البرج، ولكنه وجد نفسه معلقا بما تبقى له من قوة بالإفريز الحديدى الذى كان قد ركز عليه المنظار المكبر.

.. وشاهد مردخاى مذعورا عشرات الجنود المصريين يقفزون على الحواجز، ويركضون على الرمال المنبسطة أمامه، ثم يقتربون من أسوار الحصن ويدسون تحت لفائف الأسلاك الشائكة أنابيب سوداء مستطيلة قذفت سحبا من الدخان، ووهجا من النيران، وأعمدة من الرمال. ولم يدرك ـ لسبب ما ـ لماذا كانت المشاهد التى تدور أمامه صامتة تماما.

.. لقد كان يخيم صمت مخيف. ولكن يبدو أنه سادت من حوله ضوضاء هائلة. رجال يركضون ويلوحون بأذرعتهم. ورخات رصاص تنطلق من المواقع. كل ذلك يحدث لكنه مازال لايسمع شيئا. ولم يعرف مردخاى ماذا جرى له إلا بعد أن تمكن من الوصول إلى الحصن حيث أدرك أنه قد أصيب بالصمم نتيجة إصابة القذيفة للبرج، كما أنه اكتشف أن أجزاء من لحم ساقه قد تمزقت .

.. فقد عبر المصريون بكل وسائل القتال على خط المواجهة والذى يبلغ طوله ١١٠كيلو متر مجهزة بمرابض الدبابات بلغت ثلاثمائة دبابة وكان عدد الحصون ٢٢ حصن منيع تمتد من باطن الأرض حتى أعلى الساتر الترابى محصنة تحصينا منيعا بكتل جراناتية وقضبان سكك حديدية.

.. كما ثمة خط تحصينات ثانٍ على مسافة من ٥ إلى ٨ كيلو مترات تضم ١١ موقعا حصينا.

.. يقول المشير "محمد عبد الغنى الجمسى" هذا القائد الفذ:

"إن العلماء والقادة العسكريين العالميين قالوا عنه إنه خط دفاعى كامل التحصين جعل من قناة السويس حالة فريدة فى التاريخ العسكرى".

.. كانت الليلة هى ليلة الموت لجنود إسرائيل.. الموت الزؤام، وكأن لسان حالهم يردد مقطوعة " جبران خليل جبران " الشعرية :

فـــى ظـــلام الليـــل يـنـــادى بعضُنـــا بعضًـــا
فـــى ظـــلام الليـــل نصـــرخ ونســـتغـيـــث
وخيـــالُ الـــموت منتصـــب فـــى وســـطنا
وأجنحتُـــه الســـــوداء تُخَيِّـــــم علينـــــا
ويـــدُه الهائلـــة تجـــرف إلـى الهاوية أرواحنا
أَمَّا عيناه الملتهبتان فمُحَدِّقتان إلى الشفق البعيد
فـــى ظـــــلام الليــــل يســــير الــــموت
ونحـــن نســـير خلفـــــه خائفيـــن منتحبين
وليـــس بيننـــا مـــن يســـتطيع الـوقوف
ولـــيس فينـــا مـــن لـــه أمـــل بالوقـــوف
فـــى ظـــلام الليـل يسير المـوت ونحـن نتبعه
وكلَّمـــا التَفَـــتَ إلـــى الـــوراء يســـقط منـا ألـف

إلـــــى جــــــانِبَـــــى الـطـــــريــــق

ومـــن يســــقط يــــرقـــد ولا يســـــتيقـظ.

ومن لا يسقط يسر قسر إرادته عالِمًا بأنه سيســقط

ويـــــرقَد مــــع الـــــذيـــن رقــــــدوا

أما المــوت فيظل ســائرًا محدِّقًا إلى الشفق البعيد

.. فت فى عضد جنود إسرائيل الخذلان. ونال منهم الحدثان. فلم تعد لهم قومة، واستكانوا فقد لفظتهم رمال سيناء أو هى ألقتهم على أديمها مجندلين أو منكسى رؤوسهم كالجبناء بعد أن ارتوت أرض سيناء بدماء أبناء مصر مثل البطل الفذ اللواء "إبراهيم الرفاعى"، ورفاقه الشهداء العظام.

.. كان الماضى بالنسبة لمصر هو البداية لنصر أكتوبر .

.. فقد كانت مصر آنذاك كشخصية "هاملت" الذى صوره "شكسبير" فى رائعته المسماه باسم هذه الشخصية والذى أضحى شابا بائسا ممزقا يائسا ضل منه الطريق.

.. يقول "ولز Wales" الكاتب الإنجليزى:

.. " ليس الماضى سوى بداية البداية ، وكل ماهو كائن الآن، وما كان موجودا من قبل ليس سوى بشائر الفجر الجديد"

.. ولقد ظهرت البشائر وبزغ ضوء النهار على أرض سيناء على يد جنود مصر الأبرار بحرب أكتوبر الرائعة التى سجلت فى التاريخ الحربى أنها من أروع وأخطر معارك التاريخ قاطبة إذ إنها قامت على العلم الحديث والتكنولوجيا المتطورة والأسلحة التى لم يعرف لها

العالم مثيلا من قبل، ويكفى الدلالة على ذلك أن الأقمار الصناعية الأمريكية قد التقطت ثغرة الدفرسوار و هيأت لإسرائيل التسلل منها إلى الأراضى المصرية ولم يكن للقائد البطل سعد الشاذلى يدا له فيها .

.. وإذا كان الشاعر أى شاعر قد دأب على البوح بأشعاره بخصوص ما يمر بوطنه من أفراح أو أتراح أو محن أو إحن فقد عبر الشاعر عما مر بمصر من خوضها الحروب تلو الحروب في سبيل حريتها واستقلالها وطرد المحتل الغاصب من أرضها فقال:

ونسـاء فـى دروب صـائحات نـائحـات
يا أخى فى مصـر لا تنسـى لثالـوث لعيـن
وجيـوش سـافلات سـاقها حقـد دفيـن
سـاقهـا شـوق لقتـل الأبـرياء الآمنيـن
وأتـونا فـى ظـلام فـإذ هم سـاهـرون
يا أخى فى مصر ـ جدَّد ذكر موقفك المجيـد
ذكـر شعـب حطـم الأغلال والقيد العتيد
ذكر جيل يضرب الأمثـال للمجـد التليـد
ذكـر مـن هبـوا وقالوا نحن لسنا بالعبيد
ذكـر أحـرار تحـدوا قـوة الغدر العنيد

.. كما قال الشاعر بخصوص الفترة التى سبقت حرب أكتوبر :

لمـاذا اختفـى الضحك من البلاد   لمـاذا حـل محله العويل والبكاء

.. وقال الشاعر الأستاذ " فاروق جويدة " :

لـم يبـقَ شـيءٌ لنـا من بعدِ ما غربت
شمـس الرجـال. تساوى اللصُّ والبطلُ
لم يبقَ شـيءٌ لنـا مـن بعدِ ما سقطت
كل القـلاع. تسـاوى السّـَفحُ والجبـلُ
عمـرى همـوم وأحـلام لنـا سـقطت
أصابهـا اليـأس.. والإعيـاء ..والملـل
يا أيهـا العمـر رفقـا كـان لى أمـل
أن يبـرأ الجـرح.. لـكن خاننـى الأمل
ففى خيـالى شمـوخ عشـت أنشـده
صـرح تغنـت بـه أمجـادنا الأول
لكنـه العـار يـأبـى أن يفارقنـا
ويمتطـى ظهـرنـا أيان نرتحـل
عار على الأرض كيف الرجس ضاجعها
كيف استوى عندها العنين.. والرجل؟
يا أيهـا الجـرح نـار أنت فى جسدى
وجرحنـا العار كيف العـار نحتمـل؟

.. هكذا كان حال مصر إبان حرب ١٩٦٧م، وجاءت حرب الاستنزاف التى قادها باقتدار الزعيم الراحل "جمال عبد الناصر" لتعيد إلى مصر وجيش مصر ثقته بنفسه.

.. مضى السادات بعد انتهاء الحرب، وفصل القوات المتحاربة كما هو معروف ومعلوم، فى طريقه نحو السلام بعد أن أجبر العالم على احترام مصر وتقدير جيشها.

.. كان يستشعر السادات الألم الدافين جراء الهجوم الضارى عليه، وأحس بعدها بدنو أجله، وكان يكرر دائما على مسامع زوجته السيدة جيهان السادات أنه فى طريقه إلى الأخرة، ولما كانت تعتب عليه ترداده لهذه العبارة يقول لها بالحرف الواحد :

.. " إن الموت حتما إذا أتى.. فسوف يأتى! "

.. فى كتاب الدكتور "ناى" "السلوك الإنسانى" ذكر فيه :

.. "أن (فرويد) له مقولة "غريزة الموت" فى كتابه "ماوراء مبدأ اللذة" أكد فيه وبشدة زائدة علة أن الإنسان يولد ومعه غريزة الموت وأن هذه الطاقة المكبوتة ستتمكن من الإنسان مما يؤدى إلى نهايتها فإنه يستنفذ الفرد الليبيدو "طاقة غرائز الحياة " حينئذٍ تستطيع الطاقة التدميرية أن تأخذ طريقها وتقضى على الإنسان ".

.. فهل استنفذ السادات بعد أن اطمئن على خروج إسرائيل من مصر طاقة غريزة الحياة؟.

.. فكان دائم الحديث عن الموت.. ورفض تماما ارتداء القميص الواقى من الرصاص مع إصرار زوجته السيدة " جيهان السادات" على إرتدائه وقال لها القولة التى سبق ذكرها.

.. "إن الموت عندما يأتى فسوف يأتى"

.. وكأنه يردد قول الشاعر:

مـــازلـــت مـــرتقبـــا إلى العلياء حتـــــى بلغـــت ذرى الجـــوزاء
فهناك لا ألوى على من لامنـــى خوف الممات وفرقة الأحيـــــاء

.. جاء فى كتاب "أسرار السادات" للكاتب "توحيد مجدى" تحت عنوان "تقرير فنانة مصرية عملت جاسوسة للموساد كان السبب فى هزيمة ١٩٦٧م":

.. "الهزائم مصائب تولد مفجعة ثم تتلاشى أمام عظمة الجيوش والشعوب والأمم، هكذا تثبت وثائق مستندات أسرار الرئيس الراحل "محمد أنور السادات" المحفوظة لدى البيت الأبيض فى ملف نكسة يونيو ١٩٦٧م.

.. لنبدأ القصة من البداية ففى بداية صيف عام ١٩٧٢م كان السادات قد أصبح صديقا مقربا للرئيس الأمريكى "ريتشارد نيكسون" الذى شغل المنصب بداية من ٢٠ يناير ١٩٦٩م حتى استقالته بسبب فضيحة "واترجيت" فى ٩ أغسطس ١٩٧٤م.

.. فى الواقع كان الرئيس الأمريكى "ريتشارد نيكسون" يدرك ويحترم حساسية موقف السادات السياسى والاستراتيجى والمعاهدات العسكرية الموقعة بين بلده وبين الاتحاد السوفيتى الذى اضطره أن يوقع معه اتفاقية ملزمة للصداقة والتآخى فى ٢٧ مايو ١٩٧١م.

.. راهن "ريتشارد نيكسون" على حقيقة شخصية السادات وأكد لهم أنه سينجح فى كسب وده وثقته وأن السادات سيوافق فى النهاية على الانضمام للمعسكر الأمريكى الغربى.

.. فى أوراقه سجل نيكسون أنه فى سبيل تحقيق هذا الهدف طلب من الإدارة الأمريكية أن تتعامل مع السادات على أنه حالة " رجل عظيم "، إذا شعر باحترام المحيطين به وصدقهم فإنه سيقدم ما لم يتوقعه أحد من قبل وربما صدق فيما سجله.

.. اعتمدت سياسة نيكسون مع الرئيس السادات على مبدأ المكاشفة وكان الرئيس الأمريكى يعلم أن عيون السوفييت فى كل أركان النظام المصرى تراقب السادات بل تحسب عليه أنفاسه.

.. لذلك فكر نيكسون أن يرسل للسادات "هنرى كيسنجر" رجل ثقته ومستشاره للأمن القومى بداية من ٢٠ يناير ١٩٦٩م وحتى ٣ نوفمبر ١٩٧٥م مع العلم أن كيسنجر شغل فى فترة لاحقة منصب وزير الخارجية بداية من ٢٢ سبتمبر ١٩٧٣م وحتى ٢٠ يناير ١٩٧٧م.

.. تكشف المستندات السرية الأمريكية كما أثبت صاحب كتاب: أسرار السادات أن الرئيس الأمريكى " ريتشارد نيكسون " عندما تولى الرئاسة الأمريكية بداية من ٢٠ يناير ١٩٦٩م اعتمد على فريق خبراء نفسى من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كلفهم بدراسة شخصيات الزعماء والرؤساء بالعالم من أجل وضع كتيبات تعامل نفسية مع كل منهم.

.. أما الرئيس السادات فقد كانت عملية تحليل شخصيته مهمة شاقة استغرقت من فريق الخبراء الأمريكى عملا دؤوبا لمدة عامين نجحوا بعدها فى وضع كتيب نفسى معقول أمكن لنيكسون عن طريقه معرفة مفاتيح شخصية السادات وطريقة اكتساب وده وثقته واحترامه.

.. الملفت أن دراسة شخصية الرئيس السادات أكدت أنه " إنسان رقيق المشاعر طيب القلب حازم ومناور لا يمكن التنبؤ بما سيفعله بعد دقائق " وهو ما دفع نيكسون أن يركز خطته فى التعامل معه على أساس الصدق وأمانة المعلومات التى كان السادات يحتاجها بشدة كى يتمكن من تحصيل ما خفى عنه سياسيا فى خريطة بلاده والمنطقة برمتها.

.. هنا تحكى وثائق أسرار السادات أن الرئيس الأمريكى علم من فريق الخبراء النفسيين أن السادات شخصية تعشق التعلم وأنه كان يبحث طيلة حياته على العلم والمعرفة.

.. فقرر نيكسون أن يدخل إليه من هذا الباب فكان يرسل مستشاره للأمن القومى "هنرى كيسنجر" بملفات المعلومات التى كان يحتاجها السادات من آن لأخر ودون أن يحجب عنه إلا ما يضر بمصالح الولايات المتحدة الأمريكية.

.. طبقا للمستندات الأمريكية كانت معظم الملفات عن حقائق وقعت فى الماضى كان السادات يسعى لفك طلاسمها ولذلك لم يخف نيكسون أن يكشفها له مقابل صداقته وثقته بالإدارة الأمريكية أما على الجانب الشخصى والإنسانى فكان نيكسون يعتبر السادات شخصية تاريخية لن تتكرر.

.. فى بداية إبريل ١٩٧٢م أرسل الرئيس نيكسون للقاهرة "هنرى كيسنجر " مستشاره للأمن القومى ليقابل الرئيس السادات كى يناقش معه عددا من النقاط الهامة فى العملية السياسية المتعثرة بالمنطقة وفى نقس الوقت حمله ملفا خاصا "سرى للغاية" عن أسرار حرب يونيو

١٩٦٧م كان نيكسون قد نوه للسادات عنه فى محادثة هاتفية بينهما وظل السادات يطلبه بالاسم.

.. وطبقا لوثائق أسرار السادات هدف نيكسون يومها تسهيل مهمة كيسنجر بالقاهرة وكان الملف السرى بمثابة هدية معلوماتية للسادات ستكشف له مفاجآت خطيرة فى ماضى بلاده أهمها أن سبب نكسة يونيو ١٩٦٧م كان فى وحدة رادار روسية الصناعة من طرازه بى -١٠.

.. هذا الرادار الغبى كان عبارة عن وحدة كشف ومسح الكترونية جوية محملة على شاحنة عسكرية صغيرة الحجم كان المفترض أنها من أعظم ما انتجته الصناعات العسكرية الروسية وقتها سلمتها وزارة الدفاع الروسية إلى الجيش المصرى بداية من عام ١٩٦٦م.

.. وكانت تلك الوحدة طبقا لكتيبات تشغيلها تكشف أى جسم جوى مهاجم فى محيط يتعدى الخمسين كيلو مترا مربعا وتعاقدت مصر يومها على ١٠ وحدات كانت تكفى تغطية جبهة المواجهات العسكرية المعروفة آنذاك بين مصر وإسرائيل على طول ١٧٥ كيلو مترا.

.. فى الحقيقة أثار ذلك الملف عند السادات ذكريات حضرها بنفسه على الهاتف من القاهرة حيث كلفه الرئيس عبد الناصر بمتابعة الوفد المصرى الرفيع الذى زار موسكو عام ١٩٦٦م لاستلام الوحدات دون أن يعرف السادات خفايا الزيارة أو سببها الحقيقى.

.. ففى صيف عام ١٩٦٦م أقامت وزارة الدفاع الروسية فى موسكو حفلا مصريا، معيبا حضره الزعيم الروسى "ليونيد بريجينيف" الذى

شغل منصب رئيس الاتحاد السوفييتى من ١٤ أكتوبر ١٩٦٤م وحتى ١٠ نوفمبر ١٩٨٢م.

.. كما حضره معه "أندريه جريشكو" وزير الدفاع الروسى من ١٢ إبريل ١٩٦٧م وحتى ٢٦ إبريل ١٩٧٦م وكان بين الحاضرين وزير الخارجية الروسى "أندريه جروميكو" الذى شغل المنصب من ١٤ فبراير ١٩٥٧م وحتى ٢ يوليو ١٩٨٥م وبالقطع لم يغب عن الحفل " يورى أندروبوف " رئيس المخابرات الروسية من ١٨ مايو ١٩٦٧م وحتى ٢٦ مايو ١٩٨٢م.

.. ولأن الحفل أقيم لتوقيع التعاقد النهائى وتسلم الوحدات فقد دعت وزارة الدفاع الروسية من الجانب المصرى يومها المشير "عبد الحكيم عامر" وزير الحربية والقائد العام للجيش المصرى من ١٩٥٦م وحتى ١٩٦٧م والمعروف أنه انتحر عقب الهزيمة فى ١٤ سبتمبر ١٩٦٧م، وقد كان بصحبته "صلاح نصر" رئيس جهاز المخابرات من ١٩٥٧م وحتى عام ١٩٦٧م.

.. وفى الحفل الذى كان سرا قوميا روسيا تسلمت مصر أول وحدة من الرادار الروسى "بى - ١٠" الذى وافق الرئيس الروسى ليونيد بريجنيف على توريدها إلى الرئيس "جمال عبد الناصر" عقب مفاوضات مضنية وشاقة.

.. فى الحفل كما هو مسجل أبهر الخبراء العسكريون الروس الحاضرين من الجانب المصرى عند تجربة وحدة الرادار الجديد لدرجة

دفعت عبد الحكيم عامر أن يؤكد للرئيس جمال عبد الناصر عبر الهاتف من موسكو أن العصفورة لن يمكنها أن تخترق حدود الرادار الروسى "بى - ١٠".

.. فى الواقع تثبت الوثائق التى حصل عليها الرئيس السادات يدا بيد من كيسنجر فى إبريل ١٩٧٢م بالقاهرة أن تلك الوحدة كانت السبب الفعلى وراء قرارات الرئيس جمال عبد الناصر الـ ٦ التى أدت لهزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧م ومنها إخلاء سيناء من المراقبين الدوليين وغلق قناة السويس ومضايق تيران وتحريك القوات والقطع الحربية لقد وثق عبد الناصر بقدرة تلك الوحدة الأسطورية من الرادار الروسى وقدرتها على كشف الطائرات الإسرائيلية حتى قبل إقلاعها من مطاراتها .

.. وبالتأكيد لم يتوقع الرئيس عبد الناصر يومها أن جملة واحدة مشفرة جملة السيدة سيئة السمعة التابعة لصلاح نصر فى القاهرة كان محتواها : " الرادار الروسى أعمى تحت ٥٠٠ متر" ستكون سبب نكسة ٦٧ وتفاخر إسرائيلى زائف بقوة وهمية غير حقيقة.

.. التفاصيل كما وقعت تكشف أن الزمان كان أحد ليالى عشر مايو صيف ١٩٦٧م أما المكان فهو شاليه يملكه صلاح نصر فى منطقة " صحارى سيتى " بالقرب من هضبة الأهرامات فى الجيزة.

.. وما توفر من معلومات يؤكد أن الفنانة المصرية التى اصطحبها صلاح نصر ليلتها فى ذلك الشاليه كانت ضمن عدد آخر من السيدات استغلهن صلاح نصر فى عملية جنسية شاذة فى إطار عمليات الكنترول والسيطرة المخابراتية على عناصر أجنبية ومحلية.

.. التفاصيل تكشف أن تلك الفنانة كانت قيادية فى شبكة أنشأها صلاح نصر حيث أوكل لها تجنيد وتدريب السيدات الأخريات على فنون الجنس والشذوذ بين النساء وأنها كانت أشبه بالقوادات ،وقد كانا فى تلك الليلة على موعد روتينى بينهما لتبادل الغرام والمعلومات التى تجمعها هى من النساء اللائى تعرفهن فى المجتمع المصرى.

.. فى الواقع مثبت بوضوح أن صلاح نصر كان يجهل تماما ميل تلك الفنانة المصرية لحساب الموساد وتشير الوثائق إلى أنه كان لا يكشف عادة عند بداية تجنيده واختياره للسيدات فى مجموعته إلا عن ألوان ملابسهن الداخلية ولذلك لم يتمكن من كشف عمالتها لإسرائيل.

.. خلال أحداث تلك الليلة الساخنة وفى لحظة ما، رن جرس الهاتف فطلبت منه الفنانة الجاسوسة أن لا يرد لكنه أكد لها أنه لن يأخذ سوى دقيقة لأنه ينتظر تليفونا هاما وكان حظها أن تتعثر فى أغلى معلومة أرسلت لإسرائيل من مصر منذ بداية انقلاب الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م وحتى تلك الليلة الغريبة .

.. على الهاتف كان القائد العام للجيش " عبد الحكيم عامر " وقد كان صوته مرتفعا فى حديثه مع صلاح نصر ولذلك كانت الجاسوسة تسترق السمع جيدا وهى مستندة بخنوع على صدره قريبة من السماعة بينما عامر على الطرف الآخر لا يدرك ما يحدث على فراش صلاح نصر يسب ويلعن وزارة الدفاع الروسى بدعوى أنها ضحكت على مصر وسلمتها رادارا غبيا لا يرى تحت ٥٠٠ متر.

.. طبقا لمعلومات الوثائق الأمريكية كانت الجمل واضحة للغاية والمفاجأة مدوية.. المفاجئة كشفها أحد الطيارين المصريين المدربين فى الاتحاد السوفيتى ويدعى "محمد حسنى مبارك" ـ وكان قد وقع فيها عن طريق الصدفة وهو يجرب رد فعل واستجابة الرادار الجديد وفى نهاية الحوار طلب عبد الحكيم عامر من صلاح نصر الذى كان متوترا أن يوافيه فورا فى مكتبه.

.. بينما صلاح نصر يعتذر عن إفساد الليلة ويرتدى ملابسه ليلحق بعبد الحكيم عامر كانت الجاسوسة ممددة على الفراش لا تريد أن تستر جسدها الذى كان سببا فى التقاط أذنيها أغلى معلومة فى تاريخ الحروب بين مصر وإسرائيل وبعدها بساعة واحدة كانت الكلمات الست قد وجدت طريقها إلى تل أبيب حتى قبل أن ينهى عبد الحكيم عامر اجتماعه مع صلاح نصر.

.. وفى الواقع ما تم بينهما فى اللقاء كان من اليسير على المخابرات المركزية الأمريكية أن تتوقعه فقد قرر الاثنان يومها إخفاء الموضوع عن الرئيس "جمال عبد الناصر" وتلقين الطيار المصرى المذكور حتى لا يفتح فمه خشية أن يدفع أحدهما منصبه ثمنا للمشكلة بعد أن كانا مسئولين معا عن التعاقد على هذا الرادار بعقد ملزم طويل المدة.

.. بالقطع يمكننا أن ندرك بوضوح سر شجاعة إسرائيل فى مهاجمة المطارات المصرية والعربية فى صباح ٥ يونيو ١٩٦٧م فببساطة لم يتطلب الهجوم الجوى الإسرائيلى إلا رسم مسار جوى منخفض فوق مستوى سطح البحر وخلال الجغرافيا المستوية فى سيناء.

.. وقد طارت يومها الطائرات الإسرائيلية المهاجمة فى خطوط مستوية متعرجة على ارتفاعات لم تتخط حاجز الـ ٤٥٠ مترا فوق سطح البحر أو الأرض وقبل أهدافها كانت تظهر فجأة فى شكل مباغتة هجومية ضد الدفاعات الأرضية المصرية والباقى سجلته أوراق تاريخ عدوان هذا اليوم.

.. وللحقيقة كما سجل "هنرى كيسنجر" فى أوراقه الشخصية كان السادات متألما للغاية لأنه تذكر أن إسرائيل نفذت بعدها فى ليلة ٣١ أكتوبر ١٩٦٨م عملية مشابهة هاجمت فيها جسر مدينة قنا ونجع حمادى بصعيد مصر.

.. كما تذكر عملية أخرى نفذتها بعدها فى ليلة ٢٦ ديسمبر ١٩٦٩م عرفت فى سجل العمليات الإسرائيلية بعملية (الديك الرومى – ٥٣) هاجمت فيها القوات الإسرائيلية الخاصة شواطئ مدينة رأس غارب المصرية الغريبة من البحر الأحمر ونجحت يومها فى رفع وحدة رادار روسى من نفس أسرة الرادار الأول لكن طراز " بى –١٢ " وذلك بواسطة الطائرات الأمريكية الصنع من طراز " سيكور سى –٥٣ " العمودية العملاقة التى كانت تجرب لأول مرة يومها وكان حزن السادات أن أحدا من القادة فى القاهرة لم يهتم لتأمين ذلك الرادار ولم يفهم خطورة ما حدث منذ البداية.

.. وتكشف الوثائق أن السادات بعد أن أتم قراءة الملف الأمريكى السرى شكر "هنرى كيسنجر" وطلب منه أن يشكر الرئيس "ريتشارد نيكسون" عند يعود وعندما سأله كينسجر عن السبب ابتسم وصمت.

.. طبقا للأحداث المسجلة فقد كان القرار الذى اتخذه السادات بذكاء وقام فى ١٨ يوليو ١٩٧٢م بطرد الخبراء الروس من مصر قرارا عبقريا، متسقا مع خطة الخداع الاستراتيجى الكبرى التى صرفت نظر العالم عن أنه يفكر فى الحرب ثانية، وقد نجح السادات فى الضغط على الروس حتى قدموا له فى مارس ١٩٧٣م صفقة أسلحة كبرى اعتمد عليها فى بدء حرب أكتوبر ١٩٧٣م.

.. مصطلح الاستراتيجية يعد من المصطلحات القديمة المأخوذة من الكلمة الإغريقية **Strato** وتعنى الجيش أو الحشود العسكرية، ومن تلك الكلمة اشتقت اليونانية القديمة مصطلح **Strategos** وتعنى فن إدارة وقيادة الحروب.

.. وهى كذلك تعنى أصول القيادة الذى لا اعوجاج فيها، فهى تخطيط عال المستوى، فمن ذلك الاستراتيجية العسكرية أو السياسية التى تضمن للإنسان تحقيق الأهداف من خلال استخدامه وسائل معينة، تعنى الطريق أو الإستراتيجية، فهى علم وفن التخطيط والتكتيك والعمليات، ثم استعملت هذه الكلمة فى المجالات المتعددة فى شتى مناحى الحياة العامة.

.. أما أهم ما تعلمه السادات يومها من الملف الأمريكى السرى الذى ذكرناه سلفا هو تغيير وتطوير مصادر أنواع الرادارات المصرية ونشرها بعد تأمين مواقعها جيدا، وقد كان لقراره أعظم أسباب نجاح قوات الدفاع الجوى المصرية فى مواجهة القوات الجوية الإسرائيلية المعادية وردعها وإخراجها من معادلة الهجوم الإسرائيلى المضاد للعبور فى أول وأخطر وأهم ساعات التاريخ المصرى الحديث .

.. وهاك ما يدل على عبقرية هذا الرئيس المصرى الوطنى وعلى دهائه غير المسبوق.

.. كشفت الأوراق أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تعمدت فى بداية يوليو ١٩٧٢م تسريب تقارير للسادات تثبت تورط بعض الخبراء الروس فى مصر فى العمل لحساب الموساد الإسرائيلى مما شجعه فى النهاية على طردهم فى نفس الشهر.

.. مع ذلك تثبت مستندات أسرار السادات أن وجهة نظر المخابرات الأمريكية فى الخلايا الروسية كانت خاطئة لأن السادات استغل تلك التقارير ضد أمريكا والموساد وأصدر قراره المفاجئ بطرد الخبراء الروس مما حرم أعداءه من المعلومات التى كانت تحت تصرف الخبراء الروس طيلة الوقت.

.. فى المستندات الأمريكية السرية للغاية خطة استراتيجية لم تنشر من قبل عمد فيها السادات إلى تسريب معلومة تفيد أن لديه مرضا عضالا وأنه يحتاج للعلاج العاجل فى أوربا وتكشف الوثائق أن تلك الخطة بثها جهاز معلومات السادات عن عمد خلال تواجد الرئيس المصرى فى الجزائر خلال الفترة من ٥ إلى ٩ سبتمبر ١٩٧٣م لحضور فعاليات الدورة الرابعة لمؤتمر دول عدم الإنحياز.

ومن المعروف أن حركة عدم الإنحياز كانت من فكر الرئيس جمال عبد الناصر التى برزت خلال مؤتمر "باندونج" فى إندونسيا عام ١٩٥٥م وهى مجموعة دول قررت الابتعاد عن التورط فى الحرب

الباردة بين أمريكا وروسيا بعد الحرب العالمية الثانية وكان أول مؤتمر في بلجراد في الفترة من ١ إلى ٥ سبتمبر ١٩٦١م.

.. نعود لموضوعنا وطبقا للقصة استضاف يومها الرئيس الجزائرى "هوارى بومدين" الذى تولى رئاسة الجزائر فى الفترة من ١٩ يونيو ١٩٦٥م وحتى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٨م القمة وفى الجزائر أثناء انعقاد القمة كانت المخابرات المصرية لديها معلومات مسبقة عن دبلوماسى جزائرى يعمل جاسوسا لحساب الموساد الإسرائيلى والمخابرات الأمريكية فى العاصمة الفرنسية باريس لم تكشف الوثائق عن بياناته أو اسمه وقد كان يتنقل بحكم وظيفته الدبلوماسية بحرية كاملة بين الجزائر وباريس.

وفى الوثائق اعتمدت الخطة المصرية على تسريب خبر مرض السادات الكاذب عن طريق أحد الدبلوماسيين المصريين التابعين سرا للجهاز المصرى وكان معروفا أنه دبلوماسى قديم يعمل فى السفارة المصرية بالجزائر.

.. وكان دوره ينحصر فى التقرب ومصادقة الجاسوس الجزائرى خلال المؤتمر وقد نجح فى ذلك حتى إنهما أصبحا يتشاركان أشياء عدة بينها النساء الجميلات فى أروقة الفندق الذى نزل به الوفد المصرى.

.. فى اليوم الرابع للمؤتمر قام الدبلوماسى المصرى بالخطوة الأهم والرئيسية فى الخطة حيث طلب بعفوية وبشكل طبيعى من الجاسوس أن يساعده بحكم خبرته فى فرنسا التى قضى بها أعواما طويلة للبحث عن منزل أو فيلا فخمة بأسعار جيدة بشرط أن تتوافر بالمنزل مواصفات الهدوء والبعد عن باريس.

.. وعندما سأله الجاسوس عن السبب قال له الدبلوماسى المصرى إنه سيطلعه على سر هام ورجاه أن لا يكشفه لأحد ثم حكى له أن المنزل سيسكنه الرئيس السادات بعد أسبوعين أى فى بداية أكتوبر ١٩٧٣م لأنه مريض للغاية ويحتاج لزيارة طبيب فرنسى شهير.

.. طبقا للخطة حكى الدبلوماسى المصرى للجاسوس أن الرئاسة المصرية اتفقت سرا مع هذا الطبيب الفرنسى الذى لم يكشفوا له اسمه كى يعالج الرئيس السادات سرا فى عيادته بباريس.

وترتيبا على الخطوات وافق الجاسوس ورحب بمساعدة صديقه الدبلوماسى المصرى الذى صور له أنه هكذا سيساعد مصر كلها وبالفعل تمت عملية شراء الفيلا خارج باريس وحصل الدبلوماسى الجزائرى على عمولة كبيرة إمعانا فى التمويه.

وكان المثير أن المستندات الأمريكية تكشف أنه طبقا للخطة اختفى السادات عقب عودته من الجزائر تماما عن الإعلام وبدا وكأنه سافر فعلا بل تشير الوثائق دون تفاصيل لقصة دموية مصرية محكمة تمت حول الفيلا الجديدة فى باريس جعلت من راقبها وقتها من عملاء الموساد والمخابرات الأمريكية يعتقد بأن الرئيس السادات وصل سرا إليها.

والجدير بالذكر أن تلك المعلومة طارت يومها بالتأكيد إلى من سيثمنها فى واشنطن وتل أبيب وكان لها تأثير مباشر على تقديرات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والموساد الإسرائيلى بأن السادات لا يمكنه أن يشن حربا فى أول أسبوع من أكتوبر لأنه سيسافر فى نفس التوقيت لباريس للعلاج.

.. هكذا كان دهاء السادات الذى يدرجه تحت القلة القليلة من دهاة العرب.. بل من دهاة العالم.

.. فى معارك الدبابات الرهيبة التى لم تشهد مثلها معارك أخرى حتى فى الحرب العالمية الثانية لم تهدأ النيران لكى تتجدد أكثر التهابا، لم تصمت المدافع أبدا، كل الأسلحة اشتركت فى هذه المعركة الدموية الوحشية، الدبابات وجها لوجه تروى أروع قصص البطولة والاستشهاد المدرعات تحولت إلى جثث هامدة.. الصواريخ تملأ الصحراء.. إنها قصة الرعب والموت.

.. لقد كان لهذا الحشد الحاشد للقوات المصرية أثره البالغ فى نجاحها وهزيمة إسرائيل.

.. قدر لكاتب هذه السطور أن يلتقى بالجنرال "بوفر" على ضفاف الضفة الغربية لقناة السويس ذات يوم عقب حرب ١٩٦٧م وكان قد ترك المجال أمام المجموعة الماثلة أمامه لكى يجيب على أى سؤال يوجه إليه.

.. سألت الجنرال "بوفر":

.. أليس الحشد ,, حشد الجيش هو الوسيلة المثلى فى أية معركة ؟

.. أجاب بوفر على سؤالى : نعم هو الوسيلة المثالية، ولو لم يتم الحشد فى أية معركة لضاعت الجيوش.

.. أما خطة الدفاع التى خطط لها السادات مع قادة جيش مصر.

.. فلو لم تنجح خطة الدفاع والخداع التى قادها السادات بعمق وذكاء واقتدار لكان لمعركة أكتوبر شأن آخر.

.. ومن هنا جاء نجاح الجيش المصرى بالحشد الحاشد الذى تم بخطة كاملة لمواجهة جيش إسرائيل، وكما ألمعنا.

.. فقد كان المتوقع، إذا انكشف السر، أن يقوم العدو بما يسمى ضربة إجهاض.. أن يسبق فى الهجوم وأن يقضى على كل الخطة التى كانت أضخم بكثير من أكبر معارك الدبابات العالمية الثانية ولم يكن موشى ديان ليتوقع أن تصل هذه المعارك، إلى هذه الدرجة من الضراوة والدموية عندما وعد بسحق عظام المصريين. فقد عاد فى رابع أيام القتال ليقول إن معارك بهذه الدموية وبهذه الخسائر الفادحة لا يمكن أن تستمر طويلا. وهذا حق فقد اشترك فيها من الجانبين أكثر من ألف وخمسمائة مدرعة.. وكان القتال يجرى فى كثير من الأحيان مواجهة بين عشرات المدرعات التى لايفصل بينها أكثر من مائة متر !.. ويسجل التاريخ بالفخار للجندى المصرى، أنه لم توجد دبابة مصرية محترقة على أرض المعارك ،إلا وكانت فوهة مدفعها (الماسورة) فى مواجهة العدو.. وقد رأى شهود العيان، دبابات إسرائيل المحترقة، وعدد كبير منها متجه إلى الشرق تسللا ومروقا من رهبة المعركة..

.. وكانت هذه السطور من هؤلاء الشهود.

.. حانت ساعة الصفر. العميد عبد رب النبى فى موقع الملاحظة على الضفة الغربية الذى يبعد ٩٠٠ متر فقط من الشاطئ، وفى مكان مرتفع يرى منه كل شىء. الساعة الثانية ودقيقتان.. انطلقت الطائرات المصرية على ارتفاع منخفض جدا، وكأنها زاحفة فوق الرؤوس..

(على ارتفاع ١٥ مترا اتجهت إلى جميع مواقع مطارات العدو ومراكزه المؤثرة)..

.. شعور شامل بالارتياح والأمل.

.. بدأ التاريخ يكتب أول سطور الملحمة..

.. القوات الأمامية للعدو أذهلتها المفاجأة، لم تفتح نيرانها! سمعنا أصوات اشتباك الطيران فى العمق.. أول بشرى لنجاح أول ضربات الخطة.

.. الساعة الثانية والخمس دقائق. المدفعية المصرية تصب نيران جهنم على امتداد الجبهة. بطاريات مدافع العدو بدأت التدخل. أسكتناها.

.. الساعة الثانية وعشرون دقيقة عادت الطائرات المصرية..

.. أطقم اقتناص الدبابات تنزل إلى الماء. بدأ العبور. صرخة الإيمان المدوية ((الله أكبر)) تهز الأجواء.

.. الموجات تتدفق، العدو يتدخل بالمدفعية. أسكتناها. الطيران الإسرائيلى لم يظهر بعد. معابر الاقتحام يتم تركيبها. معابر الناقلات البرمائية تظهر على الشاطئ، وتمتد سريعا إلى وسط الماء. المعديات يحملها مئات الرجال. قطع الكبارى تظهر من مكامنها.. المهندسون الأبطال يتحركون بأسرع من الطلقات.

.. قال اللواء " عبد رب النبى حافظ " قائد الفرقة ١٦ التى كانت مكلفة بأشق مهام القتال فى خطة ٦ أكتوبر فقد كانت مسئولة عن التقدم

فى القطاع الأوسط للجبهة، المتجهة إلى العوجة والقسيمة.. وكان القائد الإسرائيلى الذى يواجهه هو "أريل شارون" الذى تسلم القيادة بعد أن استدعوه من مزارعه فى بير سبع، وقطع ٢٢٠ كيلو مترا حتى وصل إلى مقر قيادته فى الطاسة..

.. كانت القوات المصرية تربض فى وضع الهجوم..فخط المواجهة يمتد حوالى ٤٠ كيلو مترا من وسط بحيرة التمساح شمالا إلى منتصف بحيرة المرة جنوبا.

.. والتخطيط كما يعبر العلماء هو "التقدم".

.. ولقد نجحت خطة الخداع المصرية، ورفضت "جولد مائير" سياسة المبادرة بالهجوم حتى تكسب "التأييد الدولى".

.. وعلى هذا نعلق ونقول:

.. " إن بيجن لم يعبأ ذات يوم "بالتأييد الدولى".. وقد سخر من هيئة الأمم المتحدة بقولته "ليس المهم أن تأخذ الأمم المتحدة قرارا أو قرارات.. إنما المهم هو نحن هل نوافق عليه أو لا نوافق ".

.. و"بيجن" هذا له حكايات فى الإرهاب أشبه "بحكايات كانتربرى" التى ألفها "جيفرى تشوسر" وبدأها (١٣٨٧) ووافته المنية دون أن يتمها،وهى مجموعة من القصص يسردها الشاعر على لسان عدد من الحجاج إلى ضريح القديس توماس فى كانتربرى.

.. وتظهر شخصية كل من هؤلاء الحجاج واضحة جلية من خلال القصة التى يرويها. وتصور لنا هذه (الحكايات) الحياة والمجتمع الإنجليزى فى القرون الوسطى أبدع تصوير.

.. ولو أدرك "تشوسر" "بيجن" لوضع حكاية فى كتابه هذا. فقد قام بجمع اليهود من الشتات، وتوجه بهم إلى فلسطين. حيث كان يظن أنها أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، ولكنه وجد مقاومة شرسة من أصحاب الأرض ووجد أن المسلمين لا يتركون أرضهم إلا على دمائهم فعرف أن الطريق ليس مفروشا بالورود واتخذ منهج العنف لتفريغ سكان الأرض الأصليين منها ليحل هو وأمثاله القادمين من شذاذ الآفاق محلهم.

.. وهو الذى قام بنسف فندق الملك داود فى مساء ١٩٤٦/٧/٢٢م.

.. وهو الذى ارتكب مذبحة " قرية دير يس " فى ١٩٤٨/٤/٩م. حيث كان أطفال القرية وشيوخها ونساؤها نياما. وحيث قتل شبابها وبقر بطون نسائها الحوامل، ووضع جثث مذبحته فى سيارة قمامة وألقى بها عند بوابة تفصل القدس الشرقية عن القدس الغربية.

.. ويقول هو نفسه فى مذكراته:

.. " لولا النصر فى دير ياسين لكان الوضع العسكرى لليهود أسوأ فقد كانت دير ياسين بمثابة لواء إسرائيلى كامل أضيف لقواتنا فى وقت حرج لأن سكان القرى العربية هجروها دون إطلاق رصاصة واحدة خوفا من أن يحدث لهم مثلما حدث فى دير ياسين".

.. وقد أسمى "بيجين" هذه المذبحة "مذبحة النصر" ؟!

.. وقد استقبل فى أمريكا وأقيم له حفل تكريم تبرأ الكثيرون منه وعلى رأسهم العالم الكبير "أينشتاين".

.. وهو الذى وافق على ضرب المفاعل الذرى العراقى.. وفى هذا الخصوص قال:

.. " لو أن المفاعل النووى العراقى لم يدمر لحدثت محرقة جديدة" .
.. إلى آخر القائمة الإرهابية التى تَقَدْمهَا بيجن.
.. وكان هو أيضا وراء مذبحة " صبرة وشاتيلا ".
.. وعندما رفض بعض شباب إسرائيل ما ارتكبه بيجن، وقاموا بمظاهرة احتجاج وقطعوا الطريق إلى حيفا وأشعلوا النار فى إطارات السيارات وكان هؤلاء الشباب يعربون عن غضبهم وفى القدس خرجت مظاهرة تضم مائة ألف شخص أعلنوا أنهم يشعرون بالخجل لكونهم إسرائيليين وتعرضوا لعصىّ الشرطة والقنابل المسيلة للدموع.
.. ويحكى بعض الشهود الذين نجوا من المذبحة وعلى رأسهم " أم كابد الفلسطينية" ما يلى:
.. " كدت أفقد عقلى عندما بقروا بطن "أم مبارك" الحامل فى شهرها التاسع وبعثوا أحشاءها وأخرجوا الجنين وأجهزوا عليه بالرصاص وقتلوا فلان وفلان.. أما جارتى فلم تنتبه لما يحدث لأننا تعودنا على صوت الرصاص ثم وجدتها موثقة اليدين مذبوحة وانتزعوا سروالها وأعتقد أنهم اغتصبوها أما فلان فقد قتلوه وقطعوا يده بالبلطات والآخر كان رأسه منتصبا وقد شوهت ضربات السكين معالم وجهه".
.. وهاك مشهد آخر لشيخ فلسطينى عجوز بلغ من العمر أرزله يسير بين أنقاض مخيم من مخيمات صبر وشاتيلا والأسى مرتسم على تجاعيد وجهه يقول:
.. "بحثت عن عائلتى بين الأنقاض والأطلال ولم أجد شيئا فقال لى رجل الإسعاف توجه إلى مسجد المخيم أو المدينة الرياضية للبحث عن عائلتك بين

جثث الضحايا وفى المسجد وجدت إحدى بناتى مربوطة اليدين والقدمين ومذبوحة وإلى جانبها طفلها الرضيع وهو الآخر طعنوه بالسكين وعلى بعد قدمين شاهدت زوجتى وكانت مذبوحة أيضا ويدها اليمنى كانت تمسك بذراع أحد أبنائى يبدو أنها دافعت عن ابنتها وبالقرب منها كانت ابنتى الصغرى مضرجة بدمائها تناثرت حولها أوراق ممزقة من القرآن الكريم وقد تبللت بالدم.. هؤلاء المساكين اعتقدوا أن المسجد آمن فالتجأوا إليه، تصوروا وتخيلوا مشاعر هذا الرجل العجوز وهو يرى عائلته كلها جثث مذبوحة".

.. وهذا هو "بيجين" الذى نال جائزة نوبل للسلام؟!!!.. مع اعتراض أربعة من بين خمسة من الذين منحوه الجائزة العالمية على منحه إياها، والذى كسر السادات شوكته وانتزع من بين أنيابه أرض سيناء بعد مفاوضات مضنية خاضها السادات معه فى سبيل حقن دماء المصريين والإسرائيليين على السواء.

.. وهذا هو السادات الذى وجهت أجهزة الإعلام العربية مدافعها إليه بعد استرداده لسيناء.

.. وأيضا هذا هو السادات الذى ارتبط استراتيجيا بالقضية الإسرائيلية وكان الزعيم العربى الذى رفع من شأن القضية دوليا بطول عام ١٩٧٦م وهو "عام فلسطين" على الرغم من العلاقات المتوترة التى كانت بينها وبين دول المواجهة وقطعت تماماً فى أعقاب مبادة نوفمبر ١٩٧٧م.

.. وكان يقف وحيدا فى الميدان بعد أن تخلى عنه الجميع، وقد كان من قبل يحيطونه بالتقدير والإعجاب وشراكة كل البلاد العربية فى الحرب التى قادها ضد إسرائيل.!

حرب أكتوبر فى ميزان التاريخ

وبهت الذى كفر . !

.. ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ سورة الفرقان الآية (٢٧).

.. اندلعت حرب أكتوبر فى العاشر من رمضان عام ١٣٩٣ هجرية الموافق السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م الساعة الثانية وأربع دقائق ظهرا كما أسلفنا القول.

.. كانت أخت "يوشع" مازالت تتوسط كبد السماء ترسل أشعتها على صفحة مياه قناة السويس، وكذلك على جبال ورمال سيناء، وجنود جيش مصر الميامين يعبرون القناة من الشط الغربى لها إلى الشط الشرقى فى أمواج متتابعة يشقون عباب اليم بسواعدهم وقواربهم عبر الجسور، وبقلب جسور وقد رفعوا علم مصر على الضفة الشرقية للقناة بعد أن سبقتهم الضربة الجوية القاتلة التى أصابت إسرائيل فى مكمنها، ودك الحصن.. الذى كانوا يتباهون به ويفخرون، ويزعمون أنه أقوى خط دفاع فى العالم.

.. وإذ بلغ هدف السادات مداه وحقق مبتغاه أغلق مدافعه وفتح باب السلام.

.. ولسنا بصدد تأريخ هذه الحرب، ولا الحديث عنها إلا بقدر ما يقتضيه السياق.

وللاحترام نسوق هذه القصة القصيرة فى سياق حديثنا عن هذه الحرب المجيدة.

.. يقص علينا أحد أبطال حرب أكتوبر العظام وهو الصديق اللواء أركان حرب "محمد الفنجرى" نتفا من ذكرياته فيقول:

.. إنه فى خضم هذه الحرب المجيدة وبالتحديد بعد وقف إطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٧٣م وبعد موافقة الجانب الإسرائيلى على ذلك نقض الإسرائيليون ما اتفقوا عليه وهم الذين يتسمون دائما بنقض العهود فاستمروا فى إطلاق النار وضرب وحدات الجيش المصرى بالطائرات والدبابات حيث كنا محاصرين ضمن قوات الجيش الثالث الميدانى.

.. وأذكر - بالتحديد - أننى كنت أقف ضمن طاقم دبابة القيادة فى موقعها ناحية الغرب من مدخل ممر الجدى، وكان قد نما إلى علم العدو الإسرائيلى من خلال استطلاع طائراته المهاجمة أن مربض هذه الدبابة هو مركز القيادة المصرية فركزوا القذف على تلك الدبابة بثلاث قنابل.. كنت أشاهد هذا الموت بعينى حيث كنت واقفا مع طاقمها وهم الرامى والمدفعجى وسائق الدبابة أشاهد القنابل وهى تتساقط علينا فتوجهت بسرعة البرق إلى ملجأ كنت قد أقمته يسمى (قفص القرود).. هكذا كان اسمه، وكان معى آنذاك صديق عمرى المقاتل "جلال العبادى".

.. أسفر هذا القذف عن تدمير الملجأ وتفكك حديد هذا القفص وانهال التراب والرمال فوقى فخرجت بأعجوبة شديدة من ركام هذا القفص.. وبعد خروجى كانت المفاجئة أن الجنود الثلاثة قد تفحمت جثثهم التى تحولت إلى أشلاء بدائرة قطرها خمسون مترا.. لمنا أشلاءهم

وواريناهم الثرى بملابسهم العسكرية وفى صبيحة اليوم التالى حيث كان عيد الفطر توجهنا حيث ووريت أجسادهم لقراءة الفاتحة على أرواحهم.. كان المدهش والغريب أننى ألفيت ثلاثة عصافير واقفة على قبور هؤلاء وهى تغرد وكأنها تستمطر الدعاء على أرواحهم، وفى الوقت نفسه كأنها كانت تستقبلنا بهذا التغريد. .. كيف أتت هاتيك العصافير إلى هذا لمكان؟.. وما الذى جاء بها إلى هذا المكان أليست هذه آية من آيات الله؟!.

.. لا يفوتنا أن نستخرج من بطون التاريخ المعارك الحربية التى كان لها فى التاريخ تأريخ.

.. قيل إن حرب المائة عامِ التى شكلت صراعا طويلا بين فرنسا وإنجلترا، وقد دامت ١١٦ سنةَ مِنْ ١٣٣٧م إلى ١٤٥٣م أصابت فرنسا باليأس والقنوط.

.. وقيل إن حرب الثلاثين عاما والتى نشبت صراعات دامية مزقت أوربا بين عامى ١٦١٨ و١٦٤٨ م،وقعت معاركها بداية وبشكل عام فى أراضى أوروبا الوسطى (خاصة أراضى ألمانيا الحالية) العائدة إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة،ولكن اشتركت فيها تباعا معظم القوى الأوربية الموجودة فى ذاك العصر فيما عدا إنكلترا وروسيا. فى الجزء الثانى من فترة الحرب امتدت المعارك إلى فرنسا والأراضى المنخفضة وشمال إيطاليا وكاتالونيا. خلال سنواتها الثلاثين تغيرت تدريجيا طبيعة ودوافع الحرب : فقد اندلعت الحرب فى البداية كصراع دينى

بين الكاثوليك والبروتستانت وانتهت كصراع سياسى من أجل السيطرة على الدول الأخرى بين فرنسا والنمسا، بل ويعد السبب الرئيسى فى نظر البعض،ففرنسا الكاثوليكية تحت حكم الكردينال "ريشيليو" فى ذلك الوقت ساندت الجانب البروتستانتى فى الحرب لإضعاف منافسيهم آل هابسبورغ لتعزيز موقف فرنسا كقوة أوربية بارزة،فزاد هذا من حدة التناحر بينهما،ما أدى لاحقا إلى حرب مباشرة بين فرنسا وإسبانيا.

.. سجل التاريخ أن ثمة معارك فاصلة دارت رحاها على أراضى العالم برمته بيد أن ثمة معارك اعتبرها المؤرخون أهم معارك فى التاريخ وهى :

.. أولاها : معركة " أكتيوم " (٣١ قبل الميلاد) : المعركة البحرية الشهيرة التى هزم فيها أوكتافيوس قوات كل من مارك أنطونيو وكليوباترا.

.. فى ساعتين فقط كان أنطونيو وكليوباترا قد فَقَدَا ثُلث الأسطول الذى يُقدّر بمائتى سفينة،وبمجرّد أن أيقن جنودهما أن الهزيمة واقعة لا محال تفرّقوا.

.. بعد الهزيمة أمام الإمبراطور الرومانى انتحر أنطونيو وكليوباترا،وسقط البحر المتوسط كله تحت السيطرة الرومانية.

– معركة "ستالينجراد" (١٩٤٢م – ١٩٤٣م): لعلّ هذه المعركة كانت أحد الأسباب الرئيسية التى ساهمت فى كبح جماح هتلر، وكانت بداية لهزيمته فى الحرب العالمية الثانية. استمرّت المعركة بين السوفييت والألمان للسيطرة على المدينة التى تحمل

اسم الرئيس ستالين فيما بين يوليو ١٩٤٢م وفبراير ١٩٤٣م،وبنهايتها كان أكثر من ١,٥ مليون إنسان قد قُتِلوا أو جُرحِوا أو أُسروا،وكان الجيش الألمانى قد تمّ تصفيته بالكامل،وتمّ أَسر ٩١ ألف جندى منهم.

وكان السوفييت قد استماتوا للدفاع عن المدينة؛ فهى رمز سياسى مهم، وبالطبع لم يكُن ستالين ليغفر لهم إذا سقطت المدينة التى تحمل اسمه.

– معركة "جزيرة ميدواى" (١٩٤٢م): كانت خطة الأدميرال اليابانى ياماموتو أن يحتلّ جزيرة ميدواي،تلك الجزيرة المرجانية الصغيرة التى تقع على بُعد ٤٠٠ ميل غرب هاواي،ثمّ يستخدمها كنقطة انطلاق للهجوم على الجزر الأكثر أهمية.

.. لكنّ المفاجأة التى واجهت الأدميرال؛ هى قوة من حاملات طائرات أمريكية تحت قيادة الأدميرال تشيستر نيميتز،والذى استبسل هو وجنوده للدفاع عن الجزيرة،فى معركة كان يعتقد اليابانيون أنها سهلة،وانتهت المعركة بفقدان اليابانيين لحاملات الطائرات الأربعة التى جاءوا بها مع كل الطائرات عليها،إضافة إلى مصرع مجموعة من أمهر الطيارين اليابانيين،كما أنها أوقفت توسُّع اليابانيين فى المحيط الهادى.

– معركة "واترلوو" (١٨١٥م): فى المدينة البلجيكية الصغيرة التى تُعرف باسم "واترلوو"،اجتمعت الجيوش الإنجليزية والهولندية والبروسية (نسبة إلى دولة بروسيا التى كانت تقع محل ألمانيا حاليا) بقيادة دوق "ولينجتون"؛ لإيقاف "نابليون بونابرت " عند حدّه.

كانت هزيمة نابليون ساحقة فى المعركة،رغم أنه استبسل فيها ونزل إلى المعمعة على رأس جنوده وحرسه الخاص، وأراد أن يزج بنفسه وسط النيران؛ إلا إن ضبّاطه تمكّنوا من إثنائه عن هذا، وخسر نابليون ونُفِى إلى جزيرة سانت هيلانة، وانتهت الإمبراطورية النابليونية عند هذا الحد.

– معركة "جتيسبرج" (١٨٦٣م) : دارت رحى هذه المعركة بالقرب من بلدة جتيسبرج فى ولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية،وقد سقط فيها أكبر عدد من المصابين فى الحرب الأهلية الأمريكية (٤٦ ألف بين قتيل وجريح من الجانبين).

وقد كانت نقطة تحوّل حاسمة فى الحرب،وأوقفت تقدُّم قوات الولايات الجنوبية لإحتلال الولايات الشمالية.

بالرغم من أن خسائر الولايات الشمالية فى المعركة كانت فادحة أيضا؛ فإن الشماليين كانوا قادرين على تعويض الخسارة،بينما لم يكن للجنوبيين نفس القدرة،وقد كانت هذه بداية الانتصار النهائى للولايات الشمالية.

– معركة "بلاط الشهداء" (٧٣٢) : وقعت المعركة بين جيوش الدولة الأموية بقيادة عبد الرحمن الغافقى، وقوات الإفرنج بقيادة تشارلز مارتل قرب بلدة تور بفرنسا. بعد أن وطد الأمويّون أقدامهم فى إسبانيا أرادوا غزو فرنسا، وبعد الاستيلاء على عدة مدن؛ فاجأ تشارلز مارتل جيش الغافقى بقوات ضخمة لم ينتبه إلى قدوم طلائعها، واستمرّت المعركة لعدة أيام، وانتهت بانسحاب الأمويين.

أدّت المعركة إلى إنهاء الزحف الإسلامى على أوربا، وبداية سقوط الدولة الأموية فى الأندلس.

– معركة " فيينا " (١٦٨٣م) : دارت هذه المعركة بين العثمانيين بقيادة الصدر الأعظم قرة مصطفى، والقوات الألمانية البولندية النمساوية بقيادة ملك بولندا جون سوبريسكى. كان احتلال "فيينا" هدفا استراتيجيا للعثمانيين للسيطرة على خطوط التجارة والمواصلات فى القلب الأوربى، لكن القوات الأوربية تمكّنت من دحر الغزو، بعد خيانة أحد القواد العثمانيين، إضافة إلى الإرهاق والسأم الذى أصاب الجيش العثمانى من كثرة المعارك.

كانت الهزيمة فى هذه المعركة هى بداية النهاية للإمبراطورية العثمانية وتوسّعاتها فى أوربا.

– معركة "يورك تاون" (١٧٨١م) : بالرغم من القلة النسبية للقوات المشاركة فى هذه المعركة (٨٠٠٠ جندى أمريكى مدعومين بـ٨٠٠٠ جندى فرنسى ضد حوالى ٩٠٠٠ جندى بريطانى)؛ فإن نتائجها غيّرت تاريخ العالم.

كان من المفروض أن تهزم الإمبراطورية البريطانية التى لا تقهر هؤلاء المستوطنين الأمريكيين بقيادة جورج واشنطن وبكل سهولة، إلا أن حصولهم على التدريب الكافى إضافة إلى دعم الفرنسيين قد غيّر من الموقف، ووجد البريطانيون أنفسهم محاصرين فى بنسلفانيا بين الأمريكيين والفرنسيين، وهو ما دفعهم إلى الاستسلام بعد أسبوعين من القتال.

.. حصلت الأراضى الأمريكية على الاستقلال،وتمّ تأسيس دولة فى العالم الجديد سمّيت بالولايات المتحدة الأمريكية.

- معركة "سالاميس" (٤٨٠ قبل الميلاد): وهى معركة بحرية هائلة اندلعت بين الأسطول الإغريقى بقيادة ثيمستوكليس،والأسطول الفارسى بقيادة الملك زيكسيس،واشترك فيها أكثر من ألف سفينة.

استطاع الإغريق أن يدفعوا بالفرس إلى المضايق البحرية لسالاميس، ومن ثم استطاعوا أن يفقدوهم مزية كثرتهم العددية،وأذاقوهم هزيمة مُرّة.

انسحب "زيكسيس" إلى بلاده مرة أخرى تاركا اليونان لليونانيين. يعتقد بعض المؤرخين أن انتصار زيكسيس فى هذه المعركة كان ليدمر الحضارة الغربية كما نعرفها.

- معركة "عين جالوت" (١٢٦٠م): معركة عين جالوت وقد أدّت إلى إيقاف المدّ المغولى الكاسح فى العالم،والذى أسقط الخلافة العباسية عام ١٢٥٨،وقد كانت المعركة الأولى التى يهزم فيها المغول منذ عهد جنكيز خان.

.. كان المغول قد اكتسحوا بلاد فارس وما وراء النهرين والدولة العباسية،وكانوا فى طريقهم إلى مصر بقيادة هولاكو؛ فلاقاهم قطز وبيبرس فى عين جالوت.

.. ومن خلال خُطة حربية محكمة أطبق قطز وبيبرس على جيش المغول لينهزم المغول،ويتوقّف زحفهم على العالم،بينما تثبت أقدام دولة المماليك فى مصر.

– معركة "حصن المرقب" (١٢٨٥م): وكان هذا الحصن كحصن بارليف يقف مشرئبا بصلابته أمام أى غاز يريد أن يقتحمه وفى إبريل ١٢٨٥م عقد الملك " قلاوون " على اقتحامه وفى ١٧ إبريل من هذا العام المذكور آنفا وصول السلطان بجيش كبير أسفل الجبل الذى يقع عليه هذا الحصن الحصين ونصب المنجانيق على جانبى هذا التل وبدأ فى دك أسواره التى تمثل قلعة رهيبة كانت من المناعة حتى إنه تعذر السيطرة عليها خلال شهر كامل.

وبدأت القوات المصرية فى إحداث فتحة أسفل أحد الأبراج وهو البرج الذى كان معروفا ببرج الأمل ووضعوا الأخشاب سريعة الاشتعال فى هذه الفتحة وأضرموا فيها النيران فبدأ البرج فى التداعى وأثر هذا فى بقية استحكامات القلعة ولم يسع العدو سوى طلب الأمن والأمان فخرج فرسان الأسبتارية مستسلمين فى كامل عددهم العسكرية واقتحم " قلاوون " القلعة فى مايو من العام نفسه.

ويقول المؤرخ " أبو الفدا " الذى حضر الأحداث :

كان يوما مشهودا أخذ فيه السلطان الثأر من "الاسبتاريين" ومحيت آية الليل بآية النهار. ومما لا شك فيه أن ضياع هذا الحصن من أيد الصليبيين كان خسارة كبيرة فزع لها كل الصليبيين خاصة سكان مدينة عكا. وكان من بين ما فزع المغول أنفسهم أكثر مما أزعج الصليبيين.

.. كانت حرب أكتوبر حربا غير مسبوقة فى التاريخ تضاف إلى هاتيك المعارك الضارية السابق ذكرها بل وتسبقها فى الإعداد والتنسيق وهول الأحداث الحربية التى مرت بها.

.. وعبر أجناد مصر قناة السويس عبورا لم يكن له مثيل من قبل فى التاريخ.

.. استمرت المعركة بعد سقوط الشمس فى مياه القناة تدور عجلتها على أرض سيناء فى ظلام الليل البهيم لا يكسر من حدة ظلمته إلا نيران المدافع وفوهات الدبابات التى أمطرت جنود إسرائيل وابلا جعل الأرض من تحتهم ومن فوقهم جحيما وكأن الله قد أسقط عليهم كسفا من السماء.

.. كانت تحصينات خط بارليف أشبه بقلاع القرون الوسطى، وقد بنيت التحصينات التى كانت تبدو من الخارج كقلاع العهود الوسطى، بحيث كان كل حصن كدبابة عملاقة رهيبة الحجم قادرة على القتال بصورة مستقلة، كان المقاتلون فى داخله مزودين بقوة نيران كبيرة يمكن تشغيلها بواسطة حفنة من الرجال، ويؤمن لكل حصن اكتفاء ذاتى من الناحية القتالية بحيث يصمد فى وجه قوات " متفوقة " كان التقدير أنه بإمكان كل حصن من حصون بارليف الدفاع فى مواجهة كتيبة مدرعة كاملة للعدو لمدة أسٍبوع على الأقل .

.. واستكمالا لمناعة وقدرة هذا الخط قام اللواء " أريل شارون" عندما عين قائدا للجبهة الجنوبية " جبهة سيناء " بشق مئات الكيلو مترات من الطرق قرب القناة، وخاصة الطرق المواجهة لها بصورة عمودية، وقد أراد بذلك أن يقلل إلى الحد الأدنى من المقاطع التى تتحرك فيها قوات الجيش الإسرائيلى تحت رحمة النيران المصرية التى تنطلق من

الجهة الأخرى للقناة، كما قصد بالطرق التى شقت بمواجهة القناة تمكين المدرعات من التحرك السريع نحو المعاقل والقناة نفسها.

.. وقد أمر "شارون" أيضا بتجديد وتقوية المعاقل مرة أخرى برغم أنها صمدت قبل ذلك أثناء حرب الاستنزاف للقصف المصرى المركز والكثيف على مدى ستة عشر شهرا.

.. وبدأت عملية بناء جديدة اعتبرت "أكبر عمليات البناء فى إسرائيل"، وقد أشرف عليها اللواء "دان لنر" ومساعده "كالمان بيجين". فأضيفت إلى طبقة قضبان السكك الحديدية طبقة جديدة مكونة من ألواح من الحجارة وضعت فى داخل شبكات من المعدن. وقد اشترك فى العمل آلاف العمال اليهود،وآلاف العمال الدروز الذين أحضرتهم القوات الإسرائيلية من هضبة الجولان.

.. بعد ذلك أضاف "شارون" حوالى أربعمائة كيلو مترا من الطرق شقها بجانب القناة ومن بينها مائتان وخمسون كيلو مترا تم رصفها بالأسفلت،وفى منطقة المستنقعات فى قطاع الشمال شقت طريق وضع تحتها ستائر من البلاستيك حتى لا يتسرب الماء ـ إليها ويغطيها .

.. وقد أكثر" شارون " من شق طرق العرض، وأعدت فى مفترقات الطرق، طرق جانبية وعلى طول القناة شقت طرق أخرى طويلة سميت "طريق البطاريات"، وذلك لكى تتحرك بها بطاريات مدافع الجيش بسرعة، هذا وقد أنفق على إنشاء حصون خط بارليف ما يزيد على مليارى ليرة. " ويضاف إلى هذا الرقم الذى يذكره الإسرائيليون، أنهم استغلوا الرمال والصخور التى استخدمت فى التجهيزات من أرض

سيناء، كما أنهم سرقوا قضبان السكك الحديدية المصرية فى سيناء التى انتزعوها كلها واستخدموها أيضا فى البناء، بل إن هناك ما يؤكد أنهم استخدموا صخورا من مرتفعات الجولان السورية فى إقامة هذه التحصينات " البارليفية " ـ ولو قدرت كل هذه الموارد بأسعار متوسطة لتضاعفت تكاليف إقامتها ".

.. وفى هذا الخصوص قال " مناحم بيجن " :

.. إن المصريين لن يمروا عبر خط بارليف وهم لو فكروا فى ذلك فإنهم سيكون مصيرهم مثل مصير جيش فرعون .

.. وقال "إن الاستحكامات التى أقامتها إسرائيل على الضفة الشرقية للقناة والمسماة بخط بارليف، قد غيرت الموقف العسكرى كلية ونهائيا لصالح إسرائيل. لقد أصبح فى استطاعتنا أن نطلق النيران أو لا نطلقها وفقا لمشيئتنا نحن، مادام جنودنا فى حماية تحصينات خط بارليف الذى برهن على فعاليته تحت وطأة نيران المدفعية المصرية فى حرب الاستنزاف.

.. ويقول الجنرال " شارون " :

" إننا سوف نظل مرابطين على خطوطنا الدفاعية بالضفة الشرقية للقناة.. تلك الخطوط التى تعتبر أكثر الخطوط الدفاعية الملائمة لنا.. والتى نستطيع أن نحافظ عليها بأقل التضحيات الممكنة. وهى كذلك تعتبر العقبة الرئيسية أمام عبور جيش تقليدى بطئ الحركة وثقيل كالجيش المصرى ".

.. ويقول " توماس تشينهام " :

"إن عبورحفنة من رجال الجيش المصرى كقوة دورية مثلا إلى الضفة الشرقية بغرض بث الألغام والفرار بسرعة أمر ممكن.. أما إقامة المصريين لرأس جسر بقوة كبيرة فهذا أمر محال إنها خطوة ليس فى قدرة مصر تحقيقها أبدا.. إن الجيش المصرى على الرغم من آلاف القصفات من المدفعية الثقيلة والهاونات والصواريخ، فإنه قد يفشل فى تدمير حصن واحد من حصون خط بارليف".

.. ورجت الأرض رجا، وعبرت قوات مصر قناة السويس، واقتحمت خط بارليف.. واشتعلت جبهات القتال بنار جهنم.. وكان يوم التكفير، يوم عيد الكيبور، يوما مشؤما فى حياة إسرائيل، وارتفعت الأعلام المصرية فوق أرض سيناء، ولم يستطع طيران إسرائيل على كثافة موجاته أن يوقف تقدم قوات العبور المصرية التى اشتبكت فى معارك ضارية ضد الدبابات الإسرائيلية، وكانت الحرب التى لم يتوقعها أحد.. واحتلت أنباء القتال الصفحات الأولى فى جميع صحف العالم.

.. انفلات كامل شمل العالم من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، تغيرت معه كل الموازين، وتاهت كل المفاهيم.

.. وبدأ التاريخ يكتب صفحات جديدة.

.. ففى الأيام الخمسة الأولى من شهر أكتوبر كان كل شىء هادئا فى العالم.. فعلى الصعيد الدولى أعلن مستشار النمسا "كرايسكي" قراره المثير بإلغاء مركز تجميع اليهود السوفييت المهاجرين إلى إسرائيل. وتثور إسرائيل وتضغط أمريكا لإرغام كرايسكى على سحب قواته.

.. والرئيس السادات يرسل إسماعيل فهمى وزير الخارجية إلى فيينا لشكر كرايسكى ومناشدته الاحتفاظ بموقفه.

.. "وفيلى برانت" مستشار ألمانيا الغربية يعلن فى شيكاغو أن أسلوب حل أزمة الشرق الأوسط هو التفاوض المباشر بين مصر وإسرائيل، وزارة خارجيته تعود فتتفى ما نسب إليه وتعلن أن ألمانيا مازالت تعتبر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ مناسبا لحل الأزمة.

.. والرئيس الأمريكى نيكسون يقرر بدء برنامج إجبارى لتوزيع وقود تدفئة المنازل بنظام الحصص، وذلك فى محاولة لتخفيف حدة آثار نقص الوقود خلال الشتاء.

.. والدولتان الكبيرتان تتقاربان وتتفقان.. ولا تباليان بما يعانيه العرب من ضيق ومرارة وتمزق، وتعلنان فى نوع من اللامبالاة بنا وبأمانينا عن ارتياحهما إلى الاسترخاء.. وهكذا بردت المواجهة بين الشرق والغرب.. وإسرائيل على الرغم من أنها ثارت لقرار كرايسكى، وأخذت تبذل المحاولات المستميتة لإرغامه على سحب قراره، فإنها راحت تقيم الاحتفالات بالعام العبرى الجديد، وتستعد ليوم التكفير "يوم كيبور ". والعلماء والمهندسون السوفييت يتدفقون على إسرائيل حتى بلغ عددهم ثمانمائة عالم خلال ثلاثة أشهر.. وساستها يعتقدون أن فرص السلام مازالت بعيدة".

.. ولا مراء أن الغرور الإسرائيلى قد بلغ مداه، ووصل إلى منتهاه فقد أصبحت إسرائيل برمتها تؤمن بوهم كبير اسمه " الجيش الذى لا يقهر".

.. وقهر الجيش المصرى، "الجيش الذى لا يقهر"،وخلال ست ساعات، وليس ستة أيام.

.. فقد حطم الجيش المصرى حاجز الخوف وعقدة التفوق الإسرائيلى، وكشفت أرض المعركة أن القوات المسلحة الإسرائيلية، وإن كانت قوات منظمة، ومسلحة، ومدربة، ولكنها تبقى رغم ميزتها قوات عادية غير أسطورية فهى تخطئ وتنسحب وتنهزم وتتكبد الخسائر الفادحة وتنسل راجعة القهقرى تاركة قتلاها وجرحاها على أرض المعركة، ويستسلم جنودها ويرفعون أيديهم بالتحية للقادة المصريين.

.. وقد أكدت نتائج تحقيق لجنة " أجرانات " أن القيادة الإسرائيلية ارتكبت أخطاء مأساوية بسبب غرورها وعماها الإستراتيجيى، ومحاولتها الخاطئة لتفصيل استراتيجية عسكرية تتلاءم مع أطماع السياسيين فيها.

.. وعرف الجنود الإسرائيليون مقدرة جنود العرب الذين صوروهم عقب حرب ١٩٦٧م حفاة الأقدام مطأطئى الرؤوس رافعين أيديهم بالاستسلام، وتأكدوا أنهم جنود منظمون ومقاتلون يهاجمون الدبابات ويسقطون الطائرات ويتشبثون بالأرض.. أرضهم وَيعْبرون الحواجز الطبيعية والمصنوعة بكفاءة عالية وينصبون الكمائن فى عمق مصرح العمليات ويمنعون الإمدادات والقوات الاحتياطية من الوصول إلى الخط الأول للقتال.

.. وفى دراسة كتبها المؤرخ الإسرائيلى "يعقوب تلمون" أستاذ التاريخ المعاصر فى الجامعة العبرية بعنوان " حساب النفس " قال فيها:

.. لقد وجدت الصهيونية نفسها فى حاجة إلى السلام، ذلك لأن صورة إسرائيل من النيل إلى الفرات أصبحت صورة زائفة.. وحتى لو تحققت هذه الصورة فلن يكون وجود إسرائيل آمنا لأن العنف والبربرية لابد أن تزداد فى المنطقة بأسرها، ولم تستطع إسرائيل النجاة منها.

.. لقد غيرت حرب أكتوبر الكثير من المفاهيم الخاطئة .

.. تم محو أسطورة جيش إسرائيل الذى لا يقهر ـ وكما ألمعنا ـ فقد ظلت إسرائيل تجاهد وهى تتساءل كيف أستيقظ من هذا الكابوس؟، وفى هذا الصدد يقول "شارون":

" إنه حقا لشىء مخيف ومرعب. لقد جعلتنا أصوات طلقات المدافع المصرية نفقد توازننا، وصرنا نترنح كالسكارى، ولم يكن باستطاعتنا عمل شىء لوقف هذا اللحن المصرى the international Insight team of the Sunday Times. Op. cit., p.١٩١.، مشار إليه فى أطروحة دكتوراه (لم تنشر) إعداد الدكتورة "نوال عبد العزيز الصفتى".

.. وكذلك أصبحت الصور التى ترسخت قبلها، سواء بالنسبة لإسرائيل أو للعرب مجرد تاريخ مضى. ذلك أن حرب أكتوبر لم تغير الحقائق العسكرية والمفاهيم العلمية فى الشرق الأوسط فحسب بل أوضحت أيضا للمتحاربين من بنى إسرائيل أنهم لا يستطيعون تحقيق رغباتهم غير الواقعية بالقوة فليس من المتصور أن الإسرائيليين يستطيعون التمتع بالسلام والأمن طالما استمروا فى احتلال أراض عربية بالقوة.

.. وكانت الصورة الثانية التى غيرتها حرب أكتوبر أن صراع الشرق الأوسط ليس بالبساطة التى حاولت إسرائيل ترسيخها فى ذهن

العالم الخارجى. فقد اتضح أن هذا الصراع لا يمكن أن يتصاعد إلى حرب استنزاف واسعة النطاق فحسب، بل يمكن أيضا أن يورط القوى العظمى فى مواجهة غير مرغوب فيها. ومن هنا أدركت القوتان العظميان مدى زيف الصورة الاستاتيكية التى رسمتها إسرائيل للمنطقة، والتى أكدت من خلالها أنه لا يوجد هناك أدنى خوف من تورط القوى العظمى فى المنطقة. لكن حرب أكتوبر أكدت لهاتين القوتين ضرورة الإسراع فى إزالة الظروف التى أدت إلى أربع حروب فى الشرق الأوسط، إذا ما كانت القوتان تريدان استمرار وفاقهما وتحقيق السلام والأمن، ليس فقط للشرق الأوسط بل للعالم كله.

.. وكانت الصورة الثالثة التى غيرتها حرب أكتوبر أنها أوضحت قدرة العرب على التنسيق بين استخدام كل من السلاح العسكرى وسلاح البترول ضد أعدائهم. كما أنهم أوضحوا أنهم على استعداد للمزيد من تدعيمهم وذلك بهدف مضاعفة عزلة إسرائيل فى المجتمع الدولى.

.. وكانت الصورة الرابعة التى غيرتها حرب أكتوبر عن العرب أنهم استطاعوا عبور الفجوة التكنولوجية والنوعية بينهم وبين الإسرائيليين، وبذلك تمكنوا من إنزال خسائر ضخمة بهم وأثبتوا أن الإسرائيليين لا يتمتعون بالتفوق العسكرى الساحق الذى عودوا العالم الخارجى عليه. وعلى الرغم من أن العرب لا يمكنهم استخدام القوة بفاعلية كاملة لتحرير أراضيهم المحتلة، فإن قرار مصربشن حرب أخرى قد أصبح من الأمور التى لا بد من أخذها فى الحسبان عند النظر

إلى المستقبل خاصة إذا ما أجبرت الشعوب على اختيار أسلوب الحرب لكى تمحو الظلم الواقع عليها حتى ولوكان الأمل فى كسب الحرب غير كبير.

وقد محت هذه الحرب الصورة الإعلامية المزيفة التى سيطرت على الرأى العام العالمى من أن إسرائيل هى "داود"، والعرب هم "جوليات".. وقد بثت فى قلوب العرب شعورا جديدا بالقوة من خلال هذه الحرب التى بدأتها مصر وسوريا بهجمة مزدوجة فى وقت واحد كانت بمثابة الصدمة المتعددة الأبعاد لإسرائيل، وأطلقت موجة من التضامن فى العالم العربى، وبصفة خاصة كان عبور المصريين الناجح للقناة كما عبر "بيتر جبرلتش" سببا فى أن تفقد إسرائيل نفوذها الإعلامى الذى ظلت تدعمه منذ ١٩٦٧م.

.. وجاء سلاح البترول الذى قاده الملك فيصل بموقف مشكور منه وغير منكور يكتب له فى صفحات التاريخ وكذلك كان الشيخ زايد آل نهيان رئيس دولة الإمارات ناهيك عن الرؤساء العرب هوارى بومدين ومعمر القذافى وأمير الكويت.. جاء هذا السلاح كأحد وسائل الضغط غير المباشر على إسرائيل، وكضغط مباشر على الدول التى دأبت على السير وراءها.

.. وقدمت رؤية جديدة نافذة لمغزى وحدة العمل العربى فى هذا الصراع المرير مع الصهيونية والإمبريالية الذى فرض على المنطقة فرضا، وأتت حرب أكتوبر بتأييد عالمى غير مسبوق للحق العربى.

.. كانت حربا ضروسا بين الحق والباطل أفاق الإسرائيليون وقد وجدوا أنفسهم فى بحر لجى إذ أحاط بهم الجنود المصريون وكذلك

السوريون إحاطة السوار بالمعصم بعزائم كأنها قضت من ظهر جبل أشم، واستشعرت الموت العاجل، وقد هبط على أم رؤوسهم من كل جوانب الأرض التى أصبحت موئلا للموتى والجرحى والأسرى واليائسين.

.. والذى لا مشاحة فيه أن سيناء التى كانت لمدة ست سنوات طوع بنانها أمست اليوم مقبرتها.

.. يقول أحد قادة إسرائيل إن سر انتصار مصر فى حرب أكتوبر أن أبناءها هبوا لتحرير أرضهم وهم يعرفون أنهم ذهبوا ولن يعودوا ؟!.

.. وهاهى ذى سيناء تستعيد بصرها الذى وإن كان قد كف، فإن بصيرتها كانت تصبر بعمق يفوق رؤية البصر، وأصبحت بعد حرب أكتوبر ترى كل شيء حولها.

.. وإذا كان الأدب هو فن الإبانة عما فى النفس والتعبير الدقيق عن مكنون الحس والتصوير الصادق لصور الحياة.. كما يقول " سانت بوف Sainte-Beuve هو الأسلوب الذى يصور الحقائق الإنسانية .

.. إذا كان ذلك كذلك. وهو كذلك فها هى ذى قصيدة من الأدب العبرى كتبها الشاعر "ناتان يوناتان Natan Yonatan " الذى تنبأ بنهاية إسرائيل بعد خمسين عاما. قال فيها:

بـــــلاد تـــأكـــل أبنـــاءهـــا
تـأكـــل زبـــــدة وعســلا وزرقة
أحيـــانـــا هـــى الأخـــرى تسلب
كبـــــــش الـفـــقـــيـــــر

بـــــلاد تســـتحلـى تـــرابـهـا
مـــالحـــة كـالبكــاء شـــواطئهـــــا
تـــلـــك التـــى منحهـــا أحبـاؤهـــا
علــى قـــدر مـــا استطاعوا العطـاء
كــل ربيـــع تعـــود إليها روعتهـا
كـــى تغطـــى جميع تجاعيد وجهها
ريـــح الصـــيف تعـانــف فــى النــور
حـــــــزن حـــجـــــــارتـــهـــــا
ويعــــود الخــريــف بغيومه الثقيلة
ليغطـــى بـالــرمـادى كـل بسـاتينـها
والشــــتـــاء الـــذى يغلــق بالبكاء
جفـــون عيــــونهـــا البـــاكيـــــة

.. ولا جَرَمَ أن نذكر هذه الواقعة التى أتت على لسان اللواء "محمد رشاد وكيل المخابرات العامة الأسبق" تحت عنوان "مصر لم تزرع أشرف مروان فى إسرائيل" قال فيها:

.. تعتبر قضية أشرف مروان من أهم قضايا الجاسوسية فى القرن العشرين وتحتاج إلى وقفة تحليلية لتقييم أبعاد هذه القضية فى جميع المجالات وانعكاساتها السلبية على الموقف المصرى وخصوصًا حرب أكتوبر ١٩٧٣م، وصولا إلى استخلاص الدروس المستفادة منها،مع الوضع فى الاعتبار أن هذه القضية ومعالجتها لا تدخل فى إطار العمل

الصحفى أو الإعلامى حيث إنها تمس مؤسسات استراتيجية تتحكم فى الأمن القومى المصرى بمفهومه الواسع،ويتطلب الأمر الوصول إلى حقائق هذه القضية وأبعادها وظروفها بعيدًا عن الإثارة أو تسجيل المواقف،وأن ما دفعنى إلى الاقتراب من هذه القضية هو الاتصال المباشر بالمجال الذى تناولته هذه القضية فى هذه الفترة الزمنية. وانطلاقًا من هذا المجال فإن بداية هذه الواقعة قد وردت وبدون تحديد صفة العميل فى تقرير لجنة « أجرانات» التى شكلتها إسرائيل خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣م (٢٢ أكتوبر) لبحث أوجه القصور فى أداء القوات المسلحة الإسرائيلية،حيث ورد فى تقرير اللجنة الذى صدر فى ١٩٧٦م الحقائق التالية:

*إنه فى يوم ٤ أكتوبر ١٩٧٣م وقبل إجازة عيد الغفران فى إسرائيل،والتى تبدأ يوم ٦ أكتوبر،اجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلى المصغر بقيادة رئيسة الوزراء جولدا مائير وبحضور وزير الدفاع والعميد إلياهو زعيرا مدير المخابرات الحربية الإسرائيلية لتقدير موقف نيات مصر العدوانية فى ظل الحشد المصرى على جبهة القناة تحت ساتر المناورة التدريبية للقوات المصرية، وتم فى هذا الاجتماع عرض جميع المعلومات المتوافرة لدى إسرائيل عن الحشود المصرية عن الجبهة ونوايا مصر العدوانية وكان تقدير موقف المخابرات الحربية الإسرائيلية بقيادة إلياهو زعيرا أنه بالرغم من كل هذه الحشود على جبهة القناة فإن مصر غير قادرة على القيام بأية عمليات عسكرية

مؤثرة ضد إسرائيل، وأنها لو تمت فإنها لن تتعدى عمليات هجومية محدودة وغير مؤثرة، وأن القوات الإسرائيلية على الجبهة قادرة على صد أية عمليات عسكرية هجومية من جانب مصر وأن هجومًا منظمًا من جانبها هى وسوريا ضد إسرائيل يعتبر احتمالا ضعيفًا وغير محتمل.

* وبعد الاستماع إلى قرار العميد "إلياهو زعيرا" انتهى الاجتماع وبدأ مجلس الوزراء الإسرائيلى والمسئولون الإسرائيليون فى الاستعداد لقضاء إجازة عيد الغفران خارج العاصمة إلا أنه فى سعت ٢٣٠٠ فى يوم ٥ أكتوبر ١٩٧٣م وصلت إلى جهاز المخابرات الإسرائيلية (الموساد) برقية من أحد عملائه المهمين للغاية والموثوق بمعلوماته بمستوى (A/١) وتفى هذه الدرجة بأن المصدر المذكور فى مركز دائرة اتخاذ القرارات الاستراتيجية ودرجة معلوماته سرى للغاية وتعنى رقم (١) بأن درجة الثقة فى معلوماته عالية للغاية ولا يرقى إليها الشك، وتضمنت البرقية أن مصر وسوريا ستقومان بالهجوم على إسرائيل فى وقت واحد فى آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣م، سعت ١٨٠٠.

* وعلى ضوء ما سبق، فلقد تم استدعاء مجلس الوزراء الإسرائيلى للاجتماع برئاسة جولدا مائير وبدأ الاجتماع سعت ٤٠٠ فجر يوم ٦ أكتوبر واتخذ قرار التعبئة العامة الشاملة اعتبارًا من السادسة من صبيحة يوم ٦ أكتوبر، وبدأت مقدمات الخط الأول الاحتياط الوصول إلى مسارح العمليات فى سيناء والجولان بعد ٨ ساعات من إطلاق كود التعبئة سعت ١٤٠٠ وقت بدء هجوم القوات المصرية والسورية سعت ١٣٥٠ يوم ٦ أكتوبر.

* وبعد صدور تقرير لجنة أجرانات والذى تضمن الواقعة بدون تسمية وصفة العميل (أ/١) فلقد أشارت الاحتمالات فى ذلك الوقت أن يكون هذا التسرب قد تم من القيادة السورية والأردنية والذى أطلقت عليه المخابرات الإسرائيلية الاسم الكودى (بابل).

* وفى بداية عام ٢٠٠٢م، بدأت المصادر فى إثارة هذا الموضوع مرة أخرى بعد نشر الكاتب الأمريكى هوارد بلوم لمقالاته عن هذا الموضوع فى صحيفة الهيرالد تريبيون، والذى كشف فيها إلياهو زعيرا، مدير المخابرات الإسرائيلية فى ذلك الوقت عن عميل (بابل) أشرف مروان، وهو ما أثار مشكلة بين رئيس الموساد وإلياهو زعيرا، لكشفه أحد عملاء جهاز الموساد الإسرائيلى، وبدأت وسائل الإعلام فى تناول هذه القضية بأبعادها المختلفة وبصرف النظر عما ورد بوسائل الإعلام فإن الأمر يتطلب إلقاء الضوء على هذه القضية وصولا إلى الحقائق التى لا تقبل ولا تحتمل الجدل أو الاستنتاجات فى قضية من أهم قضايا التجسس فى القرن العشرين انطلاقا من الحقائق التالية:

* من باب الإنصاف وانطلاقا من الحقائق فإن المصادر قد تناولت روايتين فى هذا المجال، الأولى منها: أن المذكور أشرف مروان قد عرض التعاون مع المخابرات الإسرائيلية من خلال وسيط يتردد عليه للعلاج، والثانية أن المذكور قام بالاتصال مباشرة بالسفارة الإسرائيلية فى لندن وعرض التعاون مع جهاز المخابرات الإسرائيلية، وأيًا كان صدق أى منهما فإن النتيجة النهائية أن المذكور قدم نفسه للمخابرات الإسرائيلية وعرض التعاون معها وهذا هو لب وصلب الموضوع والقضية.

* وانطلاقا مما سبق فإن المذكور كان دافعه للتعاون مع المخابرات الإسرائيلية دافعًا ماديًا بحتًا والتى قدرتها المصادر الإسرائيلية بـ ٢٠ مليون دولار أمريكى.

* وبالإضافة إلى ما سبق فإن سالف الذكر قد حدد أيضًا مستوى اتصاله مع رئيس المخابرات الإسرائيلية (الموساد) مباشرة ضمانًا لأمنه وتحاشيًا لأية عمليات كشف من خلال وسيلة الاتصال باعتبارها أضعف حلقات العملية السرية،واستمر على هذا المنوال طوال فترة تشغيله وبدون أية استثناءات.

* إن المذكور بحكم موقعه الوظيفى داخل هدف يعتبر مجمعً للمعلومات ذات صفة السرى للغاية عن الأمن المصرى بمفهومه الواسع وفى فترة إعادة بناء وتسليح القوات المسلحة ومؤسسات الدولة الأخرى وخصوصًا العاملة فى مجال المعلومات عن إسرائيل عسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا وداخليًا،وهو مكتب سكرتير السيد الرئيس للمعلومات والذى يعتبر هدفًا مغريًا لأى جهاز مخابرات ويتطلب المجازفة والدراسة لاختراقه.

* إنه من وجهة النظر الفنية والمهنية فإن الأمر يتطلب من جهاز المخابرات الإسرائيلى التأكد أولا من دافعه للتعاون ومدى الثقة فى هذا العرض من خلال عينة المعلومات المقدمة من العميل بالإضافة إلى الحصول على وسيلة السيطرة عليه منذ اللحظة الأولى ووضعه تحت الاختبار للتأكد من ولائه الكامل للموساد وبصفة مستمرة منذ عرض التعاون عليها فى أبريل ١٩٦٩م.

ثانيًا : واستكمالا لمرحلة التجنيد تبدأ أهم مرحلة للاستفادة من العميل بتشغيله لتغطية احتياجات المخابرات الإسرائيلية وتقييم إنتاجه بصفة مستمرة مع الوضع فى الاعتبار أن قيمة المعلومة ودرجة سريتها هما اللتان تحددان درجة الثقة فى العميل ومستواه المهنى فى هذا المجال،ومن الواضح أن العميل المذكور قد تجاوز فترة الاختبار وأصبح فى فترة وجيزة مصدر ثقة المخابرات الإسرائيلية من خلال المعلومات التى قدمها منذ عرض التعاون مع الجهاز وخصوصًا أنه قد تقلد المناصب التالية:

* العمل فى مكتب السيد الرئيس جمال عبد الناصر للمعلومات منذ ١٩٦٨م وحتى ١٣ مايو ١٩٧١م.
* عين سكرتير الرئيس أنور السادات للمعلومات منذ ١٥ مايو ١٩٧١ وحتى ١٩٧٤م.
* عين سكرتير الرئيس للاتصالات الخارجية ١٩٧٤.
* رئيس مجلس إدارة الهيئة العربية للتصنيع منذ ١٩٧٥ وحتى مارس ١٩٧٩.
* عين سفيرًا بالخارجية ١٩٨٧م إلا أنه لم يمارس الوظيفة.

.. وإذا ما انتقلنا إلى الصراع العربى - الإسرائيلى والمحاولات العربية لتحرير الأراضى المحتلة بعد نكسة ١٩٦٧م، وخصوصًا مصر لتحرير الأراضى المحتلة فى ظل جمود سياسى دولى لا يبشر بأية أمال لحل هذا الصراع،وتوافر أفضل الأوضاع الدفاعية والقتالية لإسرائيل على الجبهات العربية،الأمر الذى أدى إلى اللجوء للعمل العسكرى باعتباره

الحل الوحيد لكسر هذا الجمود وتحريك الموقف السياسى وكانت عمليات ١٩٧٣م ضد إسرائيل ضرورة ملحة لتحقيق ذلك بالتنسيق مع سوريا وبدأت عمليات تنظيم التعاون والتنسيق بين القيادتين المصرية والسورية سياسيًا وعسكريًا،وتم الاتفاق على تفصيلات الخطة ومرحلة الخداع الاستراتيجى وسعت سوريا لبدء الهجوم ومن هنا نشير إلى التالى:

* إن القيادة المسلحة المصرية طلبت أن تبدأ الحرب فى آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر باعتباره من أفضل التوقيتات لإتاحة الظروف المناسبة لإنشاء الكبارى ليلا لانطلاق القوات المدرعة والمدفعية الثقيلة ووحدات الدفاع الجوى المصاحبة للتشكيلات،إلا أن القيادة السورية المسلحة طلبت أن تكون سعت س فى أول ضوء يوم ٦ أكتوبر لإتاحة الظروف للقوات المهاجمة للعمل طوال النهار لاحتلال الهضبة السورية.

* ووصولا لحل وسط بين التوقيتين،فلقد تم الاتفاق بين القيادتين فى آخر زيارة للفريق أول أحمد إسماعيل لسوريا قبل المعركة يوم ٣ أكتوبر ١٩٧٣م، وبموافقة الرئيس حافظ الأسد على أن يكون توقيت الهجوم سعت ١٤٠٠ يوم ٦ أكتوبر مع الاحتفاظ بسرية هذا التوقيت بينهما لتحقيق المفاجأة الاستراتيجية للعدو.

* وعلى ضوء ما سبق،وبرغم الجدل حول هذا الموضوع وللحكم على قيمته من الناحية العسكرية،فإن النتيجة النهائية وهى الأهم أن العملية (بابل) قد حققت لإسرائيل الإنذار بالهجوم المصرى – السورى وتعبئتها لقواتها اعتبارًا من سعت ٦٠٠ صباح يوم ٦ أكتوبر وأن القوات وصلت لمسارح العمليات منذ بدء الهجوم المصرى – السورى بعد أن

كانت هذه التعبئة مستبعدة وغير واردة فى ذهن القيادات الإسرائيلية فى اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى المنعقد يوم ٤ أكتوبر ١٩٧٣م.

ثالثًا: ازدواجية عميل العملية (بابل) :

* إن ازدواجية العميل تعنى أنه يعمل مع جبهتين متضادتين فى وقت واحد وأحدهما يعلم حقيقة تعامله مع الأخرى مع الوضع فى الاعتبار أن تشغيل العميل المزدوج من أعقد وأصعب عمليات المخابرات ولا يلجأ إليها أى جهاز مخابرات إلا للضرورة القصوى لاعتبارات أمنية وفنية وإنسانية أهمها أن العميل المزدوج إنسان تتنازعه رغبات واتجاهات يحاول تحقيق معظمها لصالحه منهما طبقًا لدافعه الإنسانى للتعاون.

* وبالرغم مما سبق فلقد حسم بيان السيد سامى شرف، سكرتير الرئيس جمال عبد الناصر للمعلومات، هذا الموضوع ونفيه تكليف الملازم أول كيميائى محمد أشرف أبوالوفا مروان بأية مهمة خارج حدود الجمهورية العربية المتحدة منذ التحاقه ١٩٦٨م، بسكرتارية الرئيس جمال عبدالناصر للمعلومات وحتى يوم ١٣ مايو ١٩٧١م، بالإضافة إلى أنه لم يرصد أية معلومات متوافرة عن نشاطه حتى تم الكشف عن تفاصيل العملية (بابل) ٢٠٠٢م، جريدة الدستور بتاريخ ٢٠١٠/١٠/١٦م.

وعلى ضوء ما سبق فإننا نورد الحقائق التالية:

* إن عميل العملية (بابل) قد حقق لإسرائيل أهدافها الاستراتيجية من هذا التعاون وبدون تحفظ وكان كل ما يدور فى مصر كتابًا مفتوحًا للمخابرات الإسرائيلية فى جميع المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والداخلية.

* إن الخداع الاستراتيجى لمصر والذى بدأ من أبريل ١٩٧٣م قد حقق لمصر عدم تعرض قواتها المسلحة لضربة إجهاضية من إسرائيل بالإضافة إلى حائط الصواريخ على الجبهة والذى يغطى المجال الجوى لها لمسافة ١٥كم شرق القناة.

* إن الإنذار بالهجوم من عميل العملية (بابل) يوم ٥ أكتوبر والذى ترتب عليه إعلان التعبئة فى إسرائيل اعتبارًا من يوم ٦ أكتوبر قد حقق لإسرائيل التوازن الدفاعى للنسق الثانى والاحتياطيات القريبة غرب المضايق اعتبارًا من قبل آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣م.

* إن عميل العملية (بابل) لم يخدع إسرائيل بل إن "إلياهو زعيرا"،مدير المخابرات الحربية الإسرائيلية هو الذى خدع نفسه بتقديراته الخاطئة عن نيات وقدرات مصر الهجومية لإفراطه فى الثقة بنفسه والتى لولا الإنذار بالهجوم والبدء فى التعبئة لكانت إسرائيل قد تعرضت لكارثة عسكرية يصعب تداركها لأجيال قادمة.

* إن إصرار العميد "إلياهو زعيرا"، مدير المخابرات الحربية الإسرائيلية على موقفه الثابت بأن مصر غير قادرة على القيام بأية عمليات عسكرية مؤثرة ضد إسرائيل واستبعاد التنسيق مع سوريا قد حد من الاستفادة الكاملة من المعلومات الغزيرة لعميل العملية (بابل) والتى لم تتناول مقومات المقاتل المصرى الذى رفض الهزيمة منذ البداية،وأبى الاستمرار فيها فى حياة الخنادق المهينة وغير الآدمية والتى عندما أتيحت له فرصة الخروج من هذه الخنادق رفض

العودة إليها حتى ولو كلفه ذلك حياته. وبالإضافة إلى ما سبق ولتأكيد واقعة تجسس أشرف مروان لصالح إسرائيل من خلال المصادر المصرية المختلفة تعليقًا على هذه الواقعة وللرد على موضوعين رئيسيين هما:

.. الموضوع الأول: هل كان أشرف مروان عميلًا مزدوجًا؟ نشير فى هذا المجال إلى إفادة السيد المرحوم الوزير أمين هويدى والذى كان مشرفًا على جهاز المخابرات العامة المصرية فى ذلك التوقيت،فى مقابلة مع إحدى القنوات الفضائية تعليقًا على هذا الموضوع بأنه لا يعلم شيئًا عن هذا الموضوع جملة وتفصيلًا، ومن ثم وبالإضافة إلى شهادة سامى شرف - سكرتير الرئيس جمال عبد الناصر فى ذلك التوقيت - فإن أشرف مروان يعتبر عميلًا لإسرائيل وليس عميلًا مزدوجًا.

الموضوع الثانى: هل خدع أشرف مروان إسرائيل بإبلاغهم بأن الهجوم المصرى - السورى يوم ٦ أكتوبر وأن ما حدث كان يوم ٦ أكتوبر؟ نشير فى هذا المجال أيضًا بأن توقيت الهجوم كان فعلًا سعت ١٨٠٠ يوم ٦ أكتوبر حتى يوم ٣ أكتوبر حيث تم تغييره فى دمشق أثناء زيارة المرحوم الفريق أول أحمد إسماعيل لسوريا فى ذلك التاريخ إلى يوم ٦ أكتوبر بدلًا فى الوقت الذى كان فيه أشرف مروان فى لندن والثابت من المقابلة التى تمت مع المرحوم محمد نصير فى إحدى القنوات الفضائية وتعليقًا على هذا الموضوع بأنه استنجد بأشرف مروان،والذى كان موجودًا فى لندن يوم ٤ أكتوبر لمساعدته فى العودة إلى مصر من لندن حيث تم إبلاغه من شركة مصر للطيران بأن المجال الجوى المصرى

مغلقًا للطيران المدنى اعتبارًا من يوم ٦ أكتوبر (تم احتواء هذا الموقف فى حينه من القوات المسلحة وإبلاغ مكاتب مصر للطيران بأن المجال الجوى المصرى مفتوحًا لتلافى كشف توقيت الهجوم)،وهو ما يشير إلى أن أشرف مروان كان موجودًا فى لندن يوم ٥ أكتوبر ١٩٧٣م، والذى يتزامن أيضًا مع وصول البرقية المشار إليها سابقًا إلى جهاز المخابرات الإسرائيلية،والتى تشير إلى قيام مصر وسوريا بالهجوم على إسرائيل يوم ٦ أكتوبر.

.. وفى النهاية وتعليقًا على تصريح الرئيس السابق حسنى مبارك حول هذا الموضوع بأن أشرف مروان قد أدى خدمات جليلة لمصر لم يحن الوقت للكشف عنها فإننا نشير إلى التالى:

* إن هذا التصريح ليس دفاعا عن أشرف مروان بقدر ما هو دفاع عن نفسه،حيث إن أشرف مروان كان صديقًا حميمًا لعائلة مبارك وأسهم مع جمال مبارك فى شراء صفقة ديون مصر،كما أنه كان من ضمن المدعوين لحفل زفاف نجله جمال مبارك، ومن ثم لا يمكن أن يسمح الرئيس السابق حسنى مبارك للإعلام المصرى بالاستمرار فى ترديد أن صديق العائلة كان جاسوسًا إسرائيليًا على مصر لصالح إسرائيل.

.. إذن لولا "بابل" هذا لتغير وجه المعركة وسارت الأمور فى غير المنحنى الذى سارت فيه وليممت وجهها شطر نصر ساحق ماحق لمصر على إسرائيل وبغض النظر عن وجهة النظر هذه فانظر ماذا كتب "فيكتور سجلمان" الكاتب الإسرائيلى إذ قال بعد أن سكتت المدافع:

.. "لقد اختفت تماما أغانى الانتصار التى كانت ترددها إذاعة إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧م (عن شرم الشيخ)، (القدس الذهبية) وحلت محلها اليوم (بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م) أغنية تلاحق إسرائيليين ليل نهار من الإذاعة والتلفاز، وتقول كلمات هذه الأغنية :

.. " باسم الجنود الذين هبطوا والنيران مشتعلة فى أجسادهم

.. باسم.. و باسم.. وباسم

.. أعدك ياصغيرتى العزيزة أن هذه الحرب ستكون الأخيرة.. الأخيرة!!

.. ويعلق الكاتب المذكور ـ كما جاء ـ فى كتاب " الطوفان" للأستاذ "حمدى الكنيسى":

.. " كانت أغانى ٦٧ تعبر عن فرحة الحياة، ولذة النصر، أما اليوم ـ بعد حرب أكتوبر ـ فقد خارت قوى " الأبطال " ولم يسبق فى تاريخ إسرائيل القصير أن شعر الإسرائيليون بمثل هذه الشدة والحدة بالتعطش إلى السلام والهدوء وزوال التوتر. إن الشاغل الرئيسى لرجل الشارع الإسرائيلى يتركز الآن فى الانتهاء من هذه الأمور بسرعة، وفى إعادة الجنود المرابطين على الجبهة، ووضع حد لقائمة القتلى والمفقودين والجرحى، لكى يتسنى له أن يلتقط أنفاسه التى كادت تتوقف. وعندما يقول الجنرال ديان " لسوف نصبح عما قريب، أقوى بكثير مما كنا قبل الحرب " حينما يقول هذا يغضب الإسرائيليون أو يبتسمون باستخفاف.. لقد فقدوا الثقة بوزرائهم وأصبحوا يشكون فى جنرالاتهم السياسيين الذين أخذوا ـ من جانبهم ـ يتبادلون الاتهامات !! وهذا أحد الأدلة على أن صورة إسرائيل " كدولة كبرى تقف راسخة

ومستحكمة للغاية ".. هذه الصورة اختفت مع حرب أكتوبر، وبدون أن تخلف أية آثار ".

.. كانت "جولدا مائير" رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك بمثابة الأم العجوز للإسرائيليين.

.. وقد اكتفوا بأن قالوا لها:

".. معذرة لا بقاء لك بعد ما فعله الطوفان بنا ".

.. انطوت "جولد مائير" على نفسها تتدثر بعزلتها.. واكتفت بتقديم قصة حياتها فى كتاب قالت فيه:

" لاشئ أقسى على نفسى من كتابة ما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣م، فلم يكن حدثا عسكريا رهيبا فقط، وإنما كان مأساة عاشت وسوف تعيش معى حتى الموت".

.. وأردفت "جولدا" قائلة:

("إن صدمتنا لم تتمثل فقط فى الطريقة التى حاربونا بها ولكن لأن عددا من المعتقدات الأساسية التى آمنا بها قد انهارت أمامنا"، "فقط آمنا باستحالة وقوع حرب فى شهر أكتوبر، وأمنا بأننا سوف نتلقى إنذارا مبكرا لكل تحركاتهم قبل نشوب الحرب. وآمنا بقدرتنا التامة على منع المصريين من عبور قناة السويس ".. وقد انهار ذلك كله فجأة.. إن ما حدث شيء لا يمكن وصفه. ويكفى أن أقول إننى لم أستطع أن أبكى وكنت أمضى معظم الوقت فى مكتبى، وأحيانا أذهب إلى غرفة العمليات وكانت هناك اجتماعات متواصلة، وتليفونات من أمريكا.. وأخبار مروعة من الجبهة بينما كانت خسائرنا تمزق قلبى.. !!).

.. ثم ها هى ذى تقول فى محاضرة ألقتها فى تل أبيب :

" إن إسرائيل دولة صغيرة أكثر من اللازم، والشعب الذى يعيش فى إسرائيل صغير جدا. إننى أرى أن خطوات السلام التى تفرضها نتائج الحرب تفرض على كيان إسرائيل وشعبها عبئا ثقيلا".

.. وقد دفع هذا وزارة التعليم الإسرائيلية إلى أن تقوم بتوزيع كتيب صغير " دعت فيه المدرسين إلى تهيئة طلبتهم معنويا لتقبل حقيقة إن دولة إسرائيل أصغر بكثير من تلك التى اعتادوها".

.. وفى مقال للكاتب الإسرائيلى "ألياهو عميكام" بصحيفة "يديعوت أحرونوت" فى ١٩٧٤/٨/٩م:

"إن الانتصار العربى فى حرب أكتوبر قد فرض نتائجه حتى على العالم غير العربى.. فطيلة ست سنوات سمعنا من معلقينا من يقولون ـ وقد ارتسمت على وجوههم ابتسامة حكيمة حمقاء ـ "إن (قرون) إسرائيل انخفضت فى العالم لأن العالم لا يحب المنتصرين ولكنه يتعاطف مع المهزومين". هذا ما كان يقوله معلقونا الحكماء.. وعندما تحقق للعرب الانتصار العظيم فى أكتوبر ١٩٧٣ تبددت ادعاءات هؤلاء المعلقين وسقطت تقديراتهم السابقة إذ وجدنا أن دول أفريقيا قد سارت وراء عيدى أمين فى قطع علاقاتها مع الجانب المهزوم ـ جانبنا ـ كذلك فعلت دول أمريكا اللاتينية.

.. وهكذا لم تعد قرون المسكينة منخفضة فقط، بل إنها لم تعد قائمة على الإطلاق ! ! ".

.. أما دافيد أليعازر رئيس الأركان الإسرائيلى، وصاحب التهديد الشهير " بسحق عظام العرب فقد أعد بيانا ليذاع فى التلفاز الإسرائيلى فى يوم الإثنين الأسود كما أسمته إسرائيل ١٩٧٣/١٠/٨م قال فيه:

.. "خرج اليوم جيش الاحتياط إلى هجوم مضاد، ولكن علّى أن أبلغكم بصدق أن هذا الهجوم فشل فشلا ذريعا، وأن قوات العدو فى البر والجو، قوات هائلة، حتى أجدنى مضطرا إلى الخوف من أن يحطموا عظامنا، إن أقصى ما نستطيع توقعه ـ فى الظروف الحالية ـ هو أن يكتفى المصريون بصدنا فى سيناء !! " .

.. أما بطل إسرائيل الجنرال "موشى ديان" فقد قال فى اليوم الرابع للقتال:

.. "لن أخفى عليكم أن قواتنا فى الجولان وفى قناة السويس فى حالة ذعر تام. ولم يعد لخط بارليف وجود، كما أن أجهزة إشعال مياه القناة صارت خرافة. وأصارحكم بأننى لا أتمنى أن أكون فى هذه اللحظات فى موقف رجال مدرعاتنا.. أما سلاحنا الجوى فقد تم تحييده وقد بلغت خسائرنا فيه ـ فى اليوم الأول فقط ـ ستين طائرة منها ٣٦ طائرة فانتوم".

.. كتب "جون بلوك" فى كتابه "الإعداد للحرب":

.." بعقلية السياسى المحنك، آثر السادات أن يخوض كثيرا من المواقف الصعبة قبل أن يرسل بقواته فى هجومها العاصف على الدفاعات الإسرائيلية لكى تسترد الثقة والكرامة العربية"

.. إن حرب أكتوبر لها أبطالها، لكن البطل الحقيقى هو الرجل الذى أعد المسرح لها ورتق كل شىء، الرجل الذى قرر بهدوء شديد ـ ماذا يجب عمله، ونفذ ما قرره فى وجه صعاب هائلة ومشاكل مريرة.. لقد تجاهل وتجاوز النقد الذى وجه إليه ـ حتى داخل مصر ـ بينما كان يتابع سياسته. وقد أظهر فى النهاية أنه قائد له قدرة على إعطاء القرار.

.. إن (السادات) هو "(هارى ترومان)" العرب، الذى تحققت عظمته، حين أعد لكل شىء عدته كأفضل ما يكون الإعداد".

.. أما "جيمس كالاهان" وزير خارجية بريطانيا فقد عبر عن إعجابه بالسادات فقال:

.. " إن أنور السادات كاسحة ألغام.. إنه يعرض نفسه لكل الخطورة، ولكنه فى النهاية يمهد الطريق أمام الجميع. تماما مثل كاسحة الألغام التى تقتحم المياه التى زرعها العدو بالألغام، لتمهد الطريق وتجعله آمنا أمام غيرها من البوارج والمدمرات وقوارب الطوربيد وغيرها. إن هذا الرجل.. يتصف بالشجاعة والحكمة والبصيرة فى آن واحد".

.. كان السادات قد يئس تماما من وعود الاتحاد السوفيتى له، كما أنهى إلى الأستاذ "أنيس منصور" فى كتابه "أوراق السادات" من إرسال الأسلحة التى طلبتها مصر منه للإعداد للمعركة مرات ومرات خلال مارس ١٩٧١م، مايو ١٩٧١م، أكتوبر ١٩٧١م فأملى على حافظ إبراهيم مستشاره للأمن القومى كما ذكر الأستاذ "موسى صبرى" فى كتابه حرب أكتوبر :

.. "اكتب ياحافظ كلمة سأمليها عليك.. ابتداء من هذه الليلة كل طرق التعامل مع الاتحاد السوفيتى موقوفة. تنهى خدمات الخبراء السوفيت. المبانى العسكرية تعتبر ملكا لمصر. الأسلحة الموجودة بها إما أن تباع لنا صباح ١٧ يوليو أو تسحب ابتداء من ١٧ يوليو، وبالنسبة لتنفيذ المعاهدة المصرية السوفيتية.. لابد أن تجرى مباحثات بين البلدين على أعلى مستوى.. وفى القاهرة ".

.. يذكر التاريخ العسكرى كيف اضطرت بعض الجيوش إلى عبور موانع مائية تقف بينها وبين هدفها، ولكن الصفحات الجديدة التى أضافها التاريخ تقول إن تلك الموانع متمثلة فى الأنهار والقنوات لم تصل فى خطورتها إلى ما وصلت إليه قناة السويس التى كان يتحتم على القوات المصرية عبورها.. فقد تميزت هذه القناة عن غيرها من الموانع المائية بعدة صفات فريدة جعلتها تمثل تحديا خطيرا للمخطط والمنفذ معا.

.. فجوانب القناة لا تنحدر بشكل تدريجى كما هو معروف بالنسبة للأنهار والقنوات العادية، وإنما تقف جوانبها بشكل رأسى تقريبا، وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد، بل إن هذه الجوانب أو الشواطئ مكسوة بالدبش والأسمنت علاوة على ألواح وشرائح من الصلب على جانبى القاع لتقويتها ولتحول دون انهيار الجانبين، وهى بهذا الشكل تمنع نزول وصعود المركبات البرمائية إلا بعد تجهيزات هندسية مسبقة تتطلب أعمالا خاصة.

.. على حافتى القناة ينهض ساتران ترابيان هائلان يصل ارتفاعهما إلى ٢٠ مترا الساتر الذى أقامته القوات المصرية على الضفة الغربية، والذى يتحتم فتح ثغرات واسعة فيه قبل عبور القناة، ثم الساتر الذى أقامه الإسرائيليون على الضفة الشرقية، والذى يتحتم فتح ثغرات واسعة فيه بعد عبور القناة.

.. وحيث إن المرحلة الأولى ستبدأ قبل فتح هذه الثغرات، فإن المقاتلين المشاة سيكون عليهم تسلق الساتر الشاهق الذى يشبه فى ارتفاعه عمارة مكونة من أكثر من ثمانية طوابق.

.. عرض القناة الذى يتراوح بين ١٨٠، ٢٢٠ مترا.. لا يسمح للقوات بالمناورة والانتشار أثناء العبور بل إنه يتسبب فى الازدحام والكثافة مما يجعل القوات هدفا سهلا لضربات العدو.. ويوضح خطورة هذه الصفة ما نعرفه عن الأنهار التى عبرتها جيوش محاربة من قبل، وكيف كان عرضها يصل إلى ألفى مترا.

.. لا يوجد فى القناة مكان ضحل "مخاطة" كما يقول العسكريون، وأهمية هذه "المخاضة " تتمثل فى احتمال أن يضطر المقاتلون إلى الخوض فى المياه على أقدامهم، وهم يحملون أسلحتهم ومعداتهم. ليس هذا فقط بل إنها تعتبر من أعمق الموانع المائية إذ يصل عمقها إلى ١٨ مترا، كما أن سطح الماء ينخفض عن مستوى حافة الشواطئ بحوالى أربعة أمتار الأمر الذى يحتم تكسير وتسوية حافة الشاطئين لكى يتيسر رسو وسائل العبور المختلفة.

.. لم يحدث أن أقيم على طول شواطئ مانع مائى تحصينات دفاعية متصلة مثلما كان الحال بالنسبة لقناة السويس التى أقام الإسرائيليون على شاطئها الشرقى خط بارليف، بالإضافة إلى حقول الألغام الكثيفة جدا التى بثها العدو على الحافة مباشرة، ثم كانت هناك مباشرة، ثم كانت هناك مواسير النابالم التى أعدها الإسرائيليون لتتدفق منها النيران بكميات هائلة تكفى لتحويل القناة كلها إلى قطعة من الجحيم يحول من يقترب منها إلى رماد.

.. التيار المائى فى قناة السويس متغير السرعة من مكان لآخر بل من ساعة إلى أخرى ـ وهذا ما يضيف إلى مشكلة تثبيت رؤوس كبارى العبور.

.. نظرا لأن القناة تصل بين البحر الأبيض والبحر الأحمر، فإن المد والجزر فيها يمثلان مشكلة أخرى إذ يتغير مستوى مياه القناة ٤ مرات خلال اليوم الواحد، ويبلغ فارق المنسوب بين أعلى مد وأدنى جزر حوالى ٦٠ ـ سنتيمترا فى الشمال ويتزايد إلى مترين قرب السويس.

.. تلك هى أبرز الصفات التى تجعل من قناة السويس مانعا مائيا فريدا فى صعوبته وقسوته. ويكفى أن نتوقف أمام القائد الأمريكى البحرى هو الأميرال " ماكولى " حين سأله ضابط مهندس مصرى قائلا:

.. "لو كلف سلاح المهندسين الأمريكى بعبور القناة من الغرب إلى الشرق فكم من الزمن يستغرق ذلك العبور فى عملية حربية ؟"

.. وأجاب الأدميرال الأمريكى على الفور وبلا تردد:

.. "إن ذلك يحتاج إلى ٤٨ ساعة على الأقل".

.. وكان الإسرائيليون قد أقاموا هذا الساتر المانع الترابى العملاق على طول الضفة الشرقية لقناة السويس، وظلوا يزيدون من ارتفاعه حتى وصل إلى ٢٠ مترا زرعوها بحقول الألغام البالغة الكثافة وأنشئ فوق قمته المترامية الأطراف مرابض للدبابات وللعربات المدرعة.. ولو قمنا بعملية حسابية بسيطة لوجدنا أن خط المواجهة الذى يصل إلى ١٧٠ كم يحتوى على ١٣٦٠ مربضا للدبابات والمدرعات.

.. لكان كل هذا كفيلا بوأد عملية العبور فى مهدها.. هذا ناهيك عن السلاح السرى الخطير، فقد كان يخرج من كل نقطة حصينة من نقاط خط بارليف مواسير للمازوت باتجاه مجرى المياه، بمكنتها أن تقيم فى دقائق سدا من النيران واللهب أمام المهاجمين. فضلا عن الأنابيب المملوءة من النابالم والزيوت لتكوين طبقة من النيران فوق سطح المياه تنتهى بفتحات تحت الماء على مسافات متقاربة قادرة على ضخ ٢٠٠ طن من هذه المواد النابالمية الزيتية الكيروسونية، وكانت هذه المواد الملتهبة من القوة والبشاعة حتى إنها فى مكنتها تحويل القناة إلى قطعة من جهنم حتى إنها تشوى الأسماك مهما هربت من القاع وتلفح حرارتها أى شخص يبعد عنها بمسافة ٢٠٠ متر.

.. ولم تكن إسرائيل هى التى ابتكرت هذا المانع النارى إذ إن فكرة إشعال النار فوق الموانع المائية ترجع إلى عام ١٩٤٠م، وكان صاحبها ضابطا إنجليزيا يعمل فى المخابرات، ويدعى "جون بيكر هوايت"

حين لاحظ وجود أنابيب بها ثقوب متصلة بخزانات وقود عند خليج سانت مرجريت بالقرب من دوفر حيث تقف القوات الإنجليزية تأهبا لصد الغزو الألماني.. فأخذ يفكر في إمكانية استغلال هذه الأنابيب والخزانات لإشعال سطح القناة. ونظرا للإمكانيات المحدودة في تلك السنة، فإن العمل اقتصر على نموذج واحد تقريبا، لاستغلاله في حرب نفسية ضد الألمان. وقد نجحت هذه الحرب فعلا في تحقيق هدفها.

.. وقد عرف التاريخ العسكري الخطوط الدفاعية الحصينة قبل أن ينضم إليها خط بارليف الإسرائيلي.

.. فقبيل نشوب الحرب العالمية الأولى أنشأت فرنسا خطا دفاعيا حصينا أطلق عليه "فردون"، وقد قهر الجيش الألماني بقيادة الماريشال " فولكنهاين " - هذا الخط في ٢١ فبراير ١٩١٦م معلنا أنه بذلك قد حطم الكبرياء الفرنسية ودمر معنويات الفرنسيين.

.. وبعد أقل من عشرة أعوام من الحرب العالمية الأولى أنشأت فرنسا خطها الدفاعي الثاني مستفيدة في إنشائه من تجربة خط " فردون "، وقد سمي هذا الخط باسم وزير الدفاع الفرنسي الذي أشرف بنفسه على بنائه، وهو " اندرية ماجينو " على تفادي اقتحامه وآثر أن يقوم بتطويقه فقط والالتفاف من " سيدان " والاندفاع بمدرعاته في اتجاه نهر الميز.

.. عرف التاريخ إذن خط "فردون"، وخط "ماجينو"، وخط "جينسوتا"، وخط "سيجفريد".. وغيرها من الخطوط الدفاعية الحصينة، لكن خط بارليف الإسرائيلي جاء لتظهر كل تلك الخطوط

أقزاما بجانبه. فلقد استفاد الإسرائيليون من كل التجارب التى ارتبطت بتلك الخطوط الحصينة، فنقلوا مزاياها وأضافوا إليها، فى الوقت الذى تلافوا فيه سلبياتها وعيوبها , ليس هذا فقط بل إنهم استفادوا من تجربة حرب الاستنزاف التى تم فيها تدمير ثلثى الخط الأول، فأعادوا بناءه، ثم عادوا فأضافوا إليه المزيد والجديد وكأنهم بذلك قد بنوه وشيدوه على ثلاث مراحل كاملة. هى المرحلة منذ انتهاء حرب يونية ٦٧ ، ثم المرحلة التى بدأت مع حرب الإستنزاف ـ بعد أن وقع القصف المدفعى المصرى العنيف فى سنة ١٩٦٨م واستمرت هذه المرحلة حتى نهاية حرب الاستنزاف فى أغسطس ١٩٧٠م، وبدأت المرحلة الثالثة بمجرد إعلان وقف إطلاق النار وتوقف حرب الاستنزاف ـ ويعترف الإسرائيليون بأن العمل فى هذه المرحلة كان سباقا مع الزمن. راجع كتاب (الطوفان) للأستاذ "حمدى الكنيسى"

.. فى كتاب " ذئب فى قرص الشمس" يقول كاتبه الأستاذ محمد عبد المنعم:

" كان النقيب إيهاب الذى كان يربض على أرض وعرة أمضى ثلاثة أيام كاملة بها دون ماء أو طعام.. يقول لزملائه : " إننى جئت هذه المنطقة أكثر من مرة، وتعلمت وقرأت الكثير جدا عن طبيعة الذئب وأسلوب حياته.. عرفت أن هناك أكثر من أربعين فصيلة من الذئاب.. عرفت أن معظم هذه الفصائل تعيش وحيدة بمفردها.. وعرفت أن طول الذئب يتراوح ما بين ١٢٧ إلى ١٦٤ سنتيمترا ويصل ارتفاعه عن سطح الأرض ٦٥ إلى ٩٠

سم بينما يتراوح وزنه من ١٨ إلى ٨٠ كيلو جراما.. عرفت أيضا أن هناك من فصائل الذئاب ما يعيش فى قطعان يمكن أن يصل حجمها إلى ستة وثلاثين ذئبا، وأن كل قطيع يسيطر على قطعة من البرارى تصل إلى ١٣ ألف كيلومتر مربع.. عرفت وقرأت كل شيء عن حياة الذئاب.. ولكنه لم يكن يهتم إلا بذئب واحد.. لونه بنى غامق يختلف عن باقى ذئاب الصحارى التى يميل لونها إلى الأصفر الذى هو نفس لون البيئة التى يعيش فيها.. وكان من هذه الفصيلة (المتوحدة) بمعنى أنه كان يعيش بمفرده يصول ويجول وحيدا فى هذه الأراضى المترامية.. أراض لا يملكها إنسان.

.. ومن المعلومات الجديدة التى توصل إليها "إيهاب" وبالمجابهة ونزول الميدان يتربع على عرشه هذا الذئب المفترس.. بهذا الأسلوب تلاشى الخوف من أعماق النقيب إيهاب، فقد أصبح "يعرف" كل شيء استعد لكل الاحتمالات.. حتى لو نجا الذئب من "البندقية" و "السنجة" فقد كان صاحبنا يحمل معه مشعلا يستطيع فى لحظات أن يشعل فيه النيران التى تلقى الرعب فى أى نوع من الذئاب.

.. وفى الساعة الثانية من بعد ظهر هذا اليوم السادس من أكتوبر، وفى الوقت الذى كان فيه الجنود على طول جبهة القناة ينفخون بالهواء قوارب " الدنجى " المطاطية التى سيعبرون بها قناة السويس بعد أن صدرت إليهم أخيرا الأوامر بالهجوم والالتحام.. فى هذا الوقت الذى كانت فيه الجبهة بأكملها تنبض شهيقا وزفيرا مع آلاف المنافيخ التى تنفخ آلاف القوارب المطاطية.. مصدرة صوتا رتيبا متناغما.. فى نفس هذا الوقت كانت طائرات القتال فى جميع المطارات والقواعد الجوية

قد أدارت محركاتها.. وبعد لحظات انطلقت تلك الطائرات لتنقض على أهداف حددت لها بعناية شرقى قناة السويس، وبينما كانت تقطع هذه الرحلة من الغرب إلى الشرق كانت طلقات المدافع المحتشدة على طول الجبهة تقطع نفس الرحلة.. وكان جنود المشاة يجدفون بقواربهم فى نفس الاتجاه.. وكذلك الصاعقة والمهندسون والمدرعات.. الجميع اتحدوا كما لو كانوا رجلا واحدا عملاقا يخطو الخطوة التاريخية الجريئة من الغرب إلى الشرق.. إلى خط بارليف.. إلى سيناء.. إلى الشمس المشرقة، لم تكن هذه الحرب هى حرب رجل واحد، أو تشكيل أو سلاح معين.. إنما هى حرب شاملة بكل الأسلحة وكل الرجال تلاحموا جميعا فى سيمفونية رائعة المحصلة النهائية لما يمكن أن يبذله شعب بأسره.

.. فى الساعة الثانية ظهرا بمنطقة "الشيخ سلامة" كان النقيب إيهاب يدير جهاز الترانزستور مستمعًا إلى إذاعة القاهرة التى كانت هى سبيله الوحيد للاتصال بالعالم الخارجى، فيما وراء هذه المنطقة المهجورة التى لا يسكنها أحد.. وفجأة وبدون أى مقدمات أذاع راديو القاهرة (البيان الأول) للقيادة العامة للقوات المسلحة، ثم بعد دقائق البيان الثانى الذى أكد أن قواتنا المسلحة بكامل إمكانياتها تقتحم الآن بالقوة العسكرية جبهة قناة السويس التى تمتد حوالى ثلاثمائة كيلو متر.

.. أيقن إيهاب أن حرب التحرير قد بدأت أخيرا، وأنه رغم كل الظروف خرج من مصر قائد استطاع رغم أنف الجميع أن يتخذ القرار المهيب بالهجوم.. أول قرار بالهجوم على إسرائيل فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى.. وأدرك إيهاب أنه رغم كل الظروف أيضا خرج

أبناء مصر من خنادق كالقبور عاشوا فيها كالموتى ست سنوات كاملة.. ومع ذلك انطلقوا بكل قوة الحياة لتحرير أرضهم.. ودفع تيار الحياة دفعا بجسد مصر الخالدة.

.. قفز إيهاب إلى السيارة الجيب بعد أن جمع كل حاجاته وقاد السيارة مسرعا فى طريق العودة إلى وحدته.. وبعد لحظات، وبعد أن نسى كل شئ عن الحلم والكابوس الذى جاء من أجله هنا فى هذا المكان.. بعد لحظات معدودة إذا به يرى الذئب القاتل أخيرا يتجسد أمامه فوق تبة منخفضة على بعد مائة متر تقريبا.

.. يا إلهى لقد ظل يبحث عنه سنوات وأياما لم يظهر فيها ولو مرة واحدة.. وهاهو ذا يقف غبيا، بشعا، وحقيقة جافة مجردة، كما لو كان يريد أن يمنع صاحبنا من أداء واجبه الأول فى الحياة.

.. توقف إيهاب بالسيارة وأطفأ المحرك.. ومازال الذئب يقف متحديا.. بهدوء شديد أخرج بندقيته، ثم بدأ ينفذ خطوات مدروسة سبق أن فكر فيها أكثر من ألف مرة " حسنا أيها الذئب الخبيث إنك تتقدم عندما تشعر أن الذى أمامك طريح الأرض لا يتحرك. نعم إنك تتقدم الآن بخطى بطيئة حثيثة واعية.. وسأظل أنا لا أتحرك كما لو كنت جثة هامدة.. حسنا إنك اقتربت الآن أكثر، وأدركت أننى لا أتحرك نعم لقد بدأت تسرع خطاك قليلا... لقد سال لعابك.. لقد احتوى كيانك البائس كل الشراسة والوحشية.. لقد أصبحت على بعد أمتار منى أيها الغبى ".

.. وهنا تحرك إيهاب الذى كان يضغط طوال الوقت بسبابته على

زناد البندقية، وأطلق ستا وثلاثين طلقة على رأس الذئب الذى سقط صريعا دون حركة واحدة.. أخرج إيهاب خزينة أخرى، فى رأس وجسد الذئب الملقى تحت أقدامه. وبعد نفوقه جثة هامدة.!

.. وهكذا قتل جنود مصر جميع ذئاب إسرائيل.!

.. وتحطمت حصون إسرائيل.. "حصن كتوفا" فقد قتل قائده، وسقط ستة من أفراده جرحى.. و"حصن "أوركل"" الواقع فى الطرف الشمالى للقناة الذى نزل الجندى المصرى إلى داخله وسحب منه جنود إسرائيل الذين كانوا يختبئون داخله خائفين مذعورين ويرتعدون من هول الموقف وبدأ يسحبهم بالقوة واحدا إثر واحد، وذلك بعد أن ولى الكثير من جنود إسرائيل هاربين وهم فى حالة من الهيستريا العنيفة.. وكذلك حصن " أورك ٣" الذى رفع جنوده علما أبيض فوقه طالبين تسليم أنفسهم.. فضلا عن حصن "بودابست" الذى اتصل قائده بضابط العمليات يقول له "إننى متنازل عن المساعدة الجوية". إن طائراتنا الفانتوم والميراج التى جاءت لنجدة الحصن تتساقط أمامنا كالعصافير. إننى متنازل عن المساعدة الجوية فالخسائر فى الطائرات فادحة. إن جميع الطائرات التى تصل تسقط بالصواريخ المصرية. تسقط كلها. كلها.. وجاء سقوط "حصن لسان بورتوفيق" مدويا فلقد أحضر المصريون رجال الصحافة والإذاعة والتلفاز المصريين والأجانب ليشهدوا استسلام الحصن.. وكذلك استسلم حصن "بوركان".. أما حصن "ميلانو" فقد انسحب ضباطه وجنوده فارين فى الصحراء، وحينما اكتشفوا وجود كمائن من المشاة المصريين فى طريقهم اختبئوا بين الأعشاب البرية فى منطقة المستنقعات المالحة.

.. وبينما كانت كتيبة مدرعات إسرائيلية تحاول أن تهرب من كمين مصرى قامت بحصد هذه المنطقة "العشبية" بالنيران على افتراض وجود كمين آخر من قوات الكوماندوز المصريين.. وهكذا فإن هذه القوة التى كانت قد نجحت فى الفرار من جهنم المصرية .

.. ويقول الملازم الإسرائيلى "مفتال" الذى كان واحدا من الأسرى الذين وقعوا فى أيد القوات المصرية :

.. " كنا نتقدم بدباباتنا متجهين بسرعة نحو الفردان وقبل أن نصل بثلاثة كيلومترات.. رأيت بقعا تقفز من الحفر ومن وراء التلال. كانوا رجالا يتحركون وبعضهم كانوا يحملون أشياء تشبه الصناديق السوداء.. ولم أعرف فى البداية ماذا يعنى هذا ؟!!

.. ويردف قائلا: " لقد جمعنا المصريين أسرى كالثمار المعطوبة، وقد اضطر بعضهم إلى رفع خرائط الحرب بأيديهم إلى أعلى طالبين الاستسلام لأنه لم يجدوا غيرها ليرفعوها"

.. وقد كانت هذه الخرائط غنيمة رائعة كشفت جزءا من خطط العدو. أما الجنود فقد تم نقلهم على الفور إلى مركز تجميع الأسرى الإسرائيليين فى الخلف بالقرب من الضفة الشرقية للقناة.

.. وهكذا نجح السادات فى إعداد الجيش المصرى الذى قاده لتحقيق نصر أكتوبر المؤذر[١].

❑❑❑



---

(١) راجع "حمدى الكنيسى" المرجع السابق.

تحليل شخصية السادات

كانت مصر مسكونة بالسادات وكان السادات عاشقا لمصر محبا لها وهبها حياته وضحى بها فى سبيلها. هو الآخر مسكونا بها !.

.. بعد توسده كرسى الحكم كانت الكثرة الغالبة من بعض دول العالم ناهيك عن البلاد العربية وكذلك المصريون يرون أن السادات لن يملأ الفراغ الذى تركه «جمال عبد الناصر» بموته.

.. كان الرأى العام Public opinon قد عقد رأيه على السادات فى ذلك الشعور تجاهه مما شكل فى نفسية السادات قهرا وقسرا بل مأساة Tragedy قوتَّ من عزيمته وزادت من صلابته فى أن يمضى فى طريقه المرسوم نحو إعلاء شأن مصر وطرد المحتل الإسرائيلى من أرضها، وأصبح يخاطب الشعب عبر الأثير ومن خلال التلفاز بحديث هو أشبه (بحديث المدفأة) الذى كان ينتهجه الرئيس الأمريكى " روزفلت " لأنه كان يريد اتصاله على مستوى الإعلام الداخلى والخارجى بالشعب مباشرة مما أكد وعيه الإعلامى الباكر ولم يفصل باتصاله هذا بين الأقوال والأفعال.

.. كانت "عناقيد الغضب" The Grapes wrath كما عبر الأديب العالمى جون شتاينبك John Steinbeck لما تزل تسقط على أم رأس السادات فى كل حين :

فلا الشعب مل الأمير القديم
ولا بالأمير الجديد افتتن

.. ولكنه نجح فى إزالتها باتصاله الدائم بالشعب وصدقه فيما ينهه إليه. فمن المقرر فى أنه عندما يشعر المتلقى «Receiver» باحترام المتحدث إليه فإنه يبادله الثقة فى شخصه والإعجاب المتبادل بينهم.

.. وملأ السادات فراغ عبد الناصر وفتح المعتقلات وقضى على دولة المخابرات التى كان شغلها الشاغل هو المواطن المصرى من أجل التربص به والترصد له.

.. وأصبح السادات كما يذكر المؤرخ «وليم بيرنشتاين»، من ملوك الكلمة Masters of the world التى مست شغاف بعض القلوب وعميت الأفهام الأخرى عن استيعابها فالكل كان على (عجلة) من أمره من أن يسمع خبرا عن حرب التحرير لكل ما يعتمل فى قلبه من حبه لوطنه وكراهة لإسرائيل

.. ويقول أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» فى هذا الصدد:

«إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه (أناة) فلو أمضيناه عليهم ؟ فأمضاه عليهم».

.. وتأنَّى السادات وفكر ودبر ولجأ إلى دهائه حتى قاد المصريين إلى النصر المبين

.. فى معركة القادسية قال عمربن الخطاب :

.. « والله لأرمين ملوك العجم بملوك العرب».

وكأن السادات هو الآخر قال:

.. «والله لأرمين قادة إسرائيل وجيشها بقادة مصر وجيشها».

.. يحكى التاريخ الإسلامى أن امرأة مسلمة استصرخت «المعتصم بالله» عندما وقعت أسيرة فى جيش الروم فى إحدى المعارك مع المسلمين فلما علم «المعتصم بالله» بهذا الأمر أرسل رسالة مهينة لقائد جيش الروم قال له فيها :

«من المعتصم بالله خليفة المسلمين إلى (كلب الروم): !

أما بعد

بلغنى أن امرأة مسلمة أسيرة فى جيشكم فو الله الذى لا إله غيره إن لم ترسل المرأة الموحدة إلى ديارها معززة مكرمة لأرسلن لك جيشا أوله عندكم وآخره عندنا»

.. فلما وصلت الرسالة إلى قائد جيش الروم وقرأها ارتعدت فرائصه من الخوف وأرسل المرأة معززة مكرمة وفى صحبة نسوة من الرومان لأنه يعلم عزة هذا الدين.

.. كان السادات يعلم يقينا أن جنود مصر خير أجناد الأرض كما ذكر الرسول «عليه الصلاة والسلام» ورمى السادات جنود إسرائيل بخير أجناد الأرض.

.. وانتصرت مصر على إسرائيل فى حرب أكتوبر انتصارا حربيا ومعنويا طبق الأفاق وارتج العالم له بأسره.

.. وعندما خطب السادات بمجلس الشعب المصرى عام ١٩٧٧م قائلا :

.. «إنه مستعد أن يذهب إلى آخر العالم بما فى ذلك إسرائيل للتفاوض واسترداد مصر لجميع أراضيها المحتلة بالطرق السليمة».

.. وفى ٩ نوفمبر ١٩٧٧م أعلن السادات أنه مستعد أن يذهب إلى إسرائيل من أجل التباحث حول مفاوضات السلام مع الجانب الإسرائيلى وفى الكنيست الإسرائيلى ذاته(البرلمان الإسرائيلى) وسارعت إسرائيل بدعوة السادات إلى زيارة القدس ظنا منها أن كلام السادات لم يكن إلا للاستهلاك المحلى أو حماسة زائدة وأنها بذلك تحرج السادات رئيس أكبر دولة عربية أمام الرأى العام العربى والعالمى .وقبل زيارة القدس سافر الرئيس السادات إلى سوريا فى محاولة لإقناع الرئيس السورى حافظ الأسد بالمشاركة فى تلك المبادرة وتأييدها ولكن الرئيس السورى رفض ذلك وقال للسادات إن الأيام سوف تثبت لك أنك مخطئ ولكن مع مرور الأيام أثبتت الأيام عكس ذلك وأن الرئيس السورى هو الذى كان مخطئا وأن إسرائيل تقوى باستعداء العرب.

.. فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧م قام السادات بزيارة إسرائيل وسط دهشة وانبهار العالم بهذه الزيارة التى وصفها البعض من الذين عايشوها وشاركوا فيها بأنها كانت بمثابة الهبوط على سطح القمر وسط تغطية إعلاميه من العالم كله ,وفى إسرائيل ألقى السادات خطابه الشهير فى الكنيست الإسرائيلى الذى قال فيه (ونثبته هنا للتاريخ) حيث إنه كان خطابا جامعا شاملا لكل أبعاد القضية العربية برمتها:

.. اسمحوا لى أولا أن أتوجه إلى السيد رئيس الكنيست بالشكر الخاص، لإتاحته هذه الفرصة، لكى أتحدث إليكم. وحين أبدأ حديثى أقول:

السلام عليكم ورحمة الله، والسلام لنا جميعا، بإذن الله.

السلام لنا جميعا، على الأرض العربية وفى إسرائيل، وفى كل مكان من أرض هذا العالم الكبير، المعقّد بصراعاته الدامية، المضطرب بتناقضاته الحادّة، المهدّد بين الحين والحين بالحروب المدمِّرة، تلك التى يصنعها الإنسان، ليقضى بها على أخيه الإنسان. وفى النهاية، وبين أنقاض ما بنَى الإنسان، وبين أشلاء الضحايا من بنِى الإنسان، فلا غالب ولا مغلوب، بل إنّ المغلوب الحقيقى دائما هو الإنسان، أرقى ما خلقّه الله. الإنسان الذى خلقه الله، كما يقول غاندى، قدّيس السلام، «لكى يسعى على قَدَميه، يبنى الحياة، ويعبد الله».

وقد جئت إليكم اليوم على قَدَمَيْن ثابتَيْن، لكى نبنى حياة جديدة، لكى نُقِيم السلام. وكلنا على هذه الأرض، أرض الله، كلنا، مسلمين ومسيحيين ويهود، نعبد الله، ولا نشرك به أحدا. وتعاليم الله ووصاياه، هى حب وصدق وطهارة وسلام.

وإننى ألتمس العذر لكل من استقبل قراري، عندما أعلنته للعالم كله أمام مجلس الشعب المصرى، بالدهشة، بل الذهول. بل إن البعض، قد صوّرت له المفاجأة العنيفة، أن قرارى ليس أكثر من مناورة كلامية للاستهلاك أمام الرأى العام العالمى، بل وصفه البعض الآخر بأنه تكتيك سياسى، لكى أخفى به نواياى فى شنّ حرب جديدة.

ولا أخفى عليكم أن أحد مساعدىّ فى مكتب رئيس الجمهورية، اتصل بى فى ساعة متأخرة من الليل، بعد عودتى إلى بيتى من مجلس

الشعب،ليسألنى، فى قلق: وماذا تفعل،يا سيادة الرئيس،لو وجّهت إليك إسرائيل الدعوة فعلا؟ فأجبته،بكل هدوء: سأقْبلها على الفور.

لقد أعلنت أننى سأذهب إلى آخِر العالم. سأذهب إلى إسرائيل،لأننى أريد أن أطرح الحقائق كاملة أمام شعب إسرائيل.

إننى ألتمس العذر لكل من أذهله القرار،أو تشكك فى سلامة النوايا وراء إعلان القرار. فلم يكن أحد يتصور أن رئيس أكبر دولة عربية،تتحمل العبء الأكبر والمسؤولية الأولى فى قضية الحرب والسلام فى منطقة الشرق الأوسط،يمكن أن يعرض قراره بالاستعداد للذهاب إلى أرض الخصم. ونحن لا نزال فى حالة حرب،بل نحن جميعا لا نزال نعانى آثار أربع حروب قاسية خلال ثلاثين عامًا،بل إن أُسَر ضحايا حرب أكتوبر ١٩٧٣م، لا تزال تعيش مآسى الترمل، وفقْد الأبناء،واستشهاد الآباء والإخوان.

كما أننى، كما سبق أن أعلنت من قبل، لم أتداول هذا القرار مع أحد من زملائى وإخوتى، رؤساء الدول العربية، أو دول المواجهة. ولقد اعترض من اتصل بى منهم، بعد إعلان القرار، لأن حالة الشكّ الكاملة،وفقدان الثقة الكاملة، بين الدول العربية والشعب الفلسطينى، من جهة،وبين إسرائيل من جهة أخرى، لا تزال قائمة فى كل النفوس. ويكفى أن أشهرًا طويلة، كان يمكن أن يحلّ فيها السلام. قد ضاعت سدى،فى خلافات ومناقشات لا طائل منها حول إجراءات عقد مؤتمر جنيف، وكلها تعبّر عن الشك الكامل وفقدان الثقة الكاملة.

ولكننى أصارحكم القول بكل الصدق، أننى اتخذت هذا القرار بعد تفكير طويل،وأنا أعلم أنه مخاطرة كبيرة، لأنه إذا كان الله قد كتب لى قدرى أن أتولى المسؤولية عن شعب مصر، وأن أشارك فى مسؤولية المصير، بالنسبة إلى الشعب العربى وشعب فلسطين، فإنّ أول واجبات هذه المسؤولية، أن أستنفد كل السبُل، لكى أجنّب شعبى المصرى العربى، وكل الشعب العربى، ويلات حروب أخرى، مُحَطمة، مُدمرة، لا يعلم مداها إلاّ الله.

وقد اقتنعت بعد تفكير طويل،أن أمانة المسؤولية أمام الله، وأمام الشعب، تفرض علىّ أن أذهب إلى آخِر مكان فى العالم، بل أن أحضر إلى بيت المقدس، لأخاطب أعضاء الكنيست، ممثلى شعب إسرائيل، بكل الحقائق التى تعتمل فى نفسى، وأترككم،بعد ذلك، لكى تقرروا لأنفسكم. وليفعل الله بنا،بعد ذلك، ما يشاء.

أيها السيدات والسادة

إنّ فى حياة الأمم والشعوب لحظات، يتعين فيها على هؤلاء الذين يتّصفون بالحكمة والرؤية الثاقبة، أن ينظروا إلى ما وراء الماضى، بتعقيداته ورواسبه، من أجل انطلاقة جسور نحو آفاق جديدة.

وهؤلاء الذين يتحملون، مثلنا، تلك المسؤولية الملقاة على عاتقنا،هم أول من يجب أن تتوافر لديهم الشجاعة لاتخاذ القرارات المصيرية، التى تتناسب مع جلال الموقف. ويجب أن نرتفع جميعًا فوق جميع صور التعصب،وفوق خداع النفس،وفوق نظريات التفوق البالية. ومن المهم ألاّ ننسى أبدًا أن العصمة لله وحده.

وإذا قلت إننى أريد أن أجنّب كل الشعب العربى ويلات حروب جديدة مفجعة. فإننى أعلن أمامكم، بكل الصدق، أننى أحمل نفس المشاعر،وأحمل نفس المسؤولية، لكل إنسان فى العالم،وبالتأكيد نحو الشعب الإسرائيلى.

فإن الروح،التى تُزهق فى الحرب، هى روح إنسان، سواء كان عربيًا أو إسرائيليًا. إنّ الزوجة التى تترمل، هى إنسانة، من حقّها أن تعيش فى أسرة سعيدة،سواء كانت عربية أو إسرائيلية.

إنّ الأطفال الأبرياء،الذين يفقدون رعاية الآباء وعطفهم،هم أطفالنا جميعًا،على أرض العرب،أو فى إسرائيل،لهم علينا المسؤولية الكبرى فى أن نوفر لهم الحاضر الهانىء، والغد الجميل.

من أجل كل هذا، ومن أجل أن نحمى حياة أبنائنا وأخواتنا جميعًا،من أجل أن تُنتج مجتمعاتنا، وهى آمنة مطمئنة،من أجل تطور الإنسان وإسعاده وإعطائه حقّه فى الحياة الكريمة،من أجل مسؤوليتنا أمام الأجيال المقبلة، من أجل بسمة كل طفل يولد على أرضنا. من أجل كل هذا،اتخذت قرارى أن أحضر إليكم،رغم كل المحاذير، لكى أقول كلمتى.

ولقد تحملت وأتحمل متطلبات المسؤولية التاريخية. ومن أجل ذلك،أعلنت من قبل، ومنذ أعوام،وبالتحديد فى ٤ فبراير ١٩٧١م، أننى مستعد لتوقيع اتفاق سلام مع إسرائيل. وكان هذا أول إعلان يصدر عن مسؤول عربى، منذ أن بدأ الصراع العربى - الإسرائيلى. وبكل

هذه الدوافع، التى تفرضها مسؤولية القيادة، أعلنت فى السادس عشر من أكتوبر ١٩٧٣م، وأمام مجلس الشعب المصري، الدعوة إلى مؤتمر دولي، يتقرر فيه السلام العادل الدائم.

ولم أكن، فى ذلك الوقت، فى وضع مَن يستجدى السلام أو يطلب وقف النار. وبهذه الدوافع كلها، التى يلزم بها الواجب التاريخى والقيادي، وقّعنا اتفاق فكِّ الاشتباك الأول، ثم اتفاق فكِّ الاشتباك الثانى فى سيناء. ثم سعينا نطرق الأبواب، المفتوحة والمغلقة، لإيجاد طريق معين نحو سلام دائم، عادل. وفتحنا قلوبنا لشعوب العالم كله، لكى نتفهم دوافعنا وأهدافنا، ولكى نقتنع فعلا أننا دعاة عدل وصنّاع سلام.

وبهذه الدوافع كلها، قررت أن أحضر إليكم، بعقل مفتوح وقلب مفتوح وإرادة واعية، لكى نُقِيم السلام الدائم، القائم على عدل.

وشاءت المقادير أن تجىء رحلتى إليكم، رحلة السلام، فى يوم العيد الإسلامى الكبير، عيد الأضحى المبارك، عيد التضحية والفداء، حين أسلم (إبراهيم) – عليه السلام، جدُّ العرب واليهود. أقول حين أمره الله، وتوجّه إليه بكل جوارحه، لا عن ضعف، بل عن قوة روحية هائلة، وعن اختيار حرّ للتضحية بفلذة كبده، بدافع من إيمانه الراسخ، الذى لا يتزعزع، بمُثُلٍ عليا تعطى الحياة مغزى عميقًا. ولعلّ هذه المصادفة، تحمل معنا جديدا فى نفوسنا جميعا، لعلّه يصبح أملا حقيقيا فى تباشير الأمن والأمان والسلام.

أيها السيدات والسادة

دعونا نتصارح، بالكلمة المستقيمة، والفكرة الواضحة، التى لا تحمل أى التواء. دعونا نتصارح اليوم، والعالم كله، بغربه وشرقه، يتابع هذه اللحظات الفريدة، التى يمكن أن تكون نقطة تحوّل جذرى فى مسار التاريخ فى هذه المنطقة من العالم، إن لم يكن فى العالم كله.

دعونا نتصارح، ونحن نجيب عن السؤال الكبير: كيف يمكن أن نحقق السلام الدائم، العادل؟

لقد جئت إليكم أحمل جوابى الواضح الصريح عن هذا السؤال الكبير، لكى يسمعه الشعب فى إسرائيل، ولكى يسمعه العالم أجمع، ولكى يسمعه أيضا كل أولئك، الذين تصل أصوات دعواتهم المخلصة إلى أذنى، أملا فى أن تتحقق، فى النهاية، النتائج التى يرجوها الملايين من هذا الاجتماع التاريخى.

وقبل أن أعلن جوابى، أرجو أن أؤكد لكم، أننى أعتمد، فى هذا الجواب الواضح الصريح، على حقائق عدة، لا مهرب لأحد من الاعتراف بها:

الحقيقة الأولى، أنه لا سعادة لأحد على حساب شقاء الآخرين.

الحقيقة الثانية، إننى لم أتحدث ولن أتحدث بلُغَتَيْن، ولم أتعامل ولن أتعامل بسياستَيْن. ولست أتعامل مع أحدٍ، إلاّ بلُغة واحدة، وسياسة واحدة، ووجْه واحد.

الحقيقة الثالثة، إنّ المواجهة المباشرة والخط المستقيم، هما أقرب الطرق وأنجحها للوصول إلى الهدف الواضح.

الحقيقة الرابعة، إنّ دعوة السلام الدائم، العادل، المَبْنى على احترام قرارات الأمم المتحدة، أصبحت اليوم دعوة العالم كله، وأصبحت تعبيرًا واضحًا عن إرادة المجتمع الدولى، سواء فى العواصم الرسمية، التى تصنع السياسة وتتخذ القرار، أو على مستوى الرأى العام العالمى الشعبى، ذلك الرأى العام الذى يؤثِّر فى صنع السياسة واتخاذ القرار.

الحقيقة الخامسة، ولعلّها أبرز الحقائق وأوضحها، إنّ الأمة العربية لا تتحرك فى سعيها من أجل السلام الدائم، العادل، من موقع ضعف أو اهتزاز، بل إنها على العكس تمامًا، تملك من مقومات القوة والاستقرار ما يجعل كلمتها نابعة من إرادة صادقة نحو السلام. صادرة عن إدراك حضارى أنه لكى تتجنب كارثة محقّقة، علينا وعليكم وعلى العالم كله، فإنه لا بديل من إقرار سلام دائم، وعادل، لا تزعزعه الأنواء، ولا تعبث به الشكوك، ولا يهزه سوء المقاصد أو التواء النوايا.

من واقع هذه الحقائق، التى أردت أن أضعكم فى صورتها كما أراها، أرجو أيضًا أن أحذركم، بكل الصدق، أحذركم من بعض الخواطر، التى يمكن أن تطرأ على أذهانكم.

إن واجب المصارحة يقتضى أن أقول لكم ما يلى:

أولا: إننى لم أجئ إليكم لكى أعقد اتفاقًا منفردًا بين مصر وإسرائيل. ليس هذا واردًا فى سياسة مصر. فليست المشكلة هى مصر وإسرائيل. وأى سلام منفرد بين مصر وإسرائيل، أو بين أية دولة من دول المواجهة وإسرائيل، فإنه لن يُقِيم السلام الدائم، العادل، فى المنطقة كلها. بل أكثر

من ذلك،فإنه حتى لو تحقق السلام بين دول المواجهة كلها وإسرائيل، بغير حل عادل للمشكلة الفلسطينية، فإنّ ذلك لن يحقق أبدًا السلام الدائم، العادل، الذى يلحّ العالم كله اليوم عليه.

ثانيا: إننى لم أجئ إليكم لكى أسعى إلى سلام جزئى، بمعنى أن ننهى حالة الحرب فى هذه المرحلة،ثم نرجئ المشكلة برمّتها إلى مرحلة تالية. فليس هذا هو الحل الجذرى، الذى يصل بنا إلى السلام الدائم.

ويرتبط بهذا، أننى لم أجئ إليكم لكى نتفق على فضِّ اشتباك ثالث فى سيناء،أو فى سيناء والجولان والضفة الغربية. فإنّ هذا يعنى أننا نؤجل فقط اشتعال الفتيل إلى أى وقت مقبل،بل هو يعنى، أننا نفتقد شجاعة مواجهة السلام، وأننا أضعف من أن نتحمل أعباء ومسؤوليات السلام الدائم، العادل.

لقد جئت إليكم لكى (نبنى معًا السلام الدائم)، (العادل)، حتى لا تُراق نقطة دم واحدة من جسد عربى أو إسرائيلى. ومن أجل هذا، أعلنت أننى مستعدّ لأن أذهب إلى آخِر العالم.

وهنا نعود إلى الإجابة عن السؤال الكبير: كيف نحقق السلام الدائم،العادل؟

فى رأيى، وأعلنها من هذا المنبر للعالم كله،أن الإجابة ليست مستحيلة، ولا هى بالعسيرة،على الرغم من مرور أعوام طويلة من ثأر الدم، والأحقاد والكراهية، وتنشئة أجيال على القطيعة الكاملة،

والعداء المستحكم. الإجابة ليست عسيرة، ولا هى مستحيلة، إذا طرقنا سبيل الخط المستقيم بكل الصدق والأمانة.

أنتم تريدون العيش معنا فى هذه المنطقة من العالم. وأنا أقول لكم، بكل الإخلاص، إننا نرحب بكم بيننا، بكل الأمن والأمان.

إنّ هذا فى حد ذاته، يشكّل نقطة تحوّل هائلة من علامات تحوّل تاريخى حاسم.

لقد كنّا نرفضكم، وكانت لنا أسبابنا ودعوانا.. نعم.

لقد كنّا نرفض الاجتماع بكم، فى أى مكان.. نعم.

لقد كنّا نصفكم بإسرائيل المزعومة.. نعم.

لقد كانت تجمعنا المؤتمرات أو المنظمات الدولية، وكان ممثلونا، ولا يزالون، لا يتبادلون التحية والسلام.. نعم.

حدث هذا، ولا يزال يحدث.

لقد كنّا نشترط لأى مباحثات وسيطًا، يلتقى كل طرف على انفراد.. نعم.

هكذا تمّت مباحثات فضّ الاشتباك الأول. وهكذا أيضًا تمّت مباحثات فضّ الاشتباك الثاني.

كما أن ممثلينا التقوا فى مؤتمر جنيف الأول، دون تبادل كلمة مباشرة.. نعم. هذا حدث.

ولكننى أقول لكم اليوم، وأعلن للعالم كله، إننا نقبل بالعيش معكم فى سلام دائم وعادل. ولا نريد أن نحيطكم أو أن تحيطونا بالصواريخ المستعدة للتدمير، أو بقذائف الأحقاد والكراهية.

ولقد أعلنت أكثر من مرة، أن إسرائيل أصبحت حقيقة واقعة، اعترف بها العالم، وحملت القوّتان العُظميان مسؤولية أمنها وحماية وجودها. ولما كنّا نريد السلام، فعلا وحقًّا، فإننا نرحب بأن تعيشوا بيننا، فى أمن وسلام، فعلا وحقًّا.

لقد كان بيننا وبينكم جدار ضخم مرتفع، حاولتم أن تبنُوه على مدى ربع قرن من الزمان. ولكنه تحطم فى عام ١٩٧٣م.

كان جدارًا من الحرب النفسية، المستمرة فى التهابها وتصاعدها.

كان جدارًا من التخويف بالقوة، القادرة على اكتساح الأمة العربية، من أقصاها إلى أقصاها.

كان جدارًا من الترويج، أننا أمّة تحولت إلى جثة بلا حراك، بل إن منكم من قال إنه حتى بعد مضىّ خمسين عامًا مقبلة، فلن تقوم للعرب قائمة من جديد.

كان جدارًا يهدد دائما بالذراع الطويلة، القادرة على الوصول إلى أى موقع وإلى أى بُعد.

كان جدارًا يحذرنا من الإبادة والفناء، إذا نحن حاولنا أن نستخدم حقّنا المشروع فى تحرير أرضنا المحتلة.

وعلينا أن نعترف معًا بأن هذا الجدار، قد وقع وتحطم فى عام ١٩٧٣م، ولكن، بقى جدار آخر. هذا الجدار الآخر، يشكل حاجزًا نفسيًا معقّدًا بيننا وبينكم. حاجزًا من الشكوك، حاجزًا من النفور، حاجزًا من خشية الخداع، حاجزًا من الأوهام حول أى تصرف أو فعل أو قرار، حاجزا من التفسير الخاطئ لكل حدث أو حديث.

وهذا الحاجز النفسى، هو الذى عبّرت عنه فى تصريحات رسمية، بأنه يشكّل سبعين فى المائة من المشكلة.

وإننى أسألكم اليوم، بزيارتى لكم، لماذا لا نمدّ أيادينا، بصدقٍ وإيمانٍ وإخلاصٍ، لكى نحطم هذا الحاجز معًا؟

لماذاً لا تتفق إراداتنا، بصدقٍ وإيمانٍ وإخلاصٍ، لكى نزيل معًا كل شكوك الخوف والعذر والتواء المقاصد وإخفاء حقائق النوايا؟

لماذا لا نتصدى معًا، بشجاعة الرجال، وبجسارة الأبطال، الذين يهَبون حياتهم لهدف أسمَى؟

لماذا لا نتصدى معًا، بهذه الشجاعة والجسارة، لكى نُقِيم صرحًا شامخًا للسلام، يحمى ولا يهدِّد، يشعّ لأجيالنا القادمة أضواء الرسالة الإنسانية نحو البناء والتطور ورفعة الإنسان؟

لماذا نُورِث هذه الأجيال نتائجَ سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وتيتيم الأطفال، وترمل الزوجات، وهدم الأسر، وأنين الضحايا؟

لماذا لا نؤمن بحكمة الخالق، التى أوردها فى أمثال سليمان الحكيم:

«الغش فى قلب الذين يفكرون فى الشرّ. أما المبشرون بالسلام، فلهم فرح».

«لقمة يابسة، ومعها سلامة، خير من بيت ملىء بالذبائح، مع الخصام».

لماذا لا نردّد معًا من مزامير داود النبى:

«إليك، يا رب، أصرخ. اسمع صوت تضرعى، إذا استغثت بك. وأرفع يدى إلى محراب قُدْسك، لا تجذبنى مع الأشرار ومع فَعَلة

الإثم،المخاطبين أصحابهم بالسلام،والشرّ فى قلوبهم. أعطهم حسب فِعلهم،وحسب شر أعمالهم. أطلب السلامة وأسعى وراءها».

أيها السادة

الحق أقول لكم،إن السلام لن يكون اسمًا على مسمّى،ما لم يكن قائمًا على العدالة،وليس على احتلال أرض الغير. ولا يَسُوغ أن تطلبوا لأنفسكم ما تنكرونه على غيركم.

وبكل صراحة، وبالروح التى حدت بى على القُدوم إليكم اليوم، فإنى أقول لكم، إنّ عليكم أن تتخلّوا، نهائيًا، عن أحلام الغزو، وأن تتخلّوا،أيضًا،عن الاعتقاد بأن القوة هى خير وسيلة للتعامل مع العرب.

إنّ عليكم أن تستوعبوا جيدًا دروس المواجهة بيننا وبينكم،فلن يجديكم التوسع شيئًا.

ولكى نتكلم بوضوح،فإن أرضنا لا تقبل المساومة،وليست عُرضة للجدل. إنّ التراب الوطنى والقومى، يعتبر لدينا فى منزلة الوادى المقدس طُوى،الذى كلّم فيه الله موسى – عليه السلام. ولا يملك أى منّا،ولا يقبل أن يتنازل عن شبر واحد منه،أو أن يقبل مبدأ الجدل والمساومة عليه.

والحق أقول لكم أيضًا، إن أمامنا،اليوم، الفرصة السانحة للسلام، وهى فرصة لا يمكن أن يجود بمثلها الزمان، إذا كنّا جادّين حقًّا فى النضال من أجل السلام.

وهى فرصة، لو أضعناها،أو بدّدناها، فلسوف تحلّ بالمتآمر عليها لعنة الإنسانية، ولعنة التاريخ.

ما هو السلام بالنسبة إلى إسرائيل؟

أن تعيش فى المنطقة، مع جيرانها العرب، فى أمن واطمئنان. هذا منطق أقول له نعم.

أن تعيش إسرائيل فى حدودها آمنة من أى عدوان. هذا منطق أقول له نعم.

أن تحصل إسرائيل على كل أنواع الضمانات، التى تؤمِّن لها هَاتَيْن الحقيقتين. هذا مطلب أقول له نعم.

بل إننا نعلن أننا نقبَل كل الضمانات الدولية، التى تتصورونها، وممّن تَرضَونه أنتم.

نعلن أننا نقبَل كل الضمانات، التى تريدونها من القوّتين العُظمَيين، أو من إحداهما، أو من الخمسة الكبار، أو من بعضهم.

وأعود فأعلن، بكل الوضوح، أننا قابلون بأى ضمانات تَرتضونها، لأننا فى المقابل، سنأخذ نفس الضمانات.

خلاصة القول، إذًا، عندما نسأل: ما هو السلام بالنسبة إلى إسرائيل؟ يكون الرد هو أن تعيش إسرائيل فى حدودها مع جيرانها العرب فى أمن وأمان، وفى إطار كل ما ترتضيه من ضمانات، يحصل عليها الطرف الآخر.

ولكن كيف يتحقق هذا؟ كيف يمكن أن نصِلَ إلى هذه النتيجة، لكى نصِلَ بها إلى السلام الدائم، العادل؟

هناك حقائق لا بد من مواجهتها، بكل شجاعة ووضوح.

هناك أرض عربية احتلتها، ولا تزال تحتلها، إسرائيل بالقوة المسلحة، ونحن نصرّ على تحقيق الانسحاب الكامل منها، بما فيها القدس العربية.

القدس التى حضرت إليها باعتبارها مدينة السلام، والتى كانت، وسوف تظل على الدوام، التجسيد الحىّ للتعايش بين المؤمنين بالديانات الثلاث.

وليس من المقبول أن يفكر أحد فى الوضع الخاص لمدينة القدس، فى إطار الضم أو التوسع. وإنّما يجب أن تكون مدينة حرة، مفتوحة لجميع المؤمنين.

وأهم من كل هذا، فإن تلك المدينة، يجب ألاّ تُفصل عن هؤلاء الذين اختاروها مقرًا ومقامًا لعدة قرون.

وبدلا من إيقاظ أحقاد الحروب الصليبية، فإننا يجب أن نحيِى روح عمر بن الخطاب وصلاح الدين، أى روح التسامح واحترام الحقوق.

إنّ دُور العبادة، الإسلامية والمسيحية، ليست مجرد أماكن لأداء الفرائض والشعائر، بل إنها تقوم شاهد صدقٍ على وجودنا، الذى لم ينقطع فى هذا المكان، سياسيًا وروحيًا وفكريًا.

وهنا، فإنه يجب ألا يخطئ أحد تقدير الأهمية والإجلال اللذين نكنّهما للقدس، نحن معشر المسيحيين والمسلمين. ودعونى أقُلْ لكم، بلا أدنى تردُّد، إننى لم أجىء إليكم تحت هذه القبة، لكى أتقدم برجاء أن تُجلوا قواتكم من الأرض المحتلة. إن الانسحاب الكامل من الأرض

المحتلة بعد ١٩٦٧م، أمر بديهى، لا نقبل فيه الجدل، ولا رجاء فيه لأحد أو من أحد.

ولا معنى لأى حديث عن السلام الدائم، العادل، ولا معنى لأى خطوة لضمان حياتنا معًا فى هذه المنطقة من العالم، فى أمن وأمان، وأنتم تحتلون أرضًا عربية بالقوة المسلحة. فليس هناك سلام يستقيم أو يُبنى، مع احتلال أرض الغير.

نعم، هذه بديهية، لا نقبل الجدل والنقاش، إذا خلُصت النوايا وصَدَق النضال، لإقرار السلام الدائم، العادل، لجيلنا ولكل الأجيال من بعدنا.

أمّا بالنسبة للقضية الفلسطينية، فليس هناك من ينكر أنها جوهر المشكلة كلها، وليس هناك من يقبل، اليوم، فى العالم كله، شعارات رُفعت هنا فى إسرائيل، تتجاهل وجود شعب فلسطين، بل تتساءل أين هو هذا الشعب؟

إنّ قضية شعب فلسطين، وحقوق شعب فلسطين المشروعة، لم تعد، اليوم، موضع تجاهل أو إنكار من أحد. بل لا يحتمل عقل يفكر أن تكون موضع تجاهل أو إنكار.

إنها واقع استقبله المجتمع الدولى، غربًا وشرقًا، بالتأييد والمساندة والاعتراف، فى مواثيق دولية وبيانات رسمية، لن يجدى أحدًا أن يصمّ أذنيه عن دويّها المسموع، ليل نهار، أو أن يغمض عينيه عن حقيقتها التاريخية، حتى الولايات المتحدة الأمريكية، حليفكم الأول، التى تحمل قمة الالتزام لحماية وجود إسرائيل وأمنها، والتى قدّمت، وتقدّم إلى

إسرائيل كل عون معنوى ومادى وعسكرى. أقول حتى الولايات المتحدة اختارت أن تواجِه الحقيقة والواقع، وأن تعترف بأن للشعب الفلسطينى حقوقًا مشروعة، وأن المشكلة الفلسطينية هى قلب الصراع وجوهره، وطالما بقيت معلقة دون حل، فإن النزاع سوف يتزايد ويتصاعد، ليبلغ أبعادًا جديدة. وبكل الصدق، أقول لكم إن السلام لا يمكن أن يتحقق بغير الفلسطينيين، وإنه لخطأ جسيم، لا يعلم مداه أحد، أن نغمض الطرف عن تلك القضية، أو ننحّيها جانبًا.

ولن أستطرد فى سرد أحداث الماضى، منذ صدر وعد بلفور لستين عامًا خلَت، فأنتم على بيّنة من الحقائق جيدًا.

وإذا كنتم قد وجدتم المبرر، القانونى والأخلاقى، لإقامة وطن قومى على أرضٍ، لم تكن كلها ملكًا لكم، فأولى بكم أن تتفهموا إصرار شعب فلسطين على إقامة دولته من جديد فى وطنه.

وحين يُطالب بعض الغُلاة المتطرفين أن يتخلّى الفلسطينيون عن هذا الهدف الأسمى، فإنّ معناه، فى الواقع وحقيقة الأمر، مطالبة لهم بالتخلى عن هويتهم، وعن كل أمل لهم فى المستقبل.

إننى أحيّى أصواتًا إسرائيلية، طالبت بالاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني، وصولا إلى السلام، وضمنًا له. ولذلك، فإننى أقول، أيها السيدات والسادة، إنه لا طائل من وراء عدم الاعتراف بالشعب الفلسطينى وحقوقه فى إقامة دولته وفى العودة. لقد مررنا، نحن العرب، بهذه التجربة من قبل، معكم، ومع حقيقة الوجود الإسرائيلى، وانتقل بنا

الصراع من حربٍ إلى حربٍ، ومن ضحايا إلى مزيد من الضحايا، حتى وصلنا، اليوم، نحن وأنتم، إلى حافة هاوية رهيبة وكارثة مروّعة، إذا نحن لم نغتنم اليوم معًا فرصة السلام الدائم والعادل.

عليكم أن تواجِهوا الواقع مواجَهة شجاعة، كما واجهته أنا.

ولا حلّ لمشكلة أبدًا بالهروب منها، أو بالتعالى عليها.

ولا يمكن أن يستقر سلام بمحاولة فرض أوضاع وهمية، أدار لها العالم كله ظهره، وأعلن نداءه الإجماعى بوجوب احترام الحق والحقيقة.

ولا داعى للدخول فى الحلقة المفرَغة مع الحق الفلسطيني.

ولا جدوى من خلق العقبات، إلاّ أن تتأخر مسيرة السلام، أو أن يُقتل السلام.

وكما قلت لكم، فلا سعادة لأحد على حساب شقاء الآخرين. كما أن المواجَهة المباشرة والخط المستقيم، هما أقرب الطرق وأنجحها للوصول إلى الهدف الواضح. والمواجهَة المباشرة للمشكلة الفلسطينية، واللغة الواحدة لعلاجها نحو سلام دائم، عادل، هو فى أن تقوم دولته.

ومع كل الضمانات الدولية، التى تطلبونها، فلا يجوز أن يكون هناك خوف من دولة وليدة، تحتاج إلى معونة كل دول العالم لقيامها. وعندما تدق أجراس السلام، فلن توجد يد لتدق طبول الحرب، وإذا وُجدت، فلن يُسمع لها صوتٌ.

وتصوروا معى اتفاق سلام فى جنيف، نزفّه إلى العالم المتعطش إلى السلام. اتفاق سلام يقومُ على:

أولا: إنهاء الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية، التى أُحتلت فى عام ١٩٦٧م.

ثانيا: تحقيق الحقوق الأساسية للشعب الفلسطينى، وحقّه فى تقرير المصير، بما فى ذلك حقّه فى إقامة دولته.

ثالثًا: حق كل دول المنطقة فى العيش فى سلام داخل حدودها الآمنة،والمضمونة عن طريق إجراءات يُتفق عليها،تحقق الأمن المناسب للحدود الدولية،بالإضافة إلى الضمانات الدولية المناسبة.

رابعًا: تلتزم كل دول المنطقة بإدارة العلاقات فيما بينها،طبقًا لأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة،وبصفة خاصة عدم الالتجاء إلى القوة،وحل الخلافات بينها بالوسائل السلمية.

خامسًا: إنهاء حالة الحرب القائمة فى المنطقة.

أيها السيدات والسادة

إنّ السلام ليس توقيعًا على سطور مكتوبة، بل إنه كتابة جديدة للتاريخ، إنّ السلام ليس مباراة فى المناداة به، للدفاع عن أية شهوات أو لِسَتر أية أطماع، فالسلام، فى جوهره، نضال جبّار ضد كل الأطماع والشهوات. ولعل تجارب التاريخ، القديم والحديث، تعلّمنا جميعًا أن الصواريخ والبوارج والأسلحة النووية، لا يمكن أن تُقِيم الأمن، ولكنها على العكس تحطم كل ما يبنيه الأمن.

وعلينا، من أجل شعوبنا، من أجل حضارة صنعها الإنسان، أن نحمى الإنسان فى كل مكان، من سلطان قوة السلاح.

علينا أن نُعلى سلطان الإنسانية بكل قوة القيَم والمبادئ، التى تُعلى مكانة الإنسان.

وإذا سمحتم لى أن أتوجه بندائى من هذا المنبر إلى شعب إسرائيل، فإننى أتوجه بالكلمة الصادقة الخالصة، إلى كل رجل وامرأة وطفل فى إسرائيل، إننى أحمل إليكم من شعب مصر،الذى يُبارك هذه الرسالة المقدسة من أجل السلام،أحمل إليكم رسالة السلام، رسالة شعب مصر، الذى لا يعرف التعصب، والذى يعيش أبناؤه، من مسلمين ومسيحيين ويهود، بروح المودّة والحب والتسامح. هذه هى مصر، التى حمّلنى شعبها أمانة الرسالة المقدسة، رسالة الأمن والأمان والسلام.

فيا كل رجل وامرأة وطفل فى إسرائيل: شجعوا قيادتكم على نضال السلام، ولتتجه الجهود إلى بناء صرْح شامخ للسلام، بدلا من بناء القلاع والمخابئ المحصنة بصواريخ الدمار. قدّموا للعالم صورة الإنسان الجديد فى هذه المنطقة من العالم، لكى يكون قدوة لإنسان العصر، إنسان السلام فى كل موقع ومكان.

بشّروا أبناءكم،أن ما مضى هو آخر الحروب ونهاية الآلام،وأن ما هو قادم هو البداية الجديدة،للحياة الجديدة،حياة الحب والخير والحرية والسلام.

ويا أيتها الأم الثكلى.

ويا أيتها الزوجة المترملة.

ويا أيها الابن الذى فقد الأخ والأب.

يا كل ضحايا الحروب.

– املئوا الأرض والفضاء بتراتيل السلام.

– املئوا الصدور والقلوب بآمال السـلام.

– اجعلوا الأنشودة حقيقة تعيش وتثمر.

– اجعلـوا الأمــل دسـتور عمل ونضـال.

وإرادة الشـــعــوب هـــى مــن إرادة الله.

أيها السيدات والسادة

قبل أن أصل إلى هذا المكان،توجّهت بكل نبضة فى قلبى، وبكل خلجة فى ضميرى، إلى الله – سبحانه وتعالى – وأنا أؤدى صلاة العيد فى المسجد الأقصى، وأنا أزور كنيسة القيامة، توجهت إلى الله – سبحانه وتعالى – بالدعاء أن يلهمنى القوة،وأن يؤكد يقين إيمانى بأن تحقّق هذه الزيارة أهدافها،التى أرجوها، من أجل حاضر سعيد، ومستقبل أكثر سعادة.

لقد اخترت أن أخرج على كل السوابق والتقاليد،التى عرفتها الدول المتحاربة،ورغم أن احتلال الأرض العربية ما زال قائمًا،بل كان إعلانى عن استعدادى للحضور إلى إسرائيل مفاجأة كبرى،هزّت كثيرًا من المشاعر،وأذهلت كثيرا من العقول،بل شككت فى نواياها بعض الآراء،برغم كل ذلك،فإننى استلهمت القرار بكل صفاء الإيمان وطهارته،وبكل التعبير الصادق عن إرادة شعبى ونواياه،واخترت هذا الطريق الصعب،بل إنه فى نظر الكثيرين أصعب طريق.

اخترت أن أحضر إليكم،بالقلب المفتوح والفكر المفتوح.

اخترت أن أعطى هذه الدفعة لكل الجهود العالمية المبذولة من أجل السلام.

اخترت أن أقدم لكم، وفى بيتكم، الحقائق المجرّدة عن الأغراض والأهواء.

لا لكى أناور، ولا لكى أكسب جولة، ولكن لكى نكسب معًا أخطر الجولات والمعارك فى التاريخ المعاصر، معركة السلام العادل والدائم.

إنها ليست معركتى فقط، ولا هى معركة القيادات فقط فى إسرائيل، ولكنها معركة كل مواطن على أرضنا جميعًا، من حقّه أن يعيش فى سلام. إنها التزام الضمير والمسؤولية فى قلوب الملايين.

وقد تساءل الكثيرون، عندما طرحت هذه المبادرة، عن تصورى لما يمكن إنجازه فى هذه الزيارة، وتوقعاتى منها. وكما أجبت السائلين، فإننى أعلن أمامكم أننى لم أفكّر فى القيام بهذه المبادرة من منطلق ما يمكن تحقيقه أثناء الزيارة، وإنما جئت هنا لكى أقدم رسالة.

ألا هل بلّغت؟ اللهّم فاشهد.

اللهم إننى أردد مع زكريا قوله: «أحبوا الحقّ والسلام».

وأستلهم آيات الله - العزيز الحكيم - حين قال: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٨٤) ﴾ صدق الله العظيم.

والسلام عليكم.

.. استمع العالم إلى خطاب السادات فى الكنيست الإسرائيلى وطرح الحقائق كاملة أمام شعب إسرائيل وأمام العالم كله بما مفاده أن الشعب العربى والمصرى يريد السلام وأن على إسرائيل أن تتخلى عن أحلام الغزو وعن الاعتقاد بأن القوه هى خير سبيل للتعامل مع العرب وأنه لا حل لقضية الصراع العربى الإسرائيلى دون حل مشكله شعب فلسطين.

.. ولم يفهم الإسرائيليون ولا العرب المغزى الحقيقى من هذه الزيارة إلا بعد وفاة السادات وبعد استرجاع مصر لكامل أراضيها المحتلة فالإسرائيليون ظنوا أنهم بذلك كسبوا اعتراف أكبر دولة عربية بإسرائيل بدون مقابل وما يستتبع ذلك من اعتراف باقى الدول العربية والعرب ظنوا أن السادات قدم تنازلات دون مقابل وهو الاعتراف بإسرائيل،ولم يفهم العرب أن السادات يسرع من وتيرة الأحداث إذ أن السادات بهذه الزيارة ألقى الكرةَ فى الجانب الإسرائيلى.

.. ففى الفترة التى أعقبت حرب أكتوبر ١٩٧٣م وتدخل أمريكا فى الحرب لمصلحة إسرائيل أخذت إسرائيل تتلكأ فى الانسحاب من سيناء وبدأت تمارس لعبتها الإعلامية وكلام وشعارات هنا وهناك وهو أن ما تبقى من سيناء هو حق يهودى ولا رجعة فيه حتى إن بيجين عندما تولى رئاسة الوزراء فى إسرائيل أقسم أنه لن تزال أى مستوطنة إسرائيلية فى سيناء ظنا منها أنها تستطيع أن تلعب بأعصاب السادات وأن تدفعه إلى قول أو فعل ما يحسب عليه أمام الرأى العام العالمى كما كانت تفعل دائما ومازالت ولكن السادات أدرك ذلك وفهمه جيدا.

.. ويظهر هذا الفهم جليا , فقبل أن يعلن السادات أنه على أهبة الاستعداد للذهاب إلى إسرائيل فى خطابه الشهير فى مجلس الشعب المصرى أعلن السادات أن إسرائيل تتمسح بالخطوات الإجرائية، وتفعل أشياء تثير الأعصاب فمثلا قال إن هنرى كيسنجر يسافر من تل أبيب إلى الإسكندرية للتغير ضمه أو جُمله أو فَصله أو حَرف لدرجة أنه قال لهنرى كيسنجر أن هذا الكلام لا يساوى ثمن الوقود الذى يستهلكه من تل أبيب إلى أسكندريه وأعلن أيضا أن إسرائيل بهذه الأفعال تحاول أن تثير الأمه العربية كلها فبعض الزعماء تستثار أعصابهم بفعل هذه الإجراءات من جانب إسرائيل ويخرجون بتصريحات جوفاء تسب وتلعن فى إسرائيل وتخرج إسرائيل إلى العالم بمظهر الدولة الداعية للسلام والمحبة للسلام والتى تمد أيديها للعرب وهم يرفضون بل يسبون ويلعنون إسرائيل وكان رد السادات إنه ومع كل هذه الخطوات الاستفزازية من جانب إسرائيل فإنه موافق عليها مقدما بل وذاهب إلى إسرائيل أيضا، لقد فهمهم السادات جيدا ووعى درس الماضى .

.. كانت إسرائيل دوما تردد فى المنابر الدولية أنها دوله طالبة سلام وأن العرب هم الإرهابيون القتلة سافكى الدماء وأن على الدول الغربية أن تؤيدها و تمدها بالمال والسلاح حتى تستطيع أن تواجه العرب البرابرة وحتى تبرر عدوانها على العرب مستعينة فى ذلك بالشعارات الجوفاء التى كانت تردد فى العالم العربى شرقا وغربا التى كانت تقول بأن العرب سوف يلقون إسرائيل فى البحر ويا ليتها كانت صحيحة فقد

أضعفت تلك الشعارات غير الحقيقية العرب كثيرا أمام المجتمع الدولى وأفقدتهم أيضا كثير من تأييد دول العالم واحترامه., فبهذه الزيارة محى السادات كل ذلك وأصبحت إسرائيل لأول مرة بعد حرب أكتوبر فى موقف رد الفعل ذلك الموقف الذى طالما تضع إسرائيل العرب فيه، فها هو رئيس أكبر دولة عربية فى المنطقة يزور إسرائيل بل ويعترف بها ولا يزال جزء من أراضيه محتل فى ذلك الوقت، فوضع المجتمع الدولى كله فى مواجهة إسرائيل وأصبحت إسرائيل أمام المجتمع الدولى مطالبة بأن تتقدم فى عملية السلام رغما عنها بل وأصبح عليها الإجابة على السؤال التالى وهو ماذا تنتظرى يا إسرائيل أكثر من هذا حتى تعيدى الأرض والحقوق إلى أصحابها فها هو رئيس أكبر دولة عربية تتحمل العبء الأكبر فى الصراع العربى الإسرائيلى يأتى إليكم ويمد يده بالسلام ..ماذا تريدى أكثر من هذا.....

.. ولم تكن ردود الفعل العربية إيجابية لزيارة إسرائيل وعملت الدول العربية على مقاطعة مصر وتعليق عضويتها بالجامعة العربية، ونقل المقر الدائم للجامعة من القاهرة إلى تونس (العاصمة)، وكان ذلك فى القمة العربية التى تم عقدها فى بغداد بناء على دعوة من الرئيس العراقى أحمد حسن البكر فى ٢ نوفمبر ١٩٧٨م والتى تمخض عنها مناشدة السادات للعدول عن قراره بالصلح مع إسرائيل .

.. دعا الرئيس السادات بعد ذلك وقبل بداية كامب ديفيد ياسر عرفات وحافظ الأسد للمشاركة فى المفاوضات واستراجاع أراضيهم

المحتلة بعد عام ١٩٦٧م ولكنهم رفضوا ذلك واصفين إياه بالخيانة والعمالة لإسرائيل وأمريكا ويا ليتهم كانوا معه ولم يفهموا أن إسرائيل تقوى باستعداء العرب وأن السادات كان يستثمر النصر الذى أحرزه فى أكتوبر قبل أن يضيع فى طى النسيان. إلا أن السادات رفض ذلك مفضلا الاستمرار بمسيرته السلمية مع إسرائيل.

.. ١٩٧٧م اتخذ السادات إجراءات اقتصادية من شأنها تحويل الاقتصاد المصرى إلى اقتصاد القطاع الخاص حيث تبنى ما يعرف بسياسة الانفتاح ورفع الدعم عن بعض السلع مما حدا بطبقات من الشعب المصرى للقيام بمظاهرات ضد الارتفاع فى الأسعار الذى صاحب رفع الدعم عن بعض السلع الأساسية مثل الدقيق والزيت والسكر أدت بالرئيس السادات إلى التراجع عن إجراءاته.

.. وفى عام١٩٧٩م، وبعد مفاوضات مضنية بين الجانب المصرى الإسرائيلى بوساطة أمريكية وفى كامب ديفيد، تم عقد اتفاقية سلام بين مصر وإسرائيل،عملت إسرائيل على أثرها على إرجاع الأراضى المصرية المحتلة إلى مصر .وقد نال الرئيس السادات مناصفة مع رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحيم بيجين جائزة نوبل للسلام للجهود الحثيثة التى بذلاها فى تحقيق السلام فى منطقة الشرق الأوسط.. وتبرع السادات بقيمة الجائزة لإعمار مسقط رأسه بقرية ميت أبو الكوم كما أنه تبرع بقيمة ما حصل علية من كتاب البحث عن الذات لبناء مساكن جديدة.

.. كانت الأيام قبل حرب أكتوبر تمضى ثقالا على حكم السادات، والناس من حولى ملتفين وجلين متسائلين:

.. هل يحقق السادات وعده، وينجز حلمهم وحلمه ؟ .

.. كانت مصر آنذاك تعج بالشيوعيين، والكارهين لهذا الحكم والمستهزئين به الذين خولطوا فى عقولهم وانتقلوا من الصياح إلى الهتاف والنواح بل ومحاولة الثورة ضده والخروج عليه، وكانوا متجبرين فى جهالاتهم، وفى ضلالاتهم وأفاقوا على صوت البشير، وهو يزف إليهم النبأ العظيم عبر الزفير، لقد عبر الجيش المصرى المانع الحصين لقناة السويس، ورفع جنودها الميامين علم مصر على الضفة الشرقية لها بعد معركة مهولة أشبه بمعركة دير الجماجم التى سبق ذكرها إذ ابتلعت رمال سيناء المزيد والمزيد من جماجم الجيش الذى قيل إنه لا يقهر.

.. عندما هبطت طائرة السادات مطار اللد الإسرائيلى ظهر يوم ٢ نوفمبر ١٩٧٧م.

.. وقع العالم برمته فريسة الذهول فلم يكن أحد يصدق أن السادات يقدم على ذلك، ولكنه هو الرجل الشجاع آثر أن يشد رحاله إلى أرض العدو الإسرائيلى، وكأنه قد قرأ حكمة الرئيس الأمريكى السابق «إبرهام لنكولن» الذى أجاب على من سأله:

.. كيف ننتصر على عدونا ؟. فأجابه : أقول لكم : لكى تنتصروا على أعدائكم....صادقوهم . !

.. ولقد أراد السادات بهذه الزيارة أن يحقن دماء المصريين التى ارتوت منها أرض سيناء عبر حروب أربعة سالت فيها دماؤهم على أديمها ناهيك عن أرض اليمن أنهارا وأنهار.

.. كما أنه أراد أن يثبت للعالم أن مصر وقد انتصرت فى حرب أكتوبر فإنها تدعو دائما للسلام، وكأن لسان حاله يقول:

يقاتـــل أبطـال الجيوش بعزمه ينقذهم من ظلمــة الكفـر والعما

.. وكانت هذه الزيارة بالنسبة إلى السادات وكأنها الميلاد الجديد للبطل، وكأنها أيضا ضوء الشمس المشرقة من السماء، وكما جاء فى كتاب «مولد البطل» للدكتور « الحجاجى» تواجه أولا السحب المنخفضة ولكنها فى النهاية تنتصر على جميع العقبات (the. Myth of the Birth of the Hero).

.. اعتنقت إسرائيل ما قيل فى التوراة أن إسرائيل هى المالكة للأرض التى تمتد من النيل إلى الفرات معتنقين ومؤمنين بما جاء فيه فى خمسة مواضع من سفر التكوين.. ونحن نورد النصوص التى جاءت عن هذا الوعد فى هذه المواضع الخمسة،لنكشف ما فيها وما بينها من تناقضات صارخة،تعلن انتفاء الصدق والمصداقية عن هذه النصوص..

– ففى النص الأول: «قال الرب لأبرام – بعد اعتزال لوط له:– ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا،لأن جميع الأرض التى أنت ترى أعطيها لك ولنسلك إلى الأبد» تكوين ١٣: ١٥،١٤.

– وفى النص الثانى: «واجتاز أبرام فى الأرض من مكان «شكيم» إلى «بلوطة مورة»،وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض. وظهر الرب لأبرام

وقال.. لنسلك أعطى هذه الأرض،فبنى هنا مذبحًا للرب الذى ظهر له» تكوين ١ : ٦،٧.

– وفى النص الثالث: «وتكلم الرب معه (أبرام).. فقال: لا يُدعى بعدُ اسمك أبرام،يكون اسمك إبراهيم،وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض عزبتك،كل أرض كنعان ملكًا أبديًا» تكوين ١٧ : ٧،٨.

– وفى النص الرابع: « فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقًا قائلًا: لنسلك أعطى الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» تكوين ١٥ : ١٨.

– وفى النص الخامس: « والأرض التى أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها» تكوين ٣٥: ٢. ونوجز ما ورد بهاتيك النصوص سالفة البيان:

.. ففى النص الأول نجد مساحة الأرض الموعودة هى المساحة التى يراها بصر إبراهيم «جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد».

.. وفى النص الثانى حدودها «من شكيم إلى بلوطة مورة»

.. وفى النص الثالث نجد حدود هذه الأرض الموعودة هى حدود أرض كنعان التى كان إبراهيم متغربًا فيها.

.. وفى النص الرابع نجد حدود هذه الأرض الموعودة هى ما بين النيل والفرات!!..

.. ويتساءل الدكتور «محمد عمارة» فهل كان إبراهيم عليه السلام محيطًا بأرض كنعان (فلسطين) ؟!..

.. أم هل كان محيطًا بما بين النيل والفرات؟!. أم أن فى هذه النصوص من التناقضات ما يباعد بينها وبين أن تكون كلمة الله ووعد الله؟!.

.. وقد شاهدنا بأعيننا فى إحدى المواقع الحصينة التى وقعت فى يد الجيش المصرى وإجلاء إسرائيل عنها، وفى مركز القيادة وجدت كتابا تبين لنا أنه (التوراة) وقد سطر على هذه النصوص من قبل قائد الموقع بخط أحمر ظاهر للعيان ما سبق وأن ألمعنا إليه من أن الجندى الإسرائيلى بات يؤمن أن حدود اسرائيل من النيل إلى الفرات!

.. بعد حرب أكتوبر كتب الكاتب الإسرائيلى «ناتان زاخ»:

.. «عندما عدت من إنجلترا فى عام ١٩٧٨م أعلنت فى برنامج «مانى بار» فى التليفزيون الإسرائيلى أن قدمىّ أبدا لن تتخطيا الخط الأخضر. لن أذهب لإسرائيل، وأنا لا أريد أن تذهب كتبى هناك. لن أطأ أرضا محتلة».

.. وأضاف: «أخاف أن تتوقف هذه الدولة عن الوجود بعد خمسين عاما إن لم يكن قبل هذا، وفي هذه الأثناء ستندلع حرب وراء حرب.»

"لا أريد أن أرى مجدداً عشرات القتلى بلا سبب.. لأننا بنينا الجهاد الإسلامى بعنادنا».

.. وعن إقامته فى إسرائيل قال إنه لو كان يعرف أن إسرائيل ستكون ما عليه اليوم، لم يكن ليعود إليها من إنجلترا فى ١٩٧٨م: «يمكننى الكتابة بالعبرية من دون أن أعيش هنا. لا يجب أن أسمع يوميا عن

تعذيبات أو قتل فلسطينيين بالخطأ. لن أرغب فى إنهاء حياتى فى دولة مثل إسرائيل ».

.. وها هى ذى نص الرسالة التى بعث بها الدكتور «بنيامين شازار» أستاذ التاريخ بالجامعة العبرية عقب زيارته لمقابر الجنود الإسرئيليين فى جبهة السويس :

.. « لقد ثبت أن تفوقنا العسكرى ليس مطلقا، وأن الحدود الآمنة المثالية قد انهارت خلال فترة وجيزة، وأن قناة السويس ليست حاجزا من الطراز الأول ضد الدبابات وأن القادة والجنود العرب لم يتصرفوا كما كنا نتصور، وفى نفس الوقت فإن عددا من قادتنا العسكريين ارتكبوا أفدح الأخطاء، وذلك حين ظنوا أنهم يخوضون حربا على غرار حرب ١٩٦٧م. إن العرب قد تغلبوا على قيود الخوف، وأن على الإسرائيليين أن يتغلبوا على قيود الشك فى ذلك. إن هناك طريقا واحدا فقط لوضع حد لفقدان الروح المعنوية ولمعالجة الذهول الذى يصيب الإسرائيليين بالشلل وقد رأوا كيف انهار كل ما كانوا يؤمنون به. هذا الطريق ـ ياسيدتى هو الاعتراف العلنى والمخلص بالأخطاء، والتوجه بإخلاص ورضى نحو التسوية السلمية اللازمة».

.. وهكذا نجح السادات وأجبر العالم على أن ينظر لمصر والعرب نظرة جديدة ملؤها التقدير والإعجاب والاحترام.

.. ورد فى رواية الكاتب العالمى «ليوتولستوى» فى «القوزاق» أن بطل قصته راح يبحث عن مشاعر جديدة بين تقلبات الحياة، وهناك وقع

في حب إمرأة قوقازية صغيرة فأسلم نفسه لأهواء متناقضة مضطربة، فأحيانا كان يظن أن السعادة تكمن فى العيش من أجل الآخرين لأن الحب هو إنكار الذات، ثم طغت عليه أفكار أخرى فأضحى يحدث نفسه :

.. «إن كل ما كنت أعتقده عن الحب ونكران الذات كان مجرد خرافة.. يكفى أن نعيش فقط أن نعيش..».

.. وهكذا كان السادات يعتقد أن سعادة وطنه فيما جاهد فيه ونافح وكافح.. ولكنهم قتلوه، وفى يوم عيد مصر وعيده قتلوه ثم عاودوا قتله مرة أخرى بعد اتهامه بالخيانة والعمالة (وحقق ما كان يريده الاستعمار لمصر) كما جاء فى كتاب «حقيقة السادات» للأستاذ «عبدالله إمام» وهذا على سبيل المثال.

.. بل إنه قال أيضا إن السادات كان كابوسا جثم على صدر مصر .؟!

.. تحول السادات بهذه المثابة من وطنى إلى خائن، ومن مناضل إلى عميل، ومن بطل إلى جبان. مع أنه حقق لوطنه ما عجز الآخرون عن تحقيقه.

.. وإذا كان التاريخ يذكر بين دفتيه أن الأوائل الذين كتب الله على أيديهم نصرا لبلادهم، أو أفاء الله به من العلم على أوطانهم تذكرهم أوطانهم بكل تحية وتقدير، فها هو ذا «إبراهام لينكولن».. الذى حرر الله به العبيد فى أمريكا. وهاهوذا « جيمس هاتون الاسكتلندى James Hutton» يُذكر على أنه الذى وضع اللبنات الأولى لعلم

الجيولوجيا الحديثة مع أنه فى الأصل كان (محاميا)، وأصدر كتابه نظرية الأرض. الذى يذكر به.

.. هاهوذا السادات الذى قاد أول حرب غير مسبوقة فى التاريخ وأحرز بها نصرا هائلا على إسرائيل، ولكنهم يقولون عنه إنه خائن مع أنه كان صاحب فكر ثاقب، وصاحب همة غير مسبوقة، (والهمة) فى لغة العرب تُعَرف بأنها العزم القوى، يُقال هَمَّ بالأمر هما: «عزم على القيام به» فالهمة مبدأ الإرادة كما أنها نهاية الإرادة .

.. ومع ذلك اتهموه بالخيانة والعمالة وجاء هذا بمثابة الاغتيال الثانى له. بعد أن طالته يد المنون ولم يكن هو أبدًا بالرجل الخؤون!

.. عندما سئل خالد الاسلامبولى قاتل السادات :

.. لماذا قتلت السادات ؟.

.. أجاب : أعترف بهذا. ذلك أمر دينى.؟!

.. ويقول «عوديد جرانوت» و «جاك رينجن» فى كتابهما : «يوم قُتِلَ السادات» أن محاميه بعد اعترافه هذا قفز من مكانه كمن لدغه عقرب وطلب من المحكمة السماح له بالحديث مع المتهم ، ومن بعدها أنكر اتهامه وقال إنى برىء.

.. وعندما وجه إليه رئيس المحكمة سؤالا:

.. ما الذى أردت أن تجنيه باغتيال رئيس الجمهورية ؟

.. أجاب : لكى أحذر كل من سيأتى بعده وأردع كل من يريد اقتفاء أثره والسير على دربه، ألم يقرر السادات أن الشريعة الإسلامية هى

المصدر الأساسى للتشريع.. لم يكن سوى منافقا. لقد أراد فقط التظاهر بأنه حاكم مسلم لكنه فى الحقيقة ضحك علينا جميعا وخدعنا ؟!.

.. وأردف قائلا:

.. «إننى لم أشعر بكراهية شخصية تجاهه».

.. وعندما قال له رئيس المحكمة :

.. «ألم تخش تعرض أناس أبرياء على المنصة أيضا للإصابة بالضرر؟».

.. رد عليه قائلا:

.. «كلهم سيُحاسبون جميعا يوم القيامة على أفعالهم ونواياهم. فإذا (قتل شخص برىء) (سيدخله الله الجنة يوم القيامة)؟!.

.. ثم عرج المتهم على ما جاء بالدستور من أن الإسلام دين الدولة أجاب :

.. «إن النص المكتوب على الورق لا يساوى حتى «قشرة الثوم».. لقد ألغى السادات فى الحقيقة كل ما تبقى من الشريعة الإسلامية ؟!».

.. كانت جريمة قتل السادات جريمة بشعة مشهودة حصلت على مرأى ومسمع العالم كله نقلت عبر شاشات التلفاز، عبر أركان المعمورة.

.. وعلق الدكتور «سمير فاضل» فى كتابه «كنت قاضيا لحادث المنصة» فى حيثيات حكمه ردا على ما أثاره الدفاع فيها «بأن قتل السادات يخرج عن دائرة التجريم باعتباره حقا مقررا للفاعلين بمقتضى الشريعة الإسلامية بمقولة أنه قامت بالبلاد حالة إفساد تمثلت فى عدم

تطبيق شرع الله، والصلح مع اليهود، والقبض على علماء المسلمين، وتقديم شرار القوم على خيارهم ،وإشاعة الخمور، والسخرية من الملتحين والمحجبات، وتطبيقا لقوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون».. وإعمالا لقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهى التى تعطى الحق فى رد الاعتداء على أى حق من حقوق الله ولو بالقتل.. وأسوق هنا ماورد بحيثيات حكم المحكمة ردا على هذا الدفع بعد أن رجعت المحكمة للعديد من المصادر والمراجع الفقهية الشرعية الموثوق بها..جاء بحيثيات الحكم أنه : لتقييم هذا الدفع يلزم بادئ ذى بدء أن نشير إلى أن الفعل الرئيسى المنسوب للمتهمين هو قتل الرئيس الراحل «محمد أنور السادات» وآخرين ممن تواجدوا فى مكان الحادث، ويذهب الدفاع إلى أن هذا القتل تم بمقتضى حق تقرره الشريعة الإسلامية.

.. كما جاء فى حيثيات هذا الحكم :

.. «ويلزم للرد على هذا الزعم أن تعود المحكمة إلى قواعد الشرع الإسلامى المقرر بكتاب الله والسنة النبوية المشرفة، وماذهب إليه أئمة الإسلام وفقهاء الشريعة الإسلامية فى تفسيرهم لما ورد بالقرآن والسنة، وذلك مصداقا لقوله تعالى ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾. (من الآية ٥٩ من سورة النساء) وقوله تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ ﴾ (من الآية ١٢٢ من سورة التوبة).

.. وحديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى رواه الزهرى عن عمرو بين شعيب عن أبيه عن جده قال:

.. «إنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا، ولا يكذب بعضه بعضا، فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم منه، فكلوه إلى عالمه». (إعلام الموقعين لابن القيم جـ٢ ص ١٢٦).

.. ففى صدد ما نبحثه من أمر استباحة دم المسلم ومتى يكون ولمن يكون نعود إلى قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بما جئت به، فإذا فعلوا ذلك، عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها».

.. رواه البخارى وقد فسر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الحق بثلاث فى قوله «لا يحل دم امرئ مسلم، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة» متفق عليه (راجع الشيخ أبو زهرة فى العقوبة صفحة ١٩٢).

.. قال تعالى فى كتابه الحكيم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (الآية ١١٦ من سورة النساء) وفى حديث لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلت وإن زنا، وإن سرق قال : وإن زنا وإن سرق.. رواه البخارى هذه النصوص من القرآن والسنة تهدينا صراحة إلى أنه وإن كانت الأعمال مصدقة للإيمان ومظهرا عمليا له، لكن المسلم إذا ارتكب ذنبا من الذنوب بأن خالف نصا فى كتاب الله، أو فى سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يخرج بذلك عن الإسلام، مادام

يعتقد صدق هذا النص ويؤمن بلزوم الامتثال له، وفقط يكون عاصيا وآثما لمخالفته فى الفعل أو الترك (تقرير المفتى المرفق بالقضية ص ٥).

.. وكذلك كفَّروا السادات.. كيف؟.

.. وإنما نترك فضيلة الشيخ «محمد متولى الشعراوى» ليجيب عليهم فى كتابه «أنت تسأل والإسلام يجيب» قال :

.. إن أى إنسان مهما كان علمه لا يستطيع أن يجترئ على واحد يعلن أن لا إله إلا الله ويقول: عنه إنه كافر.

.. ويقول أستاذنا فضيلة الشيخ «الدكتور محمد أبو زهرة»:

.. «الإيمان بالقلب والإسلام مظهره.. ولا يُفتى بردة مسلم إذا فعل فعلا أو قال قولا لا يحتمل الكفر ويحتمل غيره».

.. بل روى عن الإمام أنه قال :

.. «إذا قال كلمة تحتمل الكفر من مائة وجه وتحتمل الإيمان من وجه واحد فإنه لا يحكم بكفره».

وقد سبق للمتهم هو وزملاؤه أن استفتوا الشيخ « عمر عبد الرحمن » بما أزمعوا عليه من قتل السادات فأفتاهم (بعدم حل دمه).. وأنه إذا ارتكب معصية ـ هو أو غيره ـ كبيرة لا تخرجه عن هذه الملة.

.. وقد انتهت المحكمة وفق المادة ٦٠ من قانون العقوبات أن هذا الدفع الذى دفع به مدافع المتهمين لا أساس له من واقع القانون.

.. ومن ثم وقع شانئوا السادات فى مهواة الضلال.. وقد اعتقد كل منهم أنه «جلواز الوطن» وما كانوا كذلك.

.. كان السادات هذا الوطنى المقدام أشبه فى شخصيته، بشخصية « المتمرد La Disubbidienza "فى قصة الكاتب الإيطالى العالمى" ألبرتو مورافيا Alberto Moravia " .

.. وكان أعداؤه فى أقوالهم عن السادات أشبه (بالعابثين)، وهذا هو اسم لرواية لذات الكاتب الإيطالى (Gli indifferenti)، والتى عمد فيها إلى الكشف عن المخازى التى كانت تحدث فى روما.

.. كان السادات يقود وطنه وهو يلعب دور المتبوع الذى يتفق مع مقوماته العقلية والنفسية ولم يرتض أبدا دور الإنسان التابع Secundus الذى يسير فى سلوكه وفق تعاليم سابقة أو طبقا لمثال سابق.

.. وهكذا كان أيضا شأن جميع الزعماء والقادة الذين قادوا بلادهم نحو الأفضل، ومنهم بلا شك الرئيس الراحل " جمال عبد الناصر " الذى ما أن قبل مبادرة "روجرز" التى كان تقضى بوقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل لمدة ثلاثة أشهر حتى قامت عليه الدنيا وشنت عليه المقاومة الفلسطينية وغيرها هجوما حادا عنيفا وظل يتلقاه حتى جاء خريفه فى سبتمر ١٩٧٠م مات جمال عبد الناصر، والهجوم كان ولا يزال يلاحقه ظلما وعدوانا وكذلك اتهموا السادات بأنه "خلع الطاعة وفارق الجماعة "، وما خلع السادات الطاعة، ومافارق الجماعة، ولكنه كان يمضى فى جهاده من أجل وطنه بالشخصية Personality التى تولد كما يقول "علم النفس" مع صاحبها "شخصية يشع منها النور تراه، فيبهرك وإذا حاولت إدراكه حيرك"

.. كان العالم قبل حرب أكتوبر قد نحى احتلال إسرائيل لمصر ولهضبة الجولان والضفة الغربية، جانبا وأصبحت مصر تمر باللا حرب و اللاسلم من خلال اتفاق مبرم بين القضبين الأعظمين فى العالم الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى، وقد انقسمت دوله إلى قسمين :

.. دول تصالح، ودول لها مصالح.

.. كل يبحث عن مصلحته أنى كانت وفى أى مكان توجد ونَقُصُ فى هذا الصدد مَا نجم عن سقوط قلعة "ديان بان فو" فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤م، وهى التى حاصرها الفيتناميون الأحرار حصارا دام ٥٥ يوما على قادة الولايات المتحدة السياسين وغيرهم يقول مواطن أمريكى: عندما استمعت إلى الرثاء الذى بثه المذيع يوم سقوط القلعة، صدر عن قلب مكلوم حزين حقا، ولقد دهشت لأن هذه القلعة تقع فى الشمال الغربى من "إقليم فيتنام"، وإن الذين هزموا كانوا من جنود وضباط جيش الفرنسيين ولم يكونوا من جنود وضباط جيش الولايات المتحدة ـ ولكنه الغرب ومصالح الغرب ومستقبل الغرب، هى التى دفعت هذا المذيع المكلوم الحزين لأن يبث (مرثيته) على أبناء الشعب الأمريكى وغيرهم فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤م.

.. رأيت كيف تكون المصلحة ؟!.. وكيف يكون البكاء عليها !.

.. وجاءت حرب أكتوبر السادات لتحول نظر العالم كله إلى كيفية التضافر فى سبيل تأييد مصر فى حربها ضد إسرائيل، وكذلك الوقوف بجانب سوريا وفلسطين فى سبيل استرداد أراضيها السليبة.

.. وبعد استشهاد السادات حصبه البعض بالحصى، وهجوه وهاجموه واتهموه، وكما سبق القول بأنه كفر كفرة صلعاء.. كيف ؟.. وقد أعاد للوطن سينا.

.. لقد كان كل شيء قبل حرب أكتوبر فى مصر يموت.

.. فى كل بيت من بيوتها يرتع عنكبوت.

.. فى كل يوم فى الربوع

.. الخضر يولد ألف حور

.. فى كل عش فوق صدر النيل عصفور يموت.. كما عبر الشاعر " فاروق جويدة ".

.. وكان السادات قد برح به الألم وهو يعد لحرب أكتوبر التى طويت على أوجع وأفظع الآلام التى كابدتها مصر فمزقت أحشاء الوطن وأدمت قلبه، ودفعت مصر إلى أن تسكب أحزانها على نفسها، ولكنها لم تستسلم أو ترفع الراية البيضاء.

.. فقد خاض جمال عبد الناصر حرب الإستنزاف بشجاعة وإيمان، وحقق ببطولة لأبناء مصر نصرا استراتيجيا على إسرائيل، ويشهد على ذلك معركة "شدوان"، ومعركة "رأس العش"، وتدمير المدمرة "إيلات" وإغراقها فى أعماق البحر الأحمر.

.. وتكبد فى سبيل ذلك المتاعب والمصاعب، ولم يسلم هو الآخر من حقد الحاقدين.

.. لم يكن السادات منافقا، ولم يكن لسانه مُداجيا، ولكنه كان وطنيا ذا صلابة وإباء، ولباقة ودهاء،وعزيمة ماضية وذكاء، ونكرانه

لذاته فى سبيل شعبه وانتصر على عدوه بحجته وبرهانه و خط باسمه أنصع صفحات التاريخ بين الزعماء والنبغاء والعباقرة والنبهاء، فقد أعطاه الله وجها.. فلماذا يصنع لنفسه وجها آخر كما عبر "شكسبير" .

.. يذكر الأستاذ " أنيس منصور " فى كتابه " فى السياسة " أن الإسرائيلين عندما هبطت طائرة السادات القدس فقد رأوا فيها سفينة نوح الجديدة التى تحمل نوعا واحدا من الكائنات: حمامات السلام، ونوعا واحدا من النباتات : أشجار الزيتون،وأملا واحدا لكل العصور : أن حرب أكتوبر هى آخر الحروب.

.. وفى كتاب "يهود اليوم" يقول المؤلف "إيلى ويسلى":

.. " النساء اللائى وقفن فى شوارع القدس يصفقن ويغنين ويبكين فرحا برؤية السادات، هن الأرامل اللائى قتل السادات أزواجهن .، والشباب الذى رفع الأعلام للسادات هم اليتامى الذين قتل السادات آباءهم، ولكنهم قد نسوا ذلك تماما.. فهم جميعا لا يريدون حربا بعد حرب أكتوبر.. وهذه هى المعجزة فى عصر انتهت فيه المعجزات، ولكن عظمة هذه المعجزة، أنها المعجزة الإنسانية.. فهى شىء فوق العقل، ولكنها تمت بالعقل، ويمكن تحقيقها بالعقل أيضا، وهذا ما يعطى لهذه المعجزة معنى جديدا، فلنحقق معجزتنا لإنقاذ إنسانيتنا".

.. والفرق بين الحدث العادى والمعجزة هو كالفرق بين المشى والطيران، بين الهبوط على الأرض والهبوط على القمر، وبين النثر والشعر.

.. ولا مشاحة ـ ولكل عظيم كبوة ـ أن اتفاقية كامب ديفيد والتى كانت محل أطروحة دكتوراه ـ بجامعة عين شمس ـ للدكتورة " فاتن عوض ". قد اعتور كاتبتها العجب من خلال ما أجبر عليه السادات، وكما جاء فى كتابها " السادات ٣٥ عاما على كامب ديفيد"، من انصياع السادات لما ورد فى الاتفاقية من استبعاد تمركز قوات مصر على خط المضايق الاستراتيجى آخر الخطوط الدفاعية فى سيناء وأهمها ؛ الأمر الذى لا يحقق الدفاع عن سيناء أو منطقة القناة التى تبعد عنه حوالى ٥٥ كم فقط، وبذلك الوضع يبقى حوالى ١٥٠ كم فراغا استراتيجيا دون أى مقاومة مضافا إلى ذلك حرمان قواتنا من كل مطارات الجوية بسيناء فجمعها شرق خط المضايق، وهو ما لا يمكن قبوله من الناحية العسكرية تحت أى ظروف.

.. بيد أننا نرد عليها بما خطه الأستاذ "صالح الحنفى" فى كتابه "الاغتيال الثانى للسادات" ردا على ذلك:

.. عندما تأتى ذكرى تحرير سيناء فبدل من الاحتفال بالنصر تخرج علينا بعض القنوات الفضائية وبعض الكتب بفتوى تاريخية سئمنا منها وهى أن مصر بموجب معاهدة السلام مع إسرائيل استردت سيناء غير كاملة السيادة ! كما أن حجم القوات المصرية بسيناء لا يمثل رادعا لإسرائيل أو لايمثل حماية أمنية لسيناء ! ولا أعرف كيف أرد على هؤلاء، هل أرادوا تشويه تحرير سيناء عن قصد أو عن جهل فمن المؤسف أن تكون الأولى ومن المخجل أن تكون الثانية، ففى إطار كامب

ديفيد تشير الديباجة الخاصة بإطار الاتفاق لمعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل إلى " الممارسة التامة : للسيادة المصرية حتى الحدود المعترف بها دوليا بين مصر وفلسطين تحت الانتداب، هذا فيما يخص السيادة المصرية على سيناء، أما بالنسبة لحجم القوات المصرية فى سيناء فتنص المعاهدة على تمركز فرقة مشاة ميكانيكية من القوات المسلحة المصرية بإجمالى ٢٢ ألف فرد ومنشأتها العسكرية وتحصيناتها الميدانية داخل منطقة تبعد قرابة ٥٠ كيلو مترا شرقى خليج السويس وقناة السويس وهى منطقة المضايق خط الدفاع الرئيسى الوحيد فى سيناء، وتتكون العناصر الرئيسية لهذه الفرقة من : ثلاثة ألوية مشاة ميكانيكية، لواء مدرع، سبع كتائب مدفعية ميدانية تتضمن حتى ١٢٦ قطعة مدفعية، سبع كتائب مدفعية مضادة للطائرات، ٢٣٠ دبابة هذا بخلاف قوات الحدود التى تصل إلى ٤٠٠٠ فرد وقوات الشرطة، تلك هى القوات المنقوصة !!! حتى لو سايرنا هؤلاء فى وصفهم لطبيعة القوات، فهل أصبحت النظرية هى "نظرية الكم" إن التاريخ العسكرى لا يقر هذه النظرية تماما ولا داعى لسرد دلائل على ذلك، كما أننا كنا قد حشدنا كل قواتنا قبل ذلك فى سيناء فى ١٩٦٧م وكانت لدينا ترسانة عسكرية جيدة من المخازن السوفييتية وحُشدت كل قواتنا بكامل تسليحها فى سيناء ومع ذلك ضربتنا إسرائيل فى الخامس من يونيو وتقهقرت كل هذه القوات وتراجعت وانسحبت من سيناء، فهاهى سيناء كانت مكدسة بالقوات ومع ذلك هزمنا، لذلك فإن الفيصل هو حسن التخطيط

والكفاءة والدقة فى التنفيذ هذا تسايرا مع الاعتقاد الخاطئ بأن القوات فى المعاهدة لا تكفى أو منقوصة. إن مجرد التحكم فى منطقة المضايق الاستراتيجية والسيطرة عليها كخط دفاعى رئيسى وحيد فى صحراء سيناء يكفل للقوات المدافعة أوضاعا استراتيجية ممتازة تحطم أى قوات عدائية مهاجمة، ولا أعتقد أن إسرائيل التى دائما ما تسعى لاصطياد الفرص وتنجح فى استغلالها كانت ستترك تلك القوات غير رادعة لها على مدار أكثر من ربع قرن منذ انسحابها من سيناء وحتى الآن دون أن تعيد الكَرَّة وتهاجم سيناء مرة أخرى ولكن إسرائيل تعرف جيدا قوة الردع المصرية فى سيناء،ولا لجاج فى أن مناورات الجيش المصرى فى سيناء خير رد على من يقولون أن سيناء منزوعة السلاح نتيجة لمفاوضات كامب ديفيد حيث شككوا فى إمكانية قيام القوات المسلحة المصرية بفرض سيطرتها على سيناء فى حالة نشوب حرب فعلية مع إسرائيل، وزعموا أن مصر لن تستطيع تحريك كل تلك القوات الضخمة فى الفترة المطلوبة وسيكون أمرا فوضويا إذا ما تم تنفيذه، فكان رد الجيش المصرى بإجراء مناورات ضخمة فى سيناء استطاع خلالها أن تنقل حجما كبيرا من القوات إلى وسط سيناء فى زمن قياسى بدايةً من المناورة بدر٩٦ التى كانت مثار الحديث والتحليلات لفترة طويلة وأثارت ذعر "نتنياهو" وقتها حيث استطاع الجيش المصرى نقل 50% من معداته إلى عمق سيناء فى ٦ ساعات واستطاع أن يصل لحالة الإستنفار الهجومى فى ١١دقيقة فقط (يعمل القادة على تقليل معدل

الوقت المستهلك مع التدريب على حرية الحركة بسرعة فائقة من مناورة لأخرى) ! وتم إصدار العديد من الدراسات الأمريكية حول هذا الإنجاز، وكانت المناورة تتضمن عمليات برمائية لتشكيلات عسكرية مصرية لصد هجوم إسرائيلى مفترض على سيناء ثم القيام بهجوم مضاد والتوغل داخل إسرائيل، ودائما ما تثير مناورات الجيش المصرى فى عمق سيناء ذعر وقلق الإسرائيليين حيث يعتبرونها خطرا موجها لأمنها القومى! كما أشارت إسرائيل عقب مناورة الجيش المصرى الأخيرة "بدوى ٣" بأنها موجهة إليها وتمس أمنها وأمانها !. كل هذا يظهر لنا حقيقة جلية وهى أن الجيش المصرى هو دائما درع الوطن وسيفه ومبعث فخر الأمة وصمام أمانها ومستعد دائما فى أى وضع وتحت أى ظرف للدفاع عن الوطن ولم لا ؟ وهو يمتلك خير أجناد الأرض.

.. ولكنها السياسة التى لعنها الإمام " محمد عبده " بقولته : " لعن الله السياسة، وساس، ويسوس ".

.. وأيضا إنها السياسة التى تحدث عنها الدبلوماسيون فى الشرق وفى الغرب فعبروا عنها:

.. " بأنها فن الممكن ".

.. ولم يكن السادات يملك غير هذا أمام التعنت الإسرائيلى الذى كان يتمنى أن تفشل مفاوضات السلام حتى يكون بمكنته أن تعود إسرائيل إلى سيناء من جديد.

.. وبمكنة مصر ذات يوم أن تعيد صياغة هذه الاتفاقية من جديد على ضوء خمسة اقتراحات ضمنتها كتابى " خواطر قاضٍ " تحت عنوان " سيناء هل نعمرها بالدعاء؟! "

.. ولا يفوتنا أن نذكر ما سجله الرئيس الأمريكى "ريتشارد نيكسون" عن شعب مصر الذى استقبله استقبالا حافلا قوامه مليون مصرى إبان زيارته لمصر إذ قال:

.. "زرت أعظم أرض فى التاريخ، واستقبلنى أعظم شعب فى العالم.. وكنت فى ضيافة أعظم رجل فى الشرق الأوسط ".

.. كما أفصحت الوثائق الأمريكية أن الرئيس الأمريكى ذاته كتب عن السادات يقول :

.. " لقد تملكت السادات شخصية الفلاح المصرى الذكى، ولأننى أعرف أنه (ذو ذكاء أسطورى)، فقد طلبت نسخ عدد من الوثائق الهامة تثبت كل كلمة مما سأكشفه له..لقد كشفه له على النحو الذى سردناه آنفا، وألمعنا إليه ".

.. انطلقت الرصاصات الغادرة لتغتال السادات فى يوم عيده.. وكأنها انطلقت فى قلب مصر.

.. وشيعه العالم فى جنازة حرص زعماء العالم من خلالها على تشييع جنازة السادات، وقالوا عنه ما دونه التاريخ

.. قال جيمى كارتر الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية :

.. «إننى لم أقابل أى رئيس أو مسئول أمريكى،إلا وحدثنا بصدق عن إعجابه الشديد بذكاء الرئيس «السادات» وتطلعاته وشجاعته.. وإننى شخصيا تعلمت الكثير من الرئيس «السادات»..

.. وكان الملك حسين ملك الأردن قد عبر عن ذلك بعبارات بليغة:

.. « ما يشدنى إليك أخوة صادقة ومحبة صافية ومسيرة مشتركة. فهى تكريس لوحدة شعبنا فى الألم والأمل وهى تعبر عن وحدة أمتنا فى الهدف والمصير. ولقد حفل سجلك الباهر على طول الطريق الذى قطعته مصر الغالية (بقيادتك الباسلة الحكيمة). بإحساسك بذلك الألم وإيمانك بذلك الأمل مثلما ازدان عهدك الميمون بإصرارك على ذلك الهدف ونضالك الباهر من أجل ذلك المصير.″

.. وقال البابا يوحنا بولس الثانى بابا الفاتيكان :

.. «إنه كان رجل السلام وله رؤية نافذة لتحقيق المصالحة والوفاق لقد حظى الرئيس السادات بالتقدير لإيمانه القوى ولمبادراته من أجل السلام التى حاول بها أن يفتح الطريق إلى حل النزاع الطويل الدامى بين العرب وإسرائيل. ″

.. أما «سوهارتو الرئيس الأندونيسى فقد قال :

.. «إن وفاة الرئيس السادات خسارة فادحة ليس للشعب المصرى فحسب بل للعالم بأسره».

.. وقال موبوتو سيسيكو الرئيس الزائيرى :

.. «إن اغتيال السادات أثر فى نفوس الزعماء الأفارقة وكل الشعوب المحبة للسلام وإن الرئيس السادات لم يدخر وسعا طوال حياته فى سبيل أن يطغى على المنطقة العربية والأفريقية السلام الشامل» .

..أما «نيكسون» الرئيس الأمريكى السابق فقد ذكر:

.. « أنه بموت السادات لقد تصدع صرح عظيم من صروح السلام، إن السادات تجسيد للشرف والأمانة."

.. جيرالد فورد رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سابقا فقال :

.. «إن السادات من أعظم الزعماء الحقيقيين فى العالم لا فى الشرق الأوسط فقط».

.. وقال والتر شيل الرئيس الألمانى السابق :

«إن الشعب الألمانى يعتبر الرئيس السادات رجل دولة يمارس سياسة تخدم السلام كما أنه رجلٌ لا يناضل فقط من أجل تحقيق الأهداف – كما يفعل الزعماء السياسيون عادة ولكنه يعلن صراحة مبدأ سياسته وهو المحافظة على السلام»

.. قال نيكولاى شاوشيسكو الرئيس الرومانى :

.. « إن الراحل العظيم كان شخصية سياسية عامة وكان يعمل من أجل السلام الدائم والعادل فى منطقة الشرق الأوسط».

.. وأشادت صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» الأمريكية بالرئيس الراحل محمد أنور السادات كبطل حرب وحاكم استثنائى، مستعرضة أهم الإنجازات التى حققها خلال فترة حكمه لمصر.

.. وأضافت الصحيفة أنه مع حلول ذكرى وفاة الرئيس السادات قد يبدو السادات لشباب ميدان التحرير الذى قام بثورته فى ٢٥ من يناير الماضى رمزا من الماضى البعيد، بل وقد يذهب البعض لمهاجمته لتوقيعه على اتفاقية سلام مع إسرائيل، لكنه ورغم كل هذا يظل رجل السلم والحرب وحاكم استثنائى فى التاريخ الحديث.

.. واستطردت الصحيفة تقول إن الرئيس السادات تولى رئاسة البلاد بعد وفاة سلفه جمال عبد الناصر المفاجئ فى أعقاب نكسة حرب ١٩٦٧م، ووطد علاقات بلاده مع الغرب، ثم وضع خطة محكمة ضمنت تحقيق مصر انتصار تاريخى فى حربها مع إسرائيل عام ١٩٧٣م، لتعيد للمصريين عزتهم وكرامتهم، وتكسر حالة الجمود التى دامت على مدى عقود طويلة فى الشرق الأوسط.

.. وقالت الصحيفة إن الرئيس السادات أقبل بعد ذلك على الخطوة الدبلوماسية التى تعتبر هى الأكثر استثنائية وتفردا فى تاريخ المنطقة الحديث،وذلك بقراره السفر إلى إسرائيل وإلقاء خطابه الشهير فى الكنيست الإسرائيلى ليعلن ترحيب بلاده بالعيش فى سلم وأمان مع الجانب الإسرائيلى،لينحى مصر جانبا عن دائرة الصراع فى الشرق الأوسط،وإتاحة الفرصة أمام المصريين للتركيز على بناء بلادهم بعد عقود طويلة من الحروب.

.. وذهبت الصحيفة الأمريكية إلى تشبيه الرئيس السادات برئيس الاتحاد السوفيتى السابق «ميخائيل جورباتشوف»،حيث تمكن السادات من كسر حاجز المحرمات باعترافه بدولة إسرائيل وإنهاء حقبة قاسية من العدائية والصراعات.

.. كانت حياة السادات أشبه بلمح من النور كما هى أشبه بلفح من النار.

.. وبعد أن اغتالته يد الغدر وبعد أن حرر مصر، وبعد أن ضم من الوطن الذراع، وكان فى طريقه للضياع.

.. عبر الدكتور «ناجح إبراهيم» فى جريدة الوفد فى الصفحة السابعة عن رأيه فى مقتل السادات وهو ـ كان ممن اتهموا باغتياله ـ قائلا:

لو عاد بى العمر لمنعت اغتيال السادات وبكل قوة، فقد كان اغتياله خطأ كبير وحسنات السادات أكثر بكثير من أخطائه.

.. يقال إن «على بن أبى طالب» كان إذا اعترضته عقبة حاول اقتحامها فإما كسرها وإما كسرته.

.. أما «عمر بن الخطاب» فكان يدور حولها حتى يجد لها مخرجا وهكذا كان السادات كما يتبدى لنا من مسيرته.

.. يقول أستاذنا العقاد:

والشعر ألسنة تفضى الحياة بها
إلى الحياة بما يطويه كتمانُ
لولا القريض لكانت وهى فاتنة
خرساء ليس لها بالقول تبيان
مادام فى الكون ركن للحياة يرى
ففى صحائفه للشعر ديوان

.. وإذا كان الشعر قد تخلف فى مصر كما كتب الدكتور «الطاهر أحمد مكى» عن الإشادة بالسادات، وهو بصدد حديثه عن شعراء حرب أكتوبر فى مقال له بمجلة الهلال المصرية إِّ ذكر أن الشعر الذى جادت

به قرائح الشعراء فى هذا الخصوص جاء شعرا هزيلا لم يعبر عن هذا الحدث العظيم بيد أن الشاعر محمد البحيرى قد مجدَّ السادات بهاتيك الأبيات الرائعات التى قال فيها:

عشت يا سادات فى صفحات السؤدد
وكفاك المجد فخرا وعزا ومغنما
إستأسد القوم حربا بالكلام وتوعدوا
ووعدت نصرا فصدقت فاعلا ومتكلما
أعددتَ جيشا بالعلم والإيمان مسلحا
وخُضت غمار الحرب قائدا ومعلما
فى حومة الوغى أسدا جسورا
وفى السلم كنت خير مسالما
هذه الجولان تشهد بحسن مكرك
حين رددت سيناء مُفاوضا ومُحكما
حَفِظت مصر أرضا وشعبا كريما
وحفظك تاريخ مصر بطلا مُكرما
سبقت بفكرك مكر اليهود براعة
فكنت لمصر خير زعيم ومُلِهما

.. كان زعيما عظيما وأديبا لبيبا له فى الفكر الأدبى شذرات ونفحات.

.. وانظروا ما فاه به «بيجن» قبيل وفاته والحزن يعتريه والألم يعتصره ويكويه، وهو يردد بملء فيه:

«ضحك علينا السادات أعطانا ورقة وأخذ منا سيناء»

.. وها هو ذا الكاتب الفرنسى «Robert sole» صاحب كتاب «مصر ولع فرنسى» يقول فى كتابه:

«السادات.. مصر أخرى»

«كان السادات بين زعماء العالم هو الرئيس السوبر ستار Super star» أى النجم الساطع

«لقد آثار السادات بشخصيته التاريخية غير المسبوقة مؤرخى الغرب».

.. ونحن نقول:

.. بل ومؤرخى الشرق كذلك!.

خاتمة

يقول الشاعر:

لكـل شـىء إذا مـا تـم نقصـان   فلا يُغَرُّ بطيب العيـش إنسان
هى الأمور كما شاهدتـها دول   مـن ســـره زمن ساءته أزمان

.. أتم السادات رسالته وقاد بلاده نحو النصر المؤذر المبين.. بفضل رب العالمين.

.. وآبت سيناء إلى أمها الرؤوم لتحيا كما كانت – منذ فجر التاريخ فى كنفها تحت بصرها وبصيرتها.

.. كان الدمع قد جرى فى مآقيها وغاب سنا الربيع الذى كان ساكنا فيها وخيم عليها شتاء أقسى من الشتاء القطبى فأفل نورها فى إصباحها وإمسائها.

.. ذاقت مصر سنوات «الهوان» فى أعقاب هزيمة ٥ يونيو عام ١٩٦٧م، إذ خلفت الأمور بها عواصفا حول مراسى سفنها فتربصت بها الهموم، وأحاطتها الغيوم، وأمست مثيرة الشجن متنوعة الدُجن.

.. واحتدمت أسواق الجدال التى أضحت تتخابط حولها، ولاسيما بعد أن اعتلى – السادات حكم مصر – تَلج بالحجج الجائرة حول تحريرها من ربقة الاحتلال الإسرائيلى.. بيَنما كان هو ثابت الجنان مطمئن الضمير والوجدان، قر عزمه على خوض غمار الحرب فى الوقت

الذى يحدده طبقا للظروف السياسية التى اعتورت مصر.. لا الذى يمليه عليه الآخرون.

.. منذ معية الصبا وحب مصر يمور فى قلب السادات، وكانت الآلم التى تذيب حشاشة الوطن كمرجل يغلى فى صدره، بعد هزيمتها، فاستغل دهاءه الذى كان يميزه عن قرنائه ولداته فى نسج خيوط العنكبوت حول زمن الحرب أو بالأحرى وقت نشوبها، كان دهاؤه أشبه بالدهاة العتاة الذين عدَّدهم كتاب «السياسة والحيلة،ورقائق الحلل فى دقائق الحيل». وانتهج منهج العلاج بالصدمة «Shock therapy» وأوقد نيران الحرب خلسة فكسرت شوكة العدو وأصابته فى مكمنه، فى سويداء قلبه فى ملحمة أكتوبر عام ١٩٧٣م التى وقفت من جرائها إسرائيل على رأسها والحزن يهتصرها فقد مكرت ولكن الله كان أسرع مكرا، ونامت مصر متيقظة على جنبها جزلانة بنصر الله بعد سنوات طوال من العسرة.

.. عندما توسد السادات كرسى الحكم فى مصر قام بإصلاحات عدة فى سبيل توطيد أركان الديمقراطية «Process of consolidation».. وإن كان قد تنازل عن البعض منها بسبب اتفاقية السلام مع إسرائيل، وبعد أن نفر بجيش مصر الباسل إلى قتال إسرائيل فاقتحم قلاعها المردة وأعاد لمصر أرضها وعرضها. بعد أن أضحى جيش مصر حديث العالم من أدناه إلى أقصاه، متسائلا هل كذبته أذناه؟!.

.. فغدا – بهذه المثابة – مثل الهلال بَدَا فلم يبرح به صوغ الليالى فيه حتى أقمرا.. أمسى كالهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيصير بدرا كاملا.

.. يقول أفلاطون: اتقن عملك تحقق أملك.

.. وقد أجاد السادات عمله وبلغ فيه الذرا لا يخاف الموت المتربص به ولا يرهب الردى.

كان يؤمن بقضاء الله وقدره وعندما طلبت إليه زوجه أن يرتدى الساتر الواقى من الرصاص حال توجهه إلى ساحة العرض العسكرى الذى أطبقت عليه فيه يد المنون قال لها: «إننى ذاهب إلى أولادى بالقوات المسلحة، وإن الموت قدر من الله، وإنه عندما يريد أن يأتى.. فسوف.. يأتى!.»

كأن السادات كان يؤمن بالقول القائل:

وما الموت إلا رحلة غير أنها
من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

.. جاء فى «الكتاب المقدس» فى «سفر التثنية»: «قد جعلت قدامك الحياة والموت، البركة واللعنة، فاختر الحياة!...» (تثنية ٣٠: ١٥ – ٢٠)

.. واختار السادات الموت لكى يحيا شهيدا عند ربه، وتحيا مصر مرفوعة الرأس عزيزة الجانب.

يقول الشاعر:

حكم المنية فى البرية جارى   ما هذه الدنيا بدار قرار
فالعيش يوم.. والمنية نقطة   والمرء بينهما خيال سار

.. قتلوا السادات فى برجه المشيد بعد أن حرر مصر وترك إسرائيل ترسل الدمع مدرارا لا يرقأ هذا الدمع السخين فىقلبها وفؤادها، وذلك بعد أن لجت فى ظلمات وسدرت فى غيها، فقد أخذها بالله الغرور.

مات السادات فى برجه المشيد، وصدق الله تعالى:

.. ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾

(سورة النساء أية ٧٨)

.. وإذا كانوا قد اغتالوه فقد ساروا على درب السابقين ممن أعماهم الحق وفارقتهم الفضيلة.

.. فـ «سقراط».. وقبيل الميلاد بما يقارب أربعمائة من الزمان! اتهموه بالكفر وأعدموه.

.. و «المسيح».. أنكروه وعادوه وعذبوه.

.. و «محمد».. تربصوا به الدوائر وحاربوه.

.. و «الحسين بن على».. ذبحوه.

.. و «الحلاج».. قتلوه.

.. وتربصوا الدوائر بالقديس «مار مرقس» وفصلوا رأسه عن جسده وأحرقوه؟.

.. وألم يقتل الغوغاء فيلسوفة الإسكندرية «هيباتيا» عالمة الفلسفة والرياضيات؟ لأنها أتت بما لا يعلمه الناس ولم يألفوه.

.. وتوماس مور صاحب الـ «**Utopia**» ومعناها البلد الذى لا وجود له، والذى رفض الانصياع إلى طلبة «هنرى الثانى» بأن يحلف يمينا للولاء له فألقوا به فى برج لندن حيث حاكموه وأدين ظلما فشنقوه.

.. و «جالليو».. كذبوه وأذلوه.

.. و «جوردانو برونو».. اتهموه بالهرطقة والكفر ووأدوه.

.. و «سافونا رولا» الذى انتقد الحكم الثيوقراطى فى بلاده.. فأماتوه.

.. و «المهاتما غاندى».. اغتالوه. وكذلك كان الأمر مع «جان دارك» و «مارتن لوثر كينج» «جون كيندى»، و «أنديرا غاندى».

.. شيع العالم بأسره السادات - كما سبق القول - بالحزن والحسرات بينما رماه الشانئون بالخيانة والعمالة، وكان السادات منهما بريئا براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

.. كان قتل السادات جرحا غائرا فى كبد الوطنية، وثلمة لا سد وشقا لا تحوصه الأيام أو الزمان.

.. والذى لا مرية فيه أنها لو ذهبت مناقب السادات وبقى له قيادته لحرب أكتوبر لكان كفيلا له بالسؤود الذى تعنو له الرؤوس، فبهذه الحرب وثبت مصر تنفض عنها الغبار ونهضت من عثارها بعد أن كان حسابها قد تراجع مع التاريخ.

أفضى السادات إلى ربه شهيدا - بمنزلة هى أعظم وأجل ما يطمح إليه المسلم الصدوق - بعد أن كان جل اهتمامه «بالباقية» فهانت عليه «الفانية»، وبعد أن تسنمت مصر مجدا وحققت نصرا شهد به الدانى والقاصى فى أرجاء الدنيا.

وكما أسلفنا القول، امتدت إلى السادات يد المنون، ولم يكن أبدا بالرجل الخؤون. كما نعته البعض ظلما وغلا وعدوانا.

بيد أنها عين الرضا، فهى عن كل عيب كليلة، ولكن عين السخط تبدى المساويا.

.. وصدق الشاعر فى قولته، وكأنما يتحدث السادات:

وأفضل الناس فى الورى رجل   قضى على يديه للناس حاجات
قد مات ما ماتت مكارمهم   وعاش قوم وهم فى الناس أموات

.. ولا مراء أن الخير الذى جلبه السادات إلى مصر هو الخير المذكور وغير المنكور. فمن يفعل الخير لا يعدم جوازيه، لا يذهب الخير بين الله والناس.

.. سيظل السادات حيا فى ضمير وطنه وفى ذاكرة أمته حيا لا يموت.

.. فالعظماء لا يموتون.

المستشار

محمد مرشدى بركات

رمل - الإسكندرية

١٨ / ٩ / ٢٠١٣

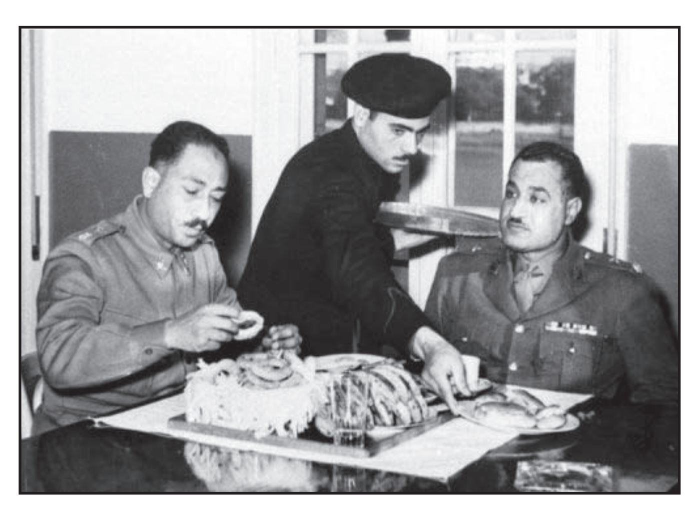
ملحق الصور



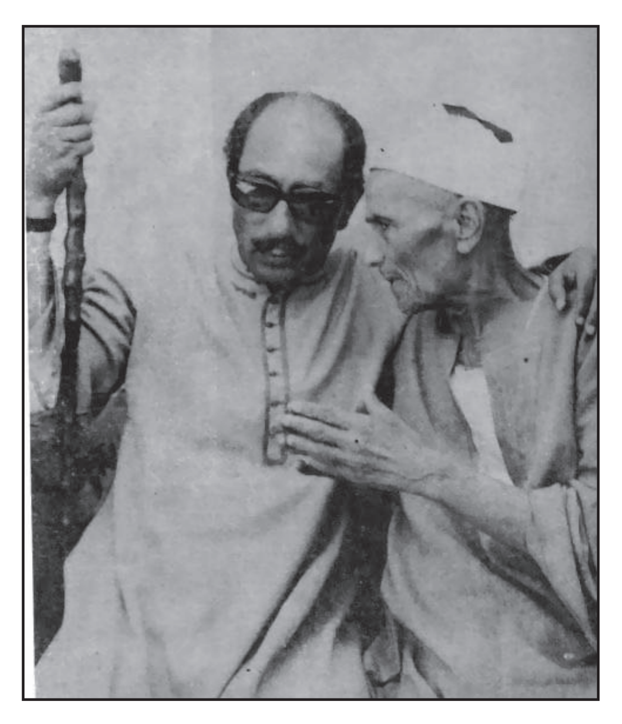
السادات عقب تخرجه من المدرسة الحربية



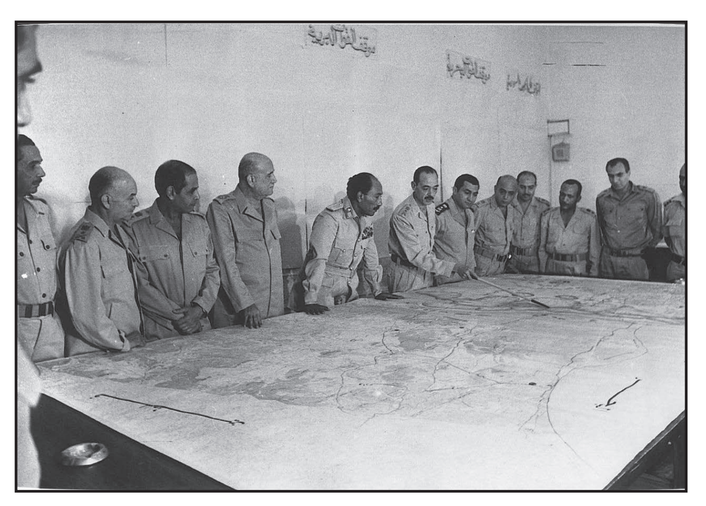
أنور السادات مع مجلس قيادة ثورة يوليو ١٩٥٢



السادات وجمال عبد الناصر قصة كفاح وصداقة يربطها العيش والملح



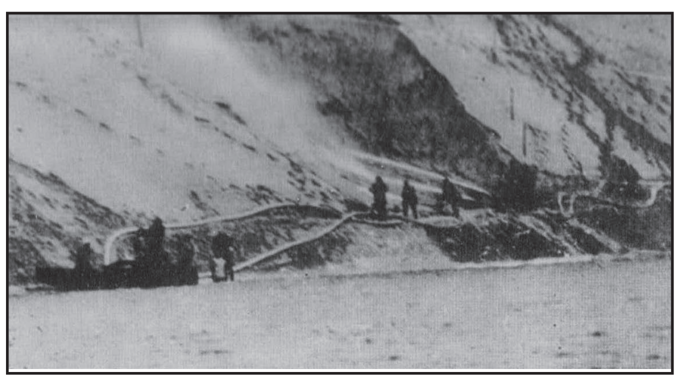
الرئيس السادات ظل مؤمنا بأنه جزء من الشعب



أنور السادات والتخطيط لمعركة التحرير



الجسور العائمة إلى نصر أكتوبر ١٩٧٣م



خط بارليف الغير قابل للنسف ولو بالقنبلة الذرية نسفه السادات بالماء



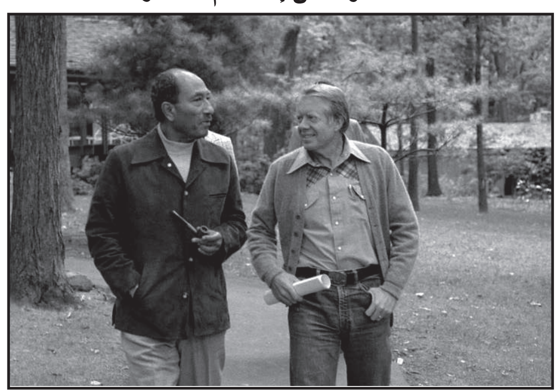
علم مصر يعود مرفرفا فوق أرض سيناء بعد ٧ سنوات من الاحتلال



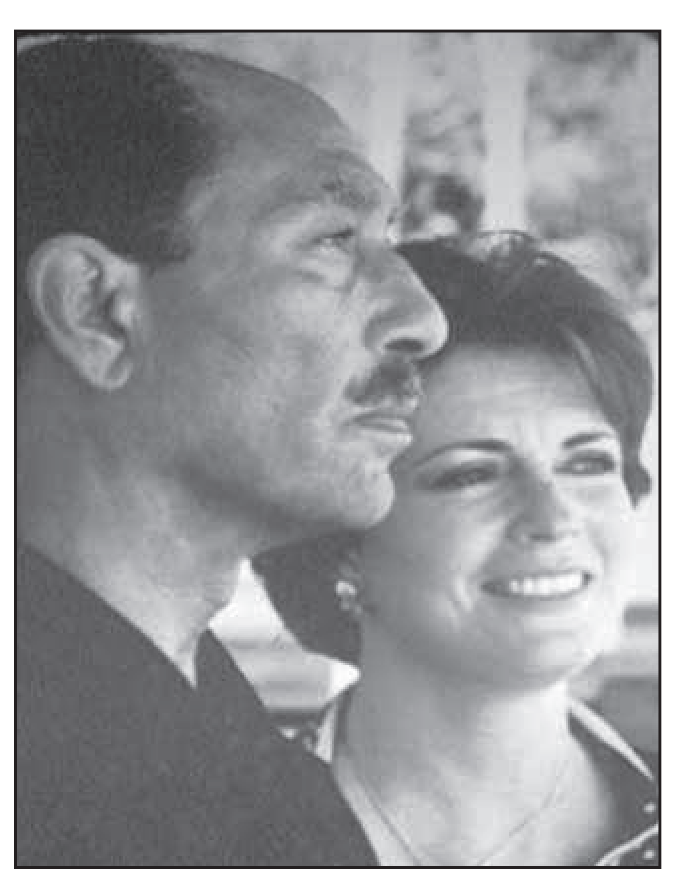
جولدا مائير فى برقية لنكسون: إسرائيل تحترق.. إنقذونا



السادات والسعى إلى سلام المنتصرين



جيمى كارتر الرئيس الأمريكى الذى أحب مصادقة السادات



السيدة جيهان السادات رفيقة كفاح وحياة



السادات يطلع على تصميم النصب التذكارى لنصر أكتوبر

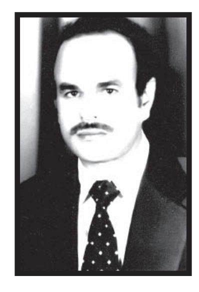


الجمهورية

السادات شهيدا
يوم انتصاره
طلقات غادرة وآثمة
اغتالته بين جنوده وأبطاله
حسني مبارك ينعى البطل:
ستشهد بطل الحرب .. وبطل السلام
مصر تقف جبهة واحدة متماسكة
سيرة مستمرة بعزم وإصرار
ن نكف عن دفع السلام

السادات شهيداً يوم إنتصاره

المؤلف فى سطور



تخرج المستشار محمد مرشدى بركات فى كلية الحقوق - جامعة القاهرة - وعين وكيلا لنيابة قوص، ونيابة نقاده، ثم وكيلا لنيابة إسنا، فوكيلا لنيابة مركز الأقصر فمديرا لنيابتها ونيابة أرمنت.

.. وعين قاضيا ثم رئيسا لمحكمة الأقصر الوطنية، فرئيسا لمحاكم الغردقة، وسفاجا، والقصير، والزقازيق، وبنها،وطنطا، وشبين الكوم، ومحكمة جنوب القاهرة، فرئيسا لمحكمة مصر الجديدة عام ١٩٨٠م.

.. انتدب إبان عمله كرئيس لمحكمة جنوب القاهرة مستشارا للأمانة العامة لمجلس الوزراء لمراجعة قضايا المفصولين من غير الطريق التأديبى.

.. ومستشارا بمحكمة الاستئناف العالى ببنى سويف،ثم المنيا، فالسويس، والإسماعيلية، وبورسعيد.

.. فنائبا لرئيس محكمة استئناف القاهرة،فرئيسا للمحكمة بها.

.. وآنذاك رشحته دولة الكويت للعمل بها رئيسا للمحكمة، بمحكمة استئنافها، وإذ طلب منه تقديم استقالته حيث كان يعمل رئيسا بمحكمة استئناف القاهرة - مع زملاء له آخرون - .. رفض الإعارة وآثر البقاء فى مصر.

.. ورحل إلى قطر للعمل فى القضاء هناك، ثم عاد منها حيث أسندت إليه رئاسة مركز التحكيم الدولى الإفريقى.

* * * * *

.. حاز جائزة التفوق الاجتماعى وهو ينتظم فى الصف الثالث الثانوى بمدرسة الفيوم الثانوية،وكانت تتيح له الالتحاق بالجامعة دون التقيد بدرجات المجموع،وكذلك الإعفاء من المصاريف المدرسية مع زميليه «المرحوم الدكتور محمود أدهم» والأستاذ «محمود عارف» نائبا رئيس تحرير جريدة الأخبار.

* * * * *

.. حصل على العديد من الجوائز الأدبية: أولاها الجائزة الأولى فى أول عيد للعلم عام ١٩٥٩م – ١٩٦٠م عن بحث فى تحليل شخصية الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر» وطبع بحثه على نفقة الدولة مع الفائزين الأربعة الآخرين، وكرمه الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر» فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة وسلمه شهادة امتياز وميدالية تقدير وشيك بمبلغ من المال فى هذا الاحتفال الذى كان على رأس المحتفى بهم فيه عميد الأدب العربى الدكتور «طه حسين».

* * * * *

.. فى السنة التالية فاز كذلك فى عيد العلم الذى كان يحضره الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر» فى نفس المكان السالف ذكره وسلمه الجوائز الخاصة به عن بحثه فى مشكلة تنظيم الأسرة وكان

على رأس المحتفى بهم فى هذا العيد الأستاذ الكبير «عباس محمود العقاد» الذى فاز بجائزة الدولة التقديرية فى الأدب.

.. فاز بالجائزة الأولى فى بحثه عن (احتكار العلم) وسلمه جوائزه الأستاذ الدكتور «حسين سعيد» وزير التعليم العالى.

* * * * *

.. وكذلك سلمه المرحوم الأستاذ «صلاح دسوقى» محافظ القاهرة جوائزه فى بحثه الذى فاز فيه بالجائزة الأولى عن: (البترول العربى) سلاح ضد الاستعمار والسلطة.

.. فاز بالجائزة الأولى من جامعة القاهرة عن بحثه فى (مشكلة السكان فى مصر) وسلمه الجائزة الأستاذ الدكتور «حسين فوزى» وكيل جامعة القاهرة وأمر بطبع البحث على نفقة الجامعة.

* * * * *

.. كما نال الجائزة الأولى فى القراءة من وزارة التعليم العالى.

* * * * *

.. نشر له المرحوم الأستاذ الكبير «أحمد الصاوى محمد» مقالات مختلفة فى بابه «ما قل ودل».

* * * * *

.. كتب العديد من المقالات فى صحف الأخبار والأهرام والجمهورية والشعب والقاهرة «قبل احتجابها» والحرس الوطنى والتحرير (قبل احتجابها» وروز اليوسف والمصور وآخر ساعة وجريدة المساء.

.. شارك فى العديد من البرامج التليفزيونية منها قناة دريم – والتلفزيون المصرى – وقناة الغد.

.. صادق العديد من كتاب مصر على رأسهم عملاق الفكر الأستاذ «عباس محمود العقاد» الذى أرسل له برقية فى إحدى المناسبات قال له فيها:

«نرجو للمرشدى ذروة المجد والخلود الأبدى» كما أرسل له برقية أخرى قال له فيها: «نهنئكم ونرجو لكم مئات التهنئات بأسعد الأعياد»، ونشر له العديد من المراسلات فى يومياته بجريدة الأخبار المصرية. ثم فى كتبه الأدبية «يوميات العقاد».

.. وكذلك الأساتذة «توفيق الحكيم ومحمد ذكى عبد القادر وأحمد بهاء الدين وأحمد الصاوى محمد ويوسف جوهر والشاعر صالح جودت» وغيرهم من رجالات الفكر والصحافة.

.. متزوج وله ابنان «خالد محمد مرشدى بركات» وقد حصل على ليسانس الحقوق جامعة عين شمس – قسم اللغة الإنجليزية – بدرجة جيد جدا – ثم حصل على الماجستير من ذات الجامعة،ثم دبلوم فى Arbitration، وكذلك دبلوم من الجامعة الأمريكية،ودبلوم العلوم الإدارية،ويعمل قاضيا بمجلس الدولة.

.. و «سارة محمد مرشدى بركات» وقد حصلت على ليسانس الحقوق جامعة عين شمس – قسم اللغة الإنجليزية – بتقدير جيد

جدا، ثم حصلت على الماجستير من ذات الجامعة، وكذلك على دبلومة من الجامعة الأمريكية،ومرشحة للعمل وكيلا للنيابة الإدارية.

* * * * *

مؤلفات المستشار

١ - بحث عن الرئيس جمال عبد الناصر طبع فى كتاب مع آخرين عام ١٩٥٩م ونفد.

٢ - خواطر قاض... دار المعارف - القاهرة.

٣ - هموم مصرية... دار المعارف القاهرة.

٤ - محمد أنور السادات سيرة ومسيرة... دار المعارف - القاهرة.

بضمير القاضى الذى شرفه الله بحمل رسالة العدالة والحكم بها بين الناس عقودًا طويلة من الزمن فتوخى العدل بها فى أحكامه متخذا إياها نبراسًا له، يبتغى به الحقيقة التى هى قوام الحق ومعقد النفع فيه.

كتب القاضى (محمد مرشدى بركات) المستشار ورئيس محكمة استئناف القاهرة العالى الأسبق، هذا الكتاب عن حياة الزعيم (محمد أنور السادات) يرد به على كارهيه الذين ظلموه بهتانا بألسنة حداد .. هذا الرئيس الوطنى الأبى الذى حباه الله منذ ميعة صباه قلبا جسورًا ينبض بحب مصر، فقاد جيشها الباسل بذكاء وقاد وعبقرية فذة، فحرر تراب الوطن من ربقة الاحتلال الإسرائيلى الذى طالما زعم أن ذراعه طويلة فكسرها السادات فى أكتوبر عام ١٩٧٣ بحرب ضروس، فاقت كمًا وكيفًا جميع الحروب على مدى التاريخ العسكرى القديم والحديث على السواء، أذهلت العالم من أدناه إلى أقصاه، بعد أن أسقط الله على عدوهم " كِسَفًا من السماء ".

ولقد صدق الأديب العالمى (أندريه موروا) حينما قال: " ما أعظم ميتة الرجل الذى ظل يؤدى مهمته حتى اللحظة الأخيرة التى جاد فيها بأنفاسه".

هكذا كان (محمد أنور السادات) فى حياته وفى مماته.



http://gate.dar-elmarf.com

٤٠٨٤٢٦/٠١